القَوْلُ السَّدِيدُ فِي عِلْمِ التَّوْحِيدِ

تأليف

فضيلة الأستاذ الشَّيخ محمود أبو دقيقة

الأستاذ بكلية أصول الدين سابقًا

تحقيق وتعليق

فضيلة الأستاذ الدكتور عوض الله جاد حجازي

رئيس جامعة الأزهر الأسبق

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١ - ٣



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذا هو الجزء الثالث من كتاب: «القول السديد فى علم التوحيد» لمؤلفه فضيلة الشيخ محمود أبو دقيقة الأستاذ بكلية أصول الدين سابقا.

ويبدأ هذا الجزء بالكلام على رسالة سيدنا محمد ﷺ، من جهة أدلة ثبوتها، وعمومها، وعدم نسخها.

ونسأل الله التوفيق.

د/ عوض الله جاد حجازى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذا هو الجزء الثالث من كتاب: «القول السديد في علم التوحيد» لمؤلفه فضيلة الشيخ محمود أبو دقيقة الأستاذ بكلية أصول الدين سابقا.

ويبدأ هذا الجزء بالكلام على رسالة سيدنا محمد ﷺ، من جهة أدلة ثبوتها، وعمومها، وعدم نسخها.

ونسأل الله التوفيق.

د/ عوض الله جاد حجازى

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة سيدنا محمد ﷺ

أدلة إثباتها — عمومها — عدم نسخها — دفع الشبه

(رسالة سيدنا محمد ﷺ)

قبل بعثة النبى محمد ﷺ كانت القبائل العربية مختلفة النزعات، أسيرة الشهوات، فاسدة العقيدة، سيئة الأخلاق، فتباغضت وتقاطعت، واستباحت سفك الدماء، وسبى النساء، وسلب الأموال، واستحسنت وأد البنات، وصنع معبودها بيدها .

وكان كل من دولة الفرس والرومان قد وصل إلى حالة تنذر بزوال سلطانها، فقد استمر القتال والتنازع بينهما زمناً طويلاً، واستبد قَوِىُّ كل دولة منهما بالضعيف، وسلب من ماله ما وصلت إليه يده، وانغمس الرؤساء فى الملاذ، وضلت الأفراد فى العقائد، بواسطة التدليس من رؤساء الأديان، وظهر فى دولة الفرس من أفهم الناس أن الله بعثه ليأمر بإباحة النساء، والأموال، بين الناس .

أما أهل الكتاب من يهود ونصارى، فرؤساء أديانهم تصرفوا فى الكتب فحرفوا وبدلوا، وأوهموا الناس أن هذا من عند الله، فكان حال الناس قبل البعثة فى اضطراب، وتخاصم وتقاطع، ليس من العدل، ولا من الرحمة السكوت عليه .

لهذا اقتضت رحمة الحكيم الخبير أن ينبه القوم من غفلتهم، بواسطة فرد من بنى نوعهم، يرسله إليهم بدين سماوى يكفل سعادتهم، فأرسل إليهم محمداً ﷺ مؤيداً بروح من عنده، فأرشدهم إلى الدين الإسلامى، وبين لهم أن اعتناقه والعمل به هو طريق سعادة الدارين .

ظهر النبي بينهم فادعى أنه مرسل من الله تعالى إلى الناس، بشيراً ونذيراً يهديهم إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، وكان ما قام به من الأوصاف الجليلة، وما عرف عنه بين قومه من وقت ولادته إلى أن بعث كافياً في الدلالة على صدقه، ولكن قوما عاندوا فجحدوا رسالته، فكان لزاماً أن نذكر الأدلة التي أيده الله بها، وصدقه في دعواه، حتى إذا ما اطلع عليها طالب الحق، أسير الدليل، اتضح له أن إنكار نبوته من بعض الناس لم يكن عن شبهة صحيحة، وإنما دعا إليه العناد والغرور

الأدلة على صدق دعواه الرسالة

أدلة صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة نوعان:

١ — **عقلية**: يدركها أصحاب العقول السليمة فيقتنعون.

٢ — **وحسية**: أوجدها الله تعالى على يد رسوله لتطمئن نفس المتردد وتنقطع حجة الجاحد.

أ — الأدلة العقلية

(١) القرآن الكريم: ثبت بالتواتر، وإجماع الأمم كافة أن النبي ﷺ أخبر بأن الله تعالى أنزل عليه قرآنا عربياً، غير ذي عوج، كما ثبت بالتواتر أنه تحدى فصحاء العرب، بطلب منهم أن يأتوا بمثل ذلك الكتاب، أو بما يماثل سورة من سوره، وأمهلهم زمناً طويلاً، فكان نصيبهم العجز عن المعارضة.

وحيث إنه تحداهم وعجزوا عن المعارضة مع توافر الدواعي، واشتهارهم بالفصاحة والبلاغة، فقد ثبت أنه ليس من صنع البشر، وإنما هو من كلام رب العالمين، فيدل على صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة، وبيان جهة إعجازه سيأتي الكلام عليه مستوفى في مبحث إعجاز القرآن.

(٢) سيرته قبل البعثة وبعدها :

ولد النبي ﷺ يتيماً ، لم يترك له والده من المال إلا شيئاً قليلاً ، لا يكاد يذكر (خمس جمال وبعض نعاج وجارية) ، وفى السنة السادسة من عمره توفيت والدته ، فكفله جده عبدالمطلب ، وبعد سنتين من كفالته توفى جده ، فكفله عمه أبو طالب على ما به من الفقر ، بحيث كان لا يملك كفاف أهله .

نشأ ﷺ فى وسط كانت العادة تقضى بأن يتأثر بأخلاقه ، فيلهو وهو صبى ، كما تلهو الصبيان ، ويعظم الأصنام مثل عشيرته ، ويتعلق بالأوهام كما كان عليه أولياؤه .

ولكنه مع اختلاطه بهم تنزه عن لهو الصغار ، وعبادة الأصنام ، والتعلق بالخرافات والأوهام .

وابتعد عن الفحش ، والأخلاق التى تدنس الرجال ، وعرف برجاحة الرأى ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، والأمانة ، والصدق فى القول ، فلم يكذب فى شيء ما ، ولو كذب لاجتهد أعداؤه فى التشهير به .

وقد عرف بين أهل مكة وهو فى شبابه بالأمين .

عرف بهذه الأوصاف ، وغيرها من صفات الكمال ، ولم يقم بتربيته مهذب ولم يعن بتثقيفه مؤدب من البشر ، بل المعلم والمؤدب له هو رب العالمين ، قال تعالى : ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾[1] ، وقال ﷺ : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) وكانت تنمو وتزيد أوصاف الكمال على مر الزمان ، إلى أن نبىء على رأس الأربعين ، فكان غاية فى الفصاحة ، قال عليه الصلاة والسلام : (أوتيت جوامع الكلم)[2] ذا خلق حسن ، قال تعالى : ﴿وإنك لعلى

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٥ صـ ٥ طبعة محمود توفيق .

خلق عظيم﴾[1] وقال عليه الصلاة والسلام «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» يعفو عند المقدرة، ويصبر على المكروه، قال تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[2] وقال تعالى: ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾[3]، وحسبك في هذا ما فعله ﷺ مع أهل مكة وقد آذوه واستهزأوا به، وأخرجوه من داره، ومعه أصحابه، وقاتلوه وحرضوا عليه، فإنه لما فتح مكة وصار الأمر بيده، عفا وصفح، وقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

وكان رؤوفاً رحيماً قال تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[4] وكان عدلاً بشهادة أعدائه، زاهداً في الدنيا، ومما يشهد لزهده أنه كان يقول: اللهم (اجعل رزق آل محمد قوتاً) إلى غير ذلك من صفات الكمال.

هذا الذي سمعته من أوصاف النبي ﷺ قليل من كثير، وإذا نظرت إليه أيها الشاك، أو المفكر، بعين الإنصاف والاعتدال، لكفاك دليلاً على صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة، فإن العقل يحيل على من قامت به هذه الصفات عدم الصدق في دعواه، ولذلك اكتفى بعض من أراد الدخول في الإسلام بالوقوف على صفاته، وتتبع آثاره وأعماله ﷺ.

(٦) إخبار الكتب السماوية والأنبياء السابقين بنبوته عليه السلام.

بشارات التوراة

في التوراة في السفر الخامس[5]: (أقبل الله من سيناء، وتجلى من ساعير،

---

(١) سورة القلم الآية ٤.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩.
(٣) سورة لقمان الآية ١٧.
(٤) سورة التوبة الآية ١٢٨.
(٥) السفر الخامس هو سفر التثنية من كتاب التوراة الإصحاح ٣٨ الآيات ١ — ٣.

وظهر من جبال فاران، ومعه وابورات الأطهار عن يمينه) هذا النص فيه إشارة إلى نبوة موسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، فلفظ (أقبل الله من سيناء) يشير إلى الجبل الذى كلم الله موسى ونبأه عليه، ولفظ (تجلى من ساعير) يشير إلى المكان الذى ظهر منه عيسى، وهى قرية بيت المقدس، ولفظ (وظهر من جبال فاران) يشير إلى الجبل الذى كان يتعبد النبى محمد ﷺ فى غاره حين نزل عليه الوحى .

و «فاران» هى مكة باتفاق الجميع، ونظير هذه البشارة قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾، فإن الإقسام بهذه الأماكن لظهور الوحى فيها، فالمراد بالبلد الأمين مكة، التى بعث النبى منها، والمراد بطور سيناء الجبل الذى كلم الله موسى عليه، أما التين والزيتون فالمراد منبتهما، وهى الأرض المقدسة التى ظهر بها عيسى عليه السلام .

وقال فى التوراة فى السفر الأول[1] «وأن الملك ظهر لهاجر أم إسماعيل فقال: «ياهاجر: من أين أقبلت؟ وإلى أين تريدين؟ فلما شرحت له الحال قال: «ارجعى» فإنى سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، قومى احملى[2] ولدك إسماعيل» «وشدى يدك لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك» .

«ومن ولدك يكون وحى للناس وتكون يده على الكل ويد الكل مبسوطة» «إليه الخضوع» .

فقوله من ولدك يكون وحى للناس إلخ صريح فى النبى ﷺ لأنه لم يوجد من ولد هاجر من ينطبق عليه هذه الأوصاف إلا النبى محمد[3] ﷺ .

---

(١) المراد بالسفر الأول سفر التكوين من كتاب التوراة .

(٢) راجع الكتاب المقدس — سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية جـ ٣ صـ ٢١٣ .

(٣) وذلك لأن سيدنا محمد من نسل إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل هو ولد إبراهيم من زوجه هاجر

بشارات الإنجيل

(١) «قال المسيح للحواريين أنا أذهب وسيأتيكم بالفارقليط روح الحق» «لا يتكلم من قبل نفسه إنما هو كما يقال له، وهو يشهد على وأنتم تشهدون لأنكم» «معكم من قبل الناس وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به» .

(٢) «فى إنجيل يوحنا الفارقليط[1] لا يجيئكم ما لم أذهب وإذا جاء وبخ العالم» «على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه مما يسمع به ويكلمكم ويسوسكم» «بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب» .

(٣) «فى إنجيل يوحنا إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم «فارقليطا» آخر يثبت معكم إلى الأبد ويتكلم بروح الحق» .

(٤) «وإذا جاء الفارقليط» الذى أبى أرسله روح الحق، الذى آمن بى يشهد لى» «قلت لكم حتى إذا كان تؤمنوا ولا تشكوا فيه .

«الفارقليط» قيل هو المخلص، وقيل إنه فى لغتهم لفظ من ألفاظ الحمد، أو محمود، أو محمد، وكله ينطبق على النبى محمد ﷺ .

(٥) فى إنجيل برنابا فى الفصل الثانى والسبعين ما نصه «وفى الليل تكلم يسوع سرًا مع تلاميذه قائلا الحق أقول لكم، إن الشيطان يريد أن يغربلكم كالحنطة، ولكنى توسلت إلى الله لأجلكم، فلا يهلك منك إلا الذى يلقى الحبائل لى، وهو إنما قال هذا عن يهوذا، لأن الملاك جبريل قال له: كيف كانت ليهوذا يد مع الكهنة؟ وأخبرهم بكل ما تكلم به يسوع فاقترب الذى يكتب هذا إلى يسوع بدموع قائلا: يامعلم، قل لى من هو الذى يسلمك؟

[1] (الفارقليط) كلمة معناها الأحمد أو المحمود، وهنا اللفظ لا ينطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ.

أجاب يسوع قائلا يابرنابا ليست هذه الساعة هى التى تعرفه فيها ولكنى يعلمنى الشرير نفسه قريباً، لأنى سأنصرف عن العالم، فبكى حينئذ الرسل قائلين، يامعلم لماذا تتركنا لأن الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا، أجاب يسوع لا تضطرب قلوبكم، ولا تخافوا لأنى لست أنا الذى خلقتكم، بل الله الذى خلقكم، يحميكم، أما من خصوصى فإنى قد أتيت لأهيىء الطريق لرسول الله الذى يأتى بخلاص العالم، ولكن احذروا أن تغشوا، لأنه سيأتى أنبياء كثيرون، يأخذون كلامى وينجسون إنجيلى، حينئذ قال اندراوس يامعلم أذكر لنا علامة لنعرفه.

أجاب يسوع إنه لا يأتى فى زمنكم، بل يأتى بعدكم بعدة سنين، حينما يبطل إنجيلى، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا فى ذلك الوقت، رحم الله العالم فيرسل رسوله الذى تستقر على رأسه عمامة بيضاء، ويعرفه أحد مختارى الله، وهو سيظهر للعالم، وسيأتى بقوة عظيمة على الفجار، ويبيد عبادة الأصنام من العالم، وأنى أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله، ويظهر صدق، وسينتقم من الذين يقولون إنى أكبر من إنسان، فليحذر العالم أن ينبذه، لأنه سيفتك بعبادة الأصنام، إلى أن قال وسيجيء بحق أجلى من سائر الأنبياء، وسيوبخ من لا يحسن السلوك فى العالم، وستحيا طربا أبراج مدينة آبائنا، فمتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض واعترف بأنى بشر كسائر البشر، فالحق أقول لكم أن نبى الله حينئذ يأتى.

أخبار الأنبياء السابقين

قد ورد عن بعض الأنبياء السابقين أخبار كثيرة تبشر بنبوة سيدنا محمد ﷺ، نقتصر على ذكر بعضها، جاء فى نبوة أشعيا حاكياً عن الرب سبحانه وتعالى (أشكر حبيبى ونبيى أحمد) وقال أشعيا (إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد).

وقال دانيال عليه السلام سألت الله تعالى وتضرعت إليه أن يبين لى ما يكون من بنى إسرائيل، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم، ويبعث فيهم الأنبياء أو يجعل ذلك فى غيرهم؟.

فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه، فقال السلام عليك يادانيال، إن الله يقول: إن بنى إسرائيل أغضبونى، وتمردوا عليَّ، وعبدوا من دونى آلهة أخرى، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل، ومن بعد الصدق إلى الكذب، فسلطت عليهم (بختنصر) فقتل رجالهم وسبى ذراريهم، وهدم مسجدهم، وحرق كتبهم، وكذلك يفعل من بعده بهم، وأنا غير راض عنهم، ولا مقيلهم عثراتهم، فلا يزالون فى سخطى حتى أبعث مسيحى ابن العذراء البتول، فأختم عليهم عند ذلك باللعن والسخط، فلا يزالون ملعونين، عليهم الذلة والمسكنة، حتى أبعث نبيا من بنى إسماعيل، الذى بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكى فبشرها فأوحى إلى ذلك النبى وأعلمه الأسماء، وأزينه بالتقوى، وأجعل البر شعاره، والتقوى ضميره والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض ما فيها، أسرى به إليَّ، وأرقيه من سماء إلى سماء، حتى يعلو فأدنيه وأسلم عليه، وأوحى إليه ثم أرده إلى عبادى بالسرور، والغبطة، حافظاً لما استودع، صادقاً فيما أمر، يدعو إلى توحيدى باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن على من عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدى وعبادتى، ويخبرهم بما رأى من آياتى، فيكذبونه ويؤذونه، ثم سرد دانيال ما أملاه عليه المَلَك من قصة رسول الله ﷺ حتى وصل آخر أيام أمتى بالنفخة وانقضاء الدنيا .

(٤) إخباره بالمغيبات .

أخبر النبى ﷺ بأمور غيبية على لسان القرآن، وأمور أخرى ثبت إخباره بها بالنقل الصحيح، أما القرآن فمنه قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم

وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم﴾[1] وقد تحقق هذا الوعد زمن الخلفاء .

وقال تعالى : ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾[2] وقد تحقق ذلك وقال : ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[3] وقد تحقق هذا أيضا فى غزوة بدر .

أما ما ثبت إخباره به من طريق السنة فكثير ، منه إخباره بأن أول من يموت من أزواجه بعده زينب وكان كما قال ، وإخباره عن الحسن بأنه سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين ، وإخباره بموت النجاشى وهو بأرضه ، ولا شك أن إخباره بتلك الشئون الغيبية ، وهو أمىٌّ نشأ بين قوم أميين ولم يجلس أمام معلم يدل على صدق نبوته ﷺ .

(٥) انتشار الإسلام بسرعة لم يسبق لها مثيل فى الأديان السابقة .

صح فى التاريخ أن الدين الإسلامى جمع إليه الأمة العربية فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم تناول من بقية الأمم ما بين المحيط الأطلنطيقى والصين فى أقل من قرن واحد .

وهذا أمر لم يعرف فى تاريخ الأديان ، خصوصا وأن الدين مهما سهلت تكاليفه ففيه التقييد بعد الإطلاق ، والتزام أمور قد تخالف هوى النفس ، فعجب الناس لهذا الانتشار السريع حتى ضل البعض فى معرفة السبب الحقيقى ، فزعم أن هذا الانتشار السريع ليس له سبب سوى السيوف ، والإكراه على اعتناق هذا الدين ، وهذا بهتان ، وافتراء ، والسبب الصحيح ما سيلقى على سمعك :

محاسن الدين الإسلامى ، وموافقة قواعده وأصوله للعقل الصحيح ، وكفالته

---

(١) سورة النور الآية ٥٥ .
(٢) سورة الفتح جزء الآية ٢٧ .
(٣) سورة القمر الآية ٤٥ .

السعادة فى الدارين للنوع الإنسانى، وسهولة تكاليفه، وتسامحه مع أهل الديانات الأخرى، هو السبب الوحيد فى انتشاره بتلك السرعة، كان الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة بثوا دعاة فى أنحائها تحمل أهلها على اعتناق دينهم ولا حجة لهم على ذلك إلا الغلبة والقوة!!

أما المسلمون فكانوا يدافعون عن الحق بالدليل العقلى، وإذا ظفروا بفتح بلد ووضعت الحرب أوزارها، واستقر سلطانهم عطفوا على المغلوبين وتركوهم متمسكين بدينهم، مقيمين لشعائره، آمنين مطمئنين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، ويأخذون من مالهم جزءاً قليلاً، مقابل القيام بشئونهم وحفظ دمائهم وأموالهم، ثم يشرحون لهم كتاب الله تعالى، وشريعته، ويتركون الخيار لهم فى القبول وعدمه، ولا يستعملون شيئا من القوة لإكراههم على الدخول فى الدين!!

أمر الإسلام الناس بالنظر فى الآيات الكونية. فأعطاهم حرية التفكير بخلاف غيره من الأديان.

أباح لهم التمتع بالطيبات من الرزق، ومقت الرهبانية التى لا تلائم الطبيعة البشرية بخلاف بعض الأديان، ربط أفراده بعضهم ببعض بواسطة معاونة الغنى للفقير بالمال، وسوى بينهم فى التقاضى واحترام الحقوق.

فتح باب الترغيب للعاصى: فبشره بغفران ذنبه متى حسنت التوبة وهكذا من المحاسن التى تضمنتها هذه الشريعة السمحاء.

ودين لا يحجر على العقل، ويتسامح مع مخالفيه، ويكفل مصالح الناس فى الدارين، لا شك أن المرشد إلى اعتناقه يكون صادقا فى دعواه الرسالة، فمحمد صادق حقا.

(٦) قضى العقل والنقل بأن وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تكميل النفوس البشرية ومعالجة الأمراض القلبية.

وقد تواتر أن نبينا محمدا ﷺ ظهر بين قوم معرضين عن الحق عاكفين: إما على عبادة الأصنام كمشركي العرب، وإما على ترويج المفتريات كاليهود، فقد استحلوا الربا وهو محرم عليهم، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وإما على القول بالآب والابن والتثليث كالنصارى، وإما على عبادة النيران ونكاح المحارم كالمجوس. !

قام النبي بين هؤلاء الأقوام فادعى أنه مبعوث بكتاب ينير لهم طريق السعادة ويهديهم إلى الطريق الأقوم، ويبين لهم ما يصحح عقائدهم وما هم مكلفون به من الأعمال، كما أنه جاء إليهم ليتمم مكارم أخلاقهم، وينتشل العالم من وهدة الفساد والظلمة.

ادعى النبي هذا وقام بما أخبر به والتزمه، فهداهم إلى الطريق المستقيم وغير حالة الناس من ظلمة إلى نور، ومن نقص إلى كمال، ومن تخبط في العقيدة إلى اعتدال وتمسك بالحق الواضح، وظهر دينه على كل الأديان فاضمحلت تلك العقائد الزائفة، وأشرقت شموس التوحيد في الجزيرة وما حولها، وليس للنبوة معنى سوى هذا، فمحمد ﷺ صادق في قوله إنه رسول إلى الناس، لأنه حقق معنى النبوة بما قام به، وما حصل على يديه.

٢ ـ الأدلة الحسية

الناس بالنظر إلى استعدادهم، وإدراك الحق، وتمييز الخبيث من الطيب والصدق من الكذب، ليسوا في مرتبة واحدة، فمنهم من سمت أفكارهم وعلت مداركهم، فأمكنهم أن يصلوا إلى إدراك ما خفي من الأسرار، وإلى كشف ما استبهم على غيرهم، ومنهم من انحطت قوته الفكرية وضعفت، فاستسلمت لعالم الحس فكان رائدها ومرجعها، فلا تقنع إلا بما يقع تحت الحس.

ولم يخل عصر النبي ﷺ عن هذين الفريقين، فلهذا جاء في تأييد دعواه بما يناسب كل طبقة .

فأيده الله تعالى بالقرآن الكريم، والأدلة العقلية التي تقدم ذكر بعضها، فاقتنع بها المنصفون من العقلاء وأرباب الأفكار السامية .

أما الفريق الثاني فلم تكفه تلك الأدلة القاطعة لعجزه عن فهم الأسرار وإدراك المعقولات على الوجه الصحيح أو عناده، فأراد الباري سبحانه وتعالى أن يقطع حجته، ويأتي له بآيات تناسب حاله الذي ظهر به، فأظهر على يد النبي ﷺ كثيرا من المعجزات الحسية الخارقة للعادة .

وقد تقدم في مبحث أقسام المعجزة ذكر كثير منها، فارجع إليه إن شئت .

وملخص ما تقدم أن الله سبحانه وتعالى أيد نبيه محمدا ﷺ بأدلة عقلية وحسية، إذا تأملها المنصف لا يسعه إلا الجزم بصدق من ظهرت على يده، وبأن من خالفه معاند يجادل بغير حق فلا يلتفت إليه .

عموم رسالته ﷺ

في مبدأ تكليف النوع الإنساني باعتناق دين سماوي كانت أفراده بالنسبة لفهم مصالحهم، وتحصيل شئونهم النافعة، كالطفل الحديث العهد بالوجود، فلا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه .

فاقتضت حكمة اللطيف الخبير بعباده أن يسير بهم في شأن التكليف بالتدرج على حسب الاستعداد الموجود عندهم، فكان يرسل ما بين وقت وآخر إلى كل طائفة على حدتها رسولا، يصلح من شأنها، ويكلفها بما يناسبها، فيكون ذلك الرسول وحدة بين أفراد الأمة التي أرسل إليها .

ولم تعم رسالة نبي قبل سيدنا محمد ﷺ جميع الناس، لأن العالم لم يكن قد

ويقضى إلى درجة التفكير فى الآيات الكونية، والنظر فى مصالحه على الوجه الصواب حتى يدرك بواسطة النظر والتفكير أن الإنسان مدنى بطبعه، وأن أفراده فى حاجة إلى بعضهم، وأن انتظامه تحت راية واحدة تظله، وقانون عام يكفل مصالحه، أولى به من التفرق والتقاطع، والتباغض.

ولما جاء وقت إرسال سيدنا محمد ﷺ، وكان الإنسان قد وصل إلى كماله البشرى، واستفاد من الحوادث الماضية ما ينبهه إلى وجوب استعمال عقله، وإلى أنه هو المرجع فى الحكم، والمميز بين صحيح القول وفاسده.

فى تلك الحالة يكون جمع الناس على كلمة واحدة، وتدينهم بدين واحد يخاطب العقل، ويدعوه إلى التدبر، ومشاركة الحس فى تفهم المصالح عن طريق التعاون بين أفراد ذلك النوع الواحد أمرا ميسورا.

وإذا نظرنا إلى سيدنا محمد ومنزلته بين الأنبياء اتضح لنا أنه وإن اشترك مع إخوانه الأنبياء فى أن الله تعالى جملهم بالأخلاق العالية، وحفظهم من النقائص البشرية، إلا أن سيدنا محمدا ﷺ امتاز بكمال تلك الأخلاق فيه أكثر من غيره، وهذا لا يؤدى إلى نقص فى الأنبياء، لأن التفاوت فى الكيف لا فى الكم، بمعنى أن الصبر والشجاعة مثلا لديه أكمل وأتم من غيره، أما أصل الصفات الفاضلة، والأخلاق العالية، فهى متحققة فى جميع الأنبياء، وإذا كان سيدنا محمد ﷺ قد أكرمه الله تعالى فمن عليه بتلك النعم الكاملة التى تستتبع آثارا تناسبها، والناس على ما سمعت قد انتقلوا من طور الطفولية إلى طور الكمال البشرى.

فإن المصلحة والحكمة تقضى بأن يكون الكل خاضعين لقانون واحد، يكفل مصالحهم ويحثهم على التعاون، والتآخى، لهذا جاء القرآن الكريم معلنا بعموم رسالة سيدنا محمد ﷺ، وأنها لا تختص بزمان، ولا مكان، ولا بطائفة دون طائفة، وإنها محولة للناس من تقاطع، وتباغض، إلى اتحاد وألفة، ومن تعدد

معبودات باطلة إلى الاكتفاف حول معبود واحد، هو الموجد للمخلوقات، المستحق للعبادة وهو الرحيم بهم .

قال تعالى. ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[١] .

وقال تعالى. ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾[٢] .

وقال تعالى. ﴿قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً﴾[٣] .

وقال تعالى. ﴿ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم﴾ .

وقال تعالى. ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[٤] .

وقال تعالى. ﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ .

وقال تعالى. ﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾[٥] .

وقال تعالى. ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾[٦] .

(ط١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧
(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٨
(٥) سورة المائدة / ١٥.
(٦) سورة الأحقاف / ٢٩، ٣٠، ٣١.

(٢) سورة سبأ الآية ٢٨.
(٤) الآية الأولى من سورة الفرقان.

الشريعة المحمدية دائمة لا تنسخ

إن الله تبارك وتعالى لم يكلف العباد، ويلزمهم بالوقوف عند حدود لا يتعدونها لغرض استعبادهم، وإذلالهم، وإظهار سلطانه عليهم، وإنما كلفهم لمصالح تعود عليهم، وللوصول إلى سعادة مرتبطة بامتثالهم لما طلب منهم فعله أو تركه .

وقد جاء على لسان الرسل السابقين شرائع كثيرة، كل واحدة منها كانت تكفل مصالح الأمة، التي أرسل إليها صاحب تلك الشريعة في زمن خاص .

ومتى انتهى ذلك الزمن وأهله وجاء خلق جديد تجددت الحاجة إلى شرع آخر، يناسب هذا الخلق، ولم يعرف أن شريعة قبل شريعة سيدنا محمد ﷺ جاءت صالحة لجميع الأزمان لما علمت أن الناس في زمن الأنبياء السابقين لم يكونوا قد وصلوا إلى الكمال البشري، والنضوج العقلي، فكان خطابهم على حسب استعدادهم[1] .

أما شريعة سيدنا محمد ﷺ، فقد جاءت والإنسان قد كمل في باب الإدراك، وتفهم المصالح العامة والخاصة، فاقتضت المصلحة، والحكمة أن تكون تلك الشريعة صالحة لجميع أفراد العالم، ملائمة لجميع الأزمان .

ولما فطر عليه الإنسان بأصل خلقته، متوسطة بين الإفراط والتفريط، كفيلة بالسعادة، فقد أرشدت الإنسان إلى ما يرفع شأنه، ويحقق إنسانيته، فطلبت منه أن ينبذ عبادة الأصنام والكواكب، وأن يقصر عبادته على معبود واحد، هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما .

وأطلقت فكره في التأمل في ملكوت السموات والأرض، ليستدل بذلك الصنع البديع المتقن على وحدة المعبود الحق، وعلى أنه هو الأحق بالعبادة دون

---

(١) في المطبوعتين على حسب استعدادهم والصواب ما كتبناه.

سواه، ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾[1] ورغبته في التحلي بمكارم الأخلاق، وأباحت له من طيبات الدنيا ما لا يضر بالعرض، أو النفس، أو الغير، أو المال، وشرعت له عبادات من صلاة وصوم، وزكاة وغير ذلك، مما من شأنه أن يزرع في نفس المكلف خلقا طاهراً، ونفرة من الخبائث، ومعاونة لإخوانه المؤمنين.

وأمرته بالسعي في المصالح الدنيوية على وجه لا يضر بآخرته، ووضعت قوانين تكفل حق الأفراد، والأسر والجماعات.

ولم تترك شيئا مما يحتاج إليه الإنسان حتى آداب النوم والأكل والشرب!!

فشريعته جاءت وافية بجميع مصالح الإنسان، وبيان ما يؤول إليه أمره في العالم الأخروي، ومطابقتها للفطرة الإنسانية جديرة بأن تكون آخر الشرائع، وناسخة لكل شريعة قبلها، وصاحبها يكون خاتم النبيين، وسنة الترقي تنتهي بالكمال، قال تعالى. ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾[2].

وقال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾.

وقال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران / ١٩٠.
(٢) سورة الأحزاب / ٤٠.
(٣) سورة المائدة جزء الآية / ٣.

شبه المنكرين لبعثته ﷺ

المنكرون لبعثة سيدنا محمد ﷺ فرقتان:

الأولى أنكرت بعثته إلى العرب وغيرهم.

والثانية أنكرت بعثته إلى غير العرب، وسلمت بعثته إلى العرب.

والذين أنكروا بعثته على الإطلاق هم: النصارى وجميع طوائف اليهود ما عدا العيسوية:

وهؤلاء الذين أنكروا بعثته على الإطلاق اختلفوا من حيث الشبه التى استندوا إليها فى إنكارهم، فاستند النصارى فى إنكارهم إلى القدح فى معجزاته ﷺ.

ومحصل ما قالوا: أن المعجزات تنحصر فى نوعين:

النوع الأول القرآن.

والنوع الثانى غيره من خوارق العادات التى ظهرت على يده، فقدحت فى إعجاز القرآن بشبه سيأتى ذكرها، والرد عليها عند الكلام على مطاعن القرآن، وقدحت فى غيره من الخوارق بأنه من باب السحر والكهانة.

وهذا قدح منشؤه التباس الأمر على ذلك الناظر، وعدم التفرقة بين المعجزة، وغيرها، وعدم النظر إلى أحوال مدعى النبوة، وأحوال الساحر.

والعقل السليم لا يسلم ذلك القدح لوجوه كثيرة:

منها أن النبى ﷺ ما كان يطلب شيئا تعود ثمرته على شخصه حتى يتهم بالملك، بل كل ما كان يطلبه ويبتغيه هو السعادة لقومه فى الدارين

ومنها: أن سيرة النبى ﷺ، وما كان عليه من الأخلاق الفاضلة، والتمسك

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصفح عمن ظلمه، وعدم الانتقام لنفسه، وغير ذلك من صفاته، يمنع توهم كونه ساحرا .

ومنها: أن مثل انشقاق القمر. لو كان سحرا لخيل لمن وجد مع النبي ﷺ فقط، دون من كان مسافرا، ولا علم له بتلك الحادثة، وقد ثبت أن المسافرين أخبروا بعد قدومهم من السفر بأنهم رأوا القمر قد انشق فلقتين .

وأيضا فقد علمت فيما سبق أن المعجزات: من قبيل الخارق للعادة، والسحر ليس من الخارق للعادة، فالقول: بأن هذه الخوارق من قبيل السحر باطل .

أما طوائف اليهود غير العيسوية، فاستندوا في إنكارهم بعثة النبي مطلقا إلى شبهتين :

الأولى. قولهم، لو كان محمد نبيا مبعوثا لترتب على ذلك نسخ شريعة من سبقه من الأنبياء المرسلين، لكن النسخ باطل، فما أدى إليه، وهو كون محمد نبيا مبعوثا باطل، فثبت نقيضه، وهو أنه ليس نبيا مبعوثا، وجه لزوم النسخ لبعثته: أن شريعته مخالفة للشرائع السابقة في كثير من الأحكام الشرعية العملية، فالعمل بها مؤد إلى إبطال العمل بالشرائع السابقة في تلك الأحكام .

ووجه استحالة النسخ وبطلانه: أنه يستلزم واحدا من أمرين: الجهل أو العبث، لأن النسخ إن كان لحكمة ظهرت؟ ولم تكن معلومة من قبل، يلزم الجهل، وإن لم يكن لحكمة اقتضته فهو عبث من غير فائدة، وكل من الجهل والعبث محال على الله تعالى .

ويجاب عن ذلك: بأنا نختار أن النسخ لحكمة، ومصلحة اقتضته، ولا يلزم الجهل لأن الله تعالى علم في الأزل، أن المصلحة في العمل بحكم كذا إلى وقت معلوم، وبعد ذلك الوقت تكون المصلحة في العمل بغيره، ولا ضرر في ذلك، لأنه يرجع إلى أن الأحكام وجدت في الخارج طبقا لعلم الله تعالى.

والجهل بالمصالح راجع إلينا لعدم إطلاعنا على الغيب، وقد جاء في شريعة موسى: حرمة التزوج بالأخت مع أنه كان مباحاً في شريعة آدم وهذا نسخ .

الشبهة الثانية: أنه قد نقل عن سيدنا موسى عليه السلام أنه قال في وصف شريعته: (هذه شريعة مؤبدة) ونقل هذا تواترا، فلو نسخت شريعته لبطل قوله هذا، وكيف يكون قوله باطلا، وهو نبي مرسل لا يخبر عن شيء إلا بوحي!!؟؟ وإذا كان نسخ شريعته مؤديا إلى إبطال قوله، وهو باطل، فما أدى إلى نسخ شريعته وهو إرسال سيدنا محمد ﷺ يكون باطلا .

ويجاب عن هذه الشبهة بجوابين. **الأول** بالتسليم، وحاصله: أنا نسلم أنه من قول موسى:

ولكن يجب تأويله: جمعا بينه، وبين ما تواتر عن سيدنا موسى من أخباره برسالة سيدنا محمد ﷺ وما اشتملت عليه التوراة التي نزلت على موسى، من التبشير برسالة سيدنا محمد ﷺ، فيحمل التأبيد في قوله (مؤبدة) على طول المكث فقط .

والجواب الثاني: بالمنع، وحاصله أنا نمنع كون هذا من قول موسى، بل هو مختلق، اختلقه ابن الراوندي، وقد عرف اليهود بافتراء الكذب على الله وتحريف الكلم عن مواضعه، فلا اعتماد على نقلهم .

وتوضيحه: إن قول موسى هذا نقل تواتراً عنه ع، بحيث مثل تواتر قتل عيسى عليه السلام، مع أنه شبه لهم، حتى كان هذا المنقول عن قول موسى محتجت به اليهود على النبي عند مخاصمته له، ولم ينقل عنه ذلك، واحتجوا أيضاً بأنه يوجد في التوراة: (تمسكوا بالسبت مادامت السموات والأرض)، فإنه يفيد استدامة الشريعة الموسوية وعدم نسخها.

ويجاب عن هذا بأنه لا تواتر في التوراة الموجودة الآن، لاتفاق علماء التاريخ على أن اليهود لما قتلوا نبي الله أشعياء سلط الله عليهم ذلك الظالم المسمى

(بخت نصر)، فقتل ثلثهم وسبى ثلثهم، وترك ثلثهم، وأحرق أسفار التوراة، وكان جميع الحفظة لها من المقتولين .

وأما الذين أنكروا بعثته إلى غير العرب وسلموا بعثته إلى العرب فهم: العيسوية من اليهود .

هذه الفرقة قالت : إن محمدا بعث إلى العرب خاصة، وأنكرت بعثه إلى باقي الخلق .

واستندت فى ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[1] فإن هذه الآية تفيد أن الرسول يكون لسانه لسان قومه الذين بعث إليهم، وحيث كان لسان محمد ﷺ العربية، فيكون قومه هم العرب لا غير .

والجواب أن الآية سيقت لحكاية حال الرسل السابقين، مع أممهم، فإن معناها: وما أرسلنا فى الأمم الخالية من قبلك رسولا إلا وهو متكلم بلغة من أرسل إليهم من الأمم .

والحكمة فى ذلك: تسهيل فهم الخطاب على قوم ذلك الرسول حتى لا يحتاجوا إلى مترجم .

فتكون الآية حاكية لحال الأنبياء مع أممهم غير متعرضة لحال النبى مع من أرسل إليهم .

وحينئذ يقال:لِمَ لَمْ تتبع تلك السنة مع سيدنا محمد ﷺ، وينزل القرآن الكريم بجميع اللغات تسهيلا على قومه؟؟ .

والإجابة على ذلك نقول: علمت من مبحث عموم الدعوة أن عموم رسالته ﷺ قضت به الأدلة القطعية: عقلية ونقلية، فعمت دعوته العربى، والعجمى،

---

(1) سورة إبراهيم جزء الآية رقم 4 .

والأسود، والأحمر، والجن، والبشر، فلو نزل القرآن بجميع اللغات وتعدد نظمه حسب تعدد ألسنة الأمم لأدى ذلك إلى التنازع واختلاف الكلمة، وتطرق أيدى التحريف، وكان اختصاص النظم العربى والإعجاز دون غيره مظنة القدح فى ذلك الكتاب، فالحكمة إذاً هى فى اتحاد النظم الكريم، ومجيئه بلغة واحدة.

ولما كانت لغة العرب أشرف اللغات، وهى لغة النبى وقومه، الذين بعث فيهم وهى التى بها كان القرآن معجزا نزل الكتاب باللسان العربى المبين.

وبفهم الآية على ذلك الوجه لا تصلح الآية حجة لذلك الفريق القائل إن رسالته للعرب خاصة، لأنها مسوقة لذكر حال الأنبياء السابقين مع أممهم.

وقيل. إن الآية شاملة للنبى وغيره، والمعنى وما أرسلنا رسولا إلا وكانت لغته لغة قومه، الذين بعث من بينهم، وهذه رسالته تكون[1] لقومه ولغيرهم.

وبالجملة فالآية محتملة، وليست نصا فيما فهمه ذلك المخالف، فلا تعارض ما كان نصا فى عموم دعوته، وهو الآيات المسطورة فى مبحث عموم الدعوة التى سبق ذكرها.

وأيضا يقال لهذا الطاعن فى عموم رسالة النبى ﷺ المسلم بإرساله إلى العرب: حيث إنك سلمت بعثته إلى العرب فقد اعترفت بأنه نبى مبعوث.

ومن لوازم كونه مبعوثا أن يكون صادقاً فى خبره، وقد نقل عنه تواترا أنه أخبر بأنه نبى مبعوث إلى الخلق كافة، ودل القرآن الكريم المنقول إلينا تواترا على ذلك، فيلزمك أن تصدقه فى قوله إنه مبعوث إلى الخلق، وأن تصدق القرآن فى ذلك حيث إنك مستدل بالآية السابقة الذكر.

---

(١) هكذا وردت العبارة فى المطبوعتين ونرى أن العبارة فيها خطأ مطبعى، والأولى أن تكون العبارة: وهذا لا ينافى أن تكون رسالته لقومه ولغيرهم.

الصحف والكتب السماوية

التى أنزلت قبل القرآن

ثبت بالقرآن والتواتر والإجماع، أن الله سبحانه وتعالى أنزل على داود عليه السلام كتابا سماويا، وعرف باسم خاص وهو (الزبور)، وأنزل على موسى كتابا سماويا هو التوراة، وأنزل على عيسى كتابا سماويا هو الإنجيل، قال تعالى: ﴿وآتينا داود زبورا﴾ وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾[1] وقال تعالى: ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾[2].

أما الصحف فقد ورد فى شأنها آثار كثيرة، وأرجحها أنها مائة صحيفة خمسون نزلت على شيث عليه السلام، وثلاثون نزلت على إدريس عليه السلام، وعشرة نزلت على إبراهيم، وعشرة نزلت على موسى، والظاهر أن هذه الصحف كانت مشتملة على مواعظ وإرشادات إلى التحلى بمكارم الأخلاق، والتخلى عن مساوئها، ولم يعرف عنها شىء يقينا لعدم وجود ما يفيد يقينا بشأنها.

ما طرأ على الكتب السماوية

الذى يؤخذ من كلام الكاتبين فى هذا النوع أن الزبور الذى نزل على داود عليه السلام، لم يأت بشرع جديد ناسخ لشرع موسى، وإنما كان عبارة عن مواعظ وترغيب فيما ينفع، وتنفير عن الضار. ولذلك لم ينسخ بالشرع الذى جاء بعده. لأن النسخ إنما يكون فى الأحكام والتكاليف الشرعية.

ولقد كان من المظنون أن مثل هذا الكتاب لا يتطرق إليه التغيير والتبديل لعدم وجود الداعي إلى ذلك، ولكن ذكر ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح في آخر الجزء الأول ما نصه:

(وكذلك رأينا في الزبور نسخا متعددة يخالف بعضها بعضا مخالفة كثيرة في كثير من الألفاظ، والمعاني يقطع من رآها أن كثيرا منها كذب على زبور داوود وليس من زبور داوود عليه السلام).

أما التوراة والإنجيل فقد ذكر الكاتبون أنه طرأ على كل منهما تحريف وتغيير، كان من لوازمه قطعا أنه لا يمكن الجزم معه بأن سفر كذا أو إصحاح كذا نزل من السماء.

وسأبين لك بطريق الإيجاز مفهوم التحريف وأنواعه، وأذكر لك الأدلة التي تثبت وقوعه في التوراة والإنجيل.

مفهوم التحريف

قال في القاموس: التحريف: التغيير، وقال في مختار الصحاح: تحريف الكلام عن مواضعه: تغييره، ومن هذا يتبين أن تحريف الكلام هو تغييره، والعدول به عن جهته.

ويندرج تحت هذا المفهوم نوعان: التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

والتحريف اللفظي: يندرج تحته أمور ثلاثة.

الأول تبديل لفظ بلفظ. أو جملة بجملة يكون بينهما مغايرة في المعنى

الثاني زيادة كلمة، أو جملة توجب تغيير المعنى.

الثالث. نقص كلمة أو جملة بحيث يكون [illegible]

[illegible]

النصارى لفظ (الفارقليط) الذى معناه فى لغة الإنجيل الأصلية (أحمد) عن روح القدس توصلا لإنكار بشارة الإنجيل بنبينا ﷺ .

أما الدليل على وقوع التحريف فى هذه الكتب: فهو .

(١) الاختلاف الواقع بين نسخ التوراة الموجودة فى أيدى اليهود، وكذا فى نسخ الأناجيل الموجودة فى أيدى النصارى، فإن هذه النسخ لو كانت سماوية وهى التى جاء بها الوحى ما وجد فيها هذا الاختلاف المؤدى إلى التناقض حتما، بحيث لا يمكن الجمع بينها .

(٢) اشتمال هذه الكتب على ما يحيله العقل، ويخالف الفطرة السليمة .

(٣) اعتراف أكابرهم بوقوع الاختلاف فى هذه الكتب .

أما الاختلاف الواقع فى نسخ التوراة، فقد حصل فى مواضع كثيرة يعرفها من نظر فى نسخها وإلى أذكر لك شاهدا على ذلك .

النسخ المشهورة للتوراة عند اليهود ثلاثة :

الأولى: النسخة العبرانية: وهى المعتبرة عند اليهود وجمهور علماء البروستانت .

والثانية: النسخة اليونانية وهى التى كانت معتبرة عند المسيحيين إلى القرن الخامس عشر الميلادى. وكانوا يعتقدون إلى هذه المدة تحريف النسخة العبرانية .

والثالثة: النسخة السامرية، وهى المعتبرة عند السامريين .

هذه النسخ الثلاث نصت على مقدار الزمن من خلق آدم إلى طوفان نوح عليه السلام .

ولكن النسخة العبرانية قدرته بـ ١٦٥٦ بألف وستمائة وست وخمسين سنة، والنسخة اليونانية قدرته بـ ٢٢٦٢ بألف ومائتين واثنتين وستين سنة، والنسخة السامرية قدرته بـ ١٣٠٧ بألف وثلاثمائة سنة وسبعة .

فانظر إلى هذا الاختلاف الفاحش الذى يتعين معه كذب الكل، أو البعض .

ولأجل هذا الاختلاف الفاحش لم يعتمد المؤرخ الشهير عندهم يوسيفس اليهودى التقدير الموجود فى هذه النسخ، واختار أن المدة المذكورة ٢٢٥٦ ألفان ومائتان وست وخمسون سنة .

كذلك ذكر فى التوراة العبرية أن الزمان من الطوفان إلى ولادة إبراهيم عليه السلام ٢٩٢ سنة، وقدر فى اليونانية ١٠٧٢ بألف واثنتين وسبعين سنة، وقدر فى السامرية بتسعمائة واثنتين وأربعين سنة .

وفى سفر الخليقة فى الباب السادس والثلاثين آية ٣١ هذا النص:

(وهؤلاء الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم قبل أن يملك لبنى إسرائيل) هذه الآية قال فيها آدم كلارك فى المجلد الأول من تفسيره ما نصه غالب ظنى أن موسى عليه السلام ما كتب هذه الآية: والآيات التى بعدها إلى الآية التاسعة والثلاثين. بل هذه الآيات، هى آيات الباب الأول من السفر الأول من كتاب أخبار الأيام، وأظن ظنا قويا قريبا من اليقين، أن هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة من التوراة فظن الناقل أنها جزء المتن فادخلها فيه اهـ .

فهذا اعتراف من ذلك المفسر بأن تلك الآيات ليست من التوراة، وأنها زيدت من النساخ .

وفى الباب الرابع من سفر التكوين فى النسخة العبرانية الآية الثامنة هكذا)، (وقال قايين لهابيل أخيه، ولما صارا فى الحقل قام قايين على هابيل أخيه فقتله) وفى النسخة السامرية، واليونانية والتراجم القديمة هكذا .

(وقال قايين لهابيل أخيه. تعالى نخرج إلى الحقل، ولما صارا فى الحقل قام قايين على هابيل أخيه فقتله) فإذا قارنت بين هذه النسخ ترى. أن النسخة العبرانية سقط منها ما ثبت فى السامرية، واليونانية.

وقال بعض الكاتبين، قد نقل عن علمائهم تسليم ذلك.

أما الاختلاف الواقع في نسخ الأناجيل فهو كثير أيضا، وهذه شواهده.

قال صاحب روح المعاني في تفسير سورة آل عمران عند كتابته على قوله تعالى. ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[1] ما نصه، وما يؤيد وقوع التغيير في كتب الله تعالى، وأنها لم تبق كيوم نزلت وقوع التناقض في الأناجيل، وتعارضها وتكاذبها وتهافتها ومصادمتها بعضها ببعض، فإنها أربعة أناجيل.

الأول، «إنجيل متى»، وهو من الاثنى عشرة الحواريين، وإنجيله باللغة السريانية. كتبه بأرض «فلسطين» بعد رفع المسيح إلى السماء بثمان سنين، وعدة إصحاحاته، ثمانية وستون إصحاحا.

والثاني «إنجيل مرقس» وهو من السبعين وكتب إنجيله باللغة الفرنجية بمدينة «رومية» بعد رفع المسيح باثنتى عشرة سنة، وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحا.

والثالث «إنجيل لوقا»، وهو من السبعين أيضا. كتب إنجيله باللغة اليونانية بمدينة «الإسكندرية» بعد ذلك، وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحا.

[illegible] «إنجيل يوحنا» وهو حبيب المسيح كتب إنجيله بمدينة «إفسس» [illegible] بعد رفع المسيح بثلاثين سنة.

[illegible] إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحا.

وقد تضمن كل إنجيل من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر، واشتمل

---

(1) سورة آل عمران الآية ٧٨.

على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها، أو على ما يخالفها، بل فيها ما يحكم الضرورة بأنه ليس من كلام الله تعالى أصلا .

فمن ذلك أن «متى» ذكر أن «المسيح» صلب وصلب معه لصان أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، وأنهما جميعا كانا يهزآن بالمسيح مع اليهود، ويعيرانه، وذكر (لوقا) خلاف ذلك فقال: إن أحدهما كان يهزأ به، والآخر يقول له، أما تتقي الله تعالى، أما نحن فقد جوزينا، وأما هذا فلم يعمل قبيحا، ثم قال للمسيح ياسيدي أذكرني في ملكوتك فقال حقا إنك تكون معي في الفردوس .

ولا يخفى أن هذا يؤول إلى التناقض، فإن اللصين عند (متى) كافران، وعند لوقا أحدهما مؤمن والآخر كافر!! فأغفل هذه القصة «مرقس ويوحنا»!! .

ومنه أن لوقا ذكر أنه قال يسوع: إن ابن الإنسان لم يأت ليهلك نفوس الناس. ولكن ليحيى، ويخالفه أصحابه، وقالوا بل قال: إن ابن الإنسان لم يأت ليلقي على الأرض سلاما: لكن سيفا ويضرم فيها نارا!!! ولا شك أن هذا تناقض غريب، أحدهما يقول: جاء رحمة للعالمين، والآخر يقول جاء نقمة على الخلائق أجمعين!!

ومن ذلك أن متى قال: يسوع للتلاميذ الإثنى عشر أنتم الذين تكونون في الزمن الآتي جلوسا على اثنى عشر كرسيا تدينون اثنى عشر سبط إسرائيل فشهد للكل بالفوز والبر عامة في القيامة .

ثم نقض ذلك (متى) وغيره، وقال مضى واحد من التلاميذ الاثنى عشرة وهو يهوذا صاحب صندوق الصدقة، فرزنني على يسوع بثلاثين درهما، وجاء بالشرطي فسلم اليهم يسوع فقال يسوع: الويل له خير له أن لا يولد .

ومنه أن متى أيضا ذكر أنه لما حمل يسوع إلى فلاطس القائد قال: أي شر فعل هذا فصرخ اليهود وقالوا يصلب يصلب، فلما رأى عزمهم وأنه لا ينجع فيهم، أخذ ماء وغسل يديه وقال أنا بريء من دم هذا الصديق، وأنتم أبصر،

وأكذب يوحنا ذلك فقال لما حمل يسوع إليه قال لليهود ما تريدون قالوا: يصلب فضرب يسوع ثم سلمه إليهم إلى غير ذلك مما يطول .

فإذا وقع هذا التغيير والتحريف فى أصول القوم ومتقدميهم فما ظنك فى فروعهم ومتأخريهم ا هـ .

ولا شك أن هذه الاختلافات الواقعة بين النسخ بتبديل، أو زيادة أو نقص، بل تعدد هذه النسخ أقوى دليل على أن تلك الكتب ليست هى الكتب التى نزلت على سيدنا موسى، وسيدنا عيسى عليهما السلام، بل هى بين أمرين: إما أن تكون بتمامها من وضع البشر واختراعاتهم، وإما أن تكون قد أدخل فيها ما ليس منها. وعلى كل فقد أصبحت تلك الكتب مشكوكا فيها فلا اعتماد عليها، هذا ما يتعلق بالدليل الأول وهو الاختلاف بين النسخ .

وأما الدليل الثانى: وهو اشتمال هذه الكتب على ما يحيله العقل ويجب أن يتنزه عن مثله كل كتاب مقدس فشاهده عدة أمور :

(أ) اشتملت كتب العهد العتيق على نسبة السكر وانكشاف العورة لنوح عليه السلام .

(ب) نسبة السكر والزنا بالبنات للوط عليه السلام .

(جـ) نسبة الزنا بامرأة أوريا وتعريض زوجها للقتل لداوود عليه السلام .

(د) إحضار فتاة جميلة إلى داود فى آخر أيامه .

(هـ) رمى يهوذا بن يعقوب بأنه زنى بامرأة ابنه، فأتت بفارص وهو أحد أجداد المسيح، كما أنه اشتمل الإنجيل على ما يفيد اعتقادهم بصلب المسيح، وجعله كفارة عما ارتكبه أبو البشر .

لا شك أن العقل يحيل على الأنبياء ارتكاب الخطايا وبخاصة إذا كانت مشعرة بخسة كالزنا، وكذلك يحيل معاقبة شخص بما ارتكبه غيره لأنه ظلم.

كما يجب أن تنزه الكتب المقدسة عن ذكر مثل هذه المخازى التى تقشعر منها الأجسام، ويتصبب منها جبين الإنسانية عرقاً، ويحمر لها وجه الفضيلة حياء وخجلا .

وأما الدليل الثالث. وهو اعتراف أكابرهم بعدم الاعتماد على هذه الكتب فإليك بيانه :—

نقل الكاتبون فى هذا الموضوع اعترافات كثيرة لعلماء اليهود والنصارى بتحريف التوراة، والإنجيل، وإنى أقتصر على ذكر بعضها لتزداد يقينا بحصول التحريف المستلزم عدم الاعتماد عليها .

قال هارسلى فى صفحة ٣٣٠ من المجلد الأول من تفسيره «إن كنكات فى الباب السابع عشر من سفر صموئيل يعلم أن عشرين آية من الآية الثانية عشرة إلى الآية الحادية والثلاثين إلحاقية وقابلة للإخراج، ويقول إذا صححت ترجمتنا مرة أخرى فلا تدخل هذه الآيات فيها اهـ .

وقال هارسلى أيضا. فى صفحة ٢٧٥ من المجلد الثالث من تفسيره، هذا القول صادق البتة أن المتن العبرى كان بعد حادثة (بخت نصر) بل لعله كان قبلها أيضا، قبلية يسيرة فى أشنع حالة للتحريف بالنسبة إلى الحالة التى حصلت فى وقتها، بعد تصحيح عزرا .

وقال أيضا فى صفحة ٢٨٢ من المجلد الثالث من تفسيره فى مقدمة كتاب يوشع أن المتن المقدس حرفه لا ريب فيه، وظاهر من اختلاف النسخ لأن العبارة الصحيحة فى العبارات المختلفة لا تكون إلا واحدة ... معلوم بل أقرب قريب من اليقين، إن العبارات القبيحة جدا دخلت فى بعض الأحيان فى المتن المطبوع، ولكن لم يظهر لى دليل على أن التحريفات فى كتاب (يوشع) من سائر كتب العهد العتيق .

وقال (وارد كاتوليك) فى كتابه: وبعض متقدمى من فرقة بروستانت إلى

السلاطان (جمس الأول) بهذا المضمون، أن الزبورات التي هي داخلة في كتاب صلاتنا مخالفة للعبري بالزيادة، والنقصان والتبديل، في مائتي موضع (تخمينا) اهـ وقال أيضا (وارد كاتوليك) في كتابه مبينا أحوال الانجليز البروستانت. وما أفسدوه في تراجمهم للتوراة والإنجيل، قال المستر كاريل: المترجمون الإنجليز أفسدوا المطلب، وأخفوا الحق، وخدعوا الجهال، وجعلوا مطلب الإنجيل الذي كان مستقيما معوجا، وعندهم الظلمة أحب من النور!! والكذب أحب من الصدق!! ا هـ.

وقال أيضا وارد كاتوليك في كتابه استدعى مستر بروتن من أراكين فونسول للترجمة الجديدة قائلا إن الترجمة التي هي مروجة في انجلترا هي مملوءة من الأغلاط وقال للقسيسين: إن ترجمتكم الإنكليزية المشهورة حرفت عبارات كتب العهد العتيق في ٨٤٨ ثمانمائة وثمانية وأربعين موضعا، وصارت سببا لرد أناس غير محصورين، كتب العهد الجديد ودخولهم النار.

وقد ألف (سلسوس) من علماء الوثنيين في القرن الثاني للميلاد كتابا لإبطال الديانة النصرانية قال فيه كما نقل عنه (اكهارن) من علماء ألمانيا ما ترجمته (بدل النصارى أناجيلهم ثلاث مرات، أو أربع مرات بل أكثر من هذا تبديلا كان مضامينها بدلت اهـ) وفي كتبهم: إن الفرقة الأبيونية من فرق النصارى في القرن الأول للميلاد كانت تصدق بإنجيل (متى) وحده وتنكر ما عداه ولكن كان ذلك الإنجيل مخالفا لإنجيل (متى) الذي ظهر بعد ظهور نسخ مختلفين. وإن الفرق المارسيونية من فرق النصارى القديمة كانت تأخذ بإنجيل لوقا وكانت النسخة التي تؤمن بها مخالفة للموجودة الآن، وكانت تنكر سائر الأناجيل، وهي عندهم من المبتدعة.

وأظن أنك بعد أن سمعت بتلك النصوص المتعارضة، وحكم العقل على هذه الكتب بالتحريف، لاشتمالها على المستحيل، واعتراف أكابرهم بالتحريف، لا يبقى عندك شك في أنها طرأ عليها من التغيير والتبديل ما لا يمكن معه الجزم بصحتها ا هـ.

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو اللفظ العربي المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا تواتراً، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه .

أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام منجماً في ثلاث وعشرين سنة، ولم ينزل جملة واحدة كغيره من الكتب السماوية، لتستعد القوى الإنسانية لتلقيه، وليتيسر كتابته وحفظه .

اشتمل ذلك الكتاب على مائة سورة وأربع عشرة .

منها ما نزل قبل الهجرة ويسمى مكياً .

ومنها ما نزل بعد الهجرة ويسمى مدنيا . وكانت كلما نزلت آية أو سورة يبلغها النبي إلى أصحابه، وطلب منهم حفظها، فيحفظونه، ويتلون أمامه ما حفظوه ليثبتوا من حفظه كما سمعوه من الرسول ﷺ .

ولم يكتف النبي بتحفيظ أصحابه، بل كان يأمر كُتَّابَ الوحي بكتابة ما ينزل وقت نزوله، وهم كثيرون منهم زيد بن ثابت، وعلى بن أبي طالب، وعثمان ابن عفان، وعبد الله بن مسعود، ومعاوية بن أبي سفيان، فكانوا يكتبون ما يمليه عليهم في الجلد، وأطراف الجريد التي ليس فيها خوص، والعظام مع ملاحظة ترتيب الآيات في السور كما يأمرهم الرسول، ولم ينتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى حتى عرض القرآن بعد تمامه عرضتين على جبريل، ثم قرأه عليه أصحابه بعد ذلك على الترتيب المعروف، وغاية الأمر أن الصحائف والألواح التي كتب عليها لم تكن مجموعة بين دفتين في مصحف واحد، كما أنها لم تكن جميعها تحت يد واحدة، بل كانت مفرقة عند الصحابة . وبقي القرآن في تلك الصحف المفرقة عند الصحابة إلى أن كان حرب الردة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وكثر القتل في القراء، وفي واقعة اليمامة، فخاف سيدنا عمر أن يعم القتل جميع القرّاء فيذهب كثير من القرآن .

فعرض على أبي بكر رضى الله تعالى عنه جمع القرآن فلم يصادف هذا الأمر في بدايته قبولا عند أبي بكر، لكونه لم يُفعل في زمن الرسول ﷺ، وعرض أبو بكر هذا الرأي على زيد بن ثابت فرأى ما رآه الخليفة .

ولكن عمر صمم على ما رآه ولا زال يؤيد رأيه حتى وافقاه، فجمع أبو بكر الحفظة المعروفين بالإتقان، فاجتمعوا مرة أخرى وأحضروا تلك الصحف التي كانت مكتوبة في زمن النبي ﷺ، وأخذوا يقرأونها ويقابلونها حتى وصلوا إلى قوله تعالى ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم • فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾(١) فلم يجدوه ضمن المكتوب مع كونه محفوظا عند الحفاظ، فما زالوا يبحثون حتى وجدوه مكتوبا عند أبي خزيمة بن أوس الأنصاري .

وكذلك آية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾(٢) من سورة الأحزاب فإنهم وجدوها عند خزيمة بن ثابت فكتبوا القرآن: آياته، وسوره على الترتيب، والضبط اللذين تلقوهما عن رسول الله ﷺ، ووضع عند أبي بكر فلما توفى كان عند عمر، وبعد وفاته وضع عند السيدة حفصة أم المؤمنين بنت سيدنا عمر رضى الله تعالى عنهما .

ولم تزل هذه الصحف عند السيدة حفصة حتى كانت خلافة سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه .

فأشار عليه بعض أصحابه أن يكتب للناس مصاحف ويرسلها إلى الآفاق التي انتشر فيها الإسلام ليجتمع المسلمون على مصحف واحد، وحتى لا يقع

---

(١) الآيتان في آخر سورة التوبة .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

فى القرآن زيادة ولا نقص، ولا تبديل فى آياته، ولا تغيير فى ترتيبه، فأرسل سيدنا عثمان إلى السيدة حفصة يطلب منها الصحف الموجودة عندها لتنسخ فى المصاحف، فأرسلتها حفصة إليه، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها فى المصاحف، وأرسل إلى كل مصر مصحفا، وأبقى بالمدينة مصحفا، وأمر بما سواه من الصحف أو المصاحف أن يحرق، وصار الناس يقرؤون على مصاحفه ويكتبون منه مصاحفهم .

ولم يكن ذلك المصحف مشكولا ولا منقوطا، واستمر هكذا إلى أن دخل فى الإسلام غير العرب من الفرس وغيرهم، وفشا اللحن على الألسنة، فخيف أن يقع اللحن فى قراءة القرآن، فطلب أمير العراق وهو زياد (من أبى الأسود الدؤلى) أن يضع علامات تضبط قراءتهم، فشكل أواخر الكلمات، وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة تحته، والضمة نقطة إلى جانبه، وجعل علامة الحرف المنون نقطتين، وانتشرت هذه الطريقة، وعمل بها الناس، لكنها لم تحفظ الألسنة من الخطأ كل الحفظ، فدعت الحالة إلى نقط الحروف، وشكل أوائل الكلمات وأواخرها، وأوسطها، فقام بنقط الحروف نصر بن عاصم، بأمر الحجاج وقام بشكل الكلمات (الخليل بن أحمد) وجعل الفتحة ألفا مسطوحة فوق الحرف، والكسرة ياء تحته، والضمة واو فى أعلاه، ووضع علامات المد والتشديد. ولقد عنى القراء والحفاظ من بعد ذلك بوضع فواصل بين آياته، وعلامات تبين مواضع الوقف، والابتداء فيه، وعلامات أخرى تعين على أحكام تلاوته .

وجرت عادتهم أن يبينوا فى أول كل سورة أهى مكية أم مدنية، ويذكر عدد آياتها، ومازال المسلمون من الملوك والأمراء وغيرهم يتنافسون فى تحسين كتابته، ويتبارون فى تجويد قراءته، يتلقاه خلفهم عن سلفهم، إلى أن ظهرت المطابع فطبعت الألوف من نسخه فى جميع الجهات الإسلامية مع الإتقان والضبط.

ومن هنا نعلم أن المسلمين فى جميع الأعصار عنوا بالقرآن المجيد عناية لم يسبق لها مثيل فى التاريخ، وهذا تحقيق لوعده تعالى فى قوله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(١)

إعجاز القرآن الكريم

من الأدلة الدالة على صدق النبى محمد ﷺ فى دعواه الرسالة القرآن الكريم، حيث جاء فوق طاقة البشر، ولم يمكنهم معارضته، فكان ذلك دليلا على أنه من عند الله لا من عند محمد، ولنا مسلكان فى بيان إعجازه:

الأول من جهة التحدى.

والثانى من جهة كونه كلاما معتادا أو خارقا للعادة.

وبيان الأول أن يقال: القرآن تحدى به النبى أهل الفصاحة والبلاغة وعجزوا عن معارضته، وكل ما كان كذلك فهو معجز، ينتج القرآن معجز. فهذا قياس مركب من مقدمتين أنتج المطلوب وهو أن القرآن معجز.

ولأجل أن يكون الاستدلال صحيحا ومسلما يجب النظر فى مقدمتيه، وإيصال ما كان نظريا منهما إلى الضرورة.

وبالنظر فى المقدمتين يتضح لنا أن الصغرى نظرية فيجب إثباتها وإيصالها إلى الضرورة، أما الكبرى فهى ضرورية فلا يستدل عليها.

ولذلك نقول إن الصغرى تضمنت أمرين:

الأول: أن النبى تحدى العرب بالقرآن، وطلب منهم الإتيان بمثله.

الثانى: أنهم عجزوا عن المعارضة، **دليل الأول آيات التحدى**، التى اشتمل

---

(١) سورة الحجر الآية ٩.

عليها القرآن المنقول إلينا تواترا، والمتواتر دليل قطعي بالإجماع، وقد سلك الله بهم في التحدي طريق التنزل، قطعا لحججهم، فتحداهم بالقرآن كله قال تعالى ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾، ثم بعشر سور منه قال تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾، ثم بسورة منه قال تعالى ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾[1] فهذه الآيات دلت على وقوع التحدي مرة بالقرآن كله، ومرة بعشر منه، ومرة بسورة واحدة منه، وهذه هي النهاية في التحدي .

وأما دليل الثاني وهو العجز عن المعارضة فينبغي أن نمهد له ببيان معنى العجز أولا ثم نثبته، ولذلك نقول: العجز عن الشيء هو عدم التمكن من الإتيان به مع وجود الداعي والآلات، ولقد كان الداعي للمعارضة متحققا عند العرب، والآلات التي يستعينون بها على المعارضة أيضا متحققة، وذلك أن النبي ﷺ طلب منهم ترك دينهم، والتنازل عن رياستهم، واعتناق دين الإسلام والانقياد لتكاليفه، مع كونها توجب مشقة تلحق البدن، ونقصا في المال، وتركا لعبادة الأصنام، التي هي أحب إليهم من أنفسهم، ولم يكن النبي في ذلك الوقت ذا جاه وقوة، بحيث تخاف العرب قهره وسطوته، ومع هذا فقد كانوا متصفين بالشجاعة، وكانوا أهل فصاحة وبلاغة كما لا يخفى، فحيث كانت هذه الدواعي متوفرة من كل جانب، والمعين على المعارضة متحققا عند العرب ولم يتمكنوا من الإتيان بما يعارض القرآن، كانوا عاجزين لا محالة، ولو كانوا قادرين على المعارضة لأتوا بما يماثل القرآن، واشتهرت معارضتهم ونقلت إلينا لكنها لم تنقل فثبت العجز .

وقد أوردت نقوض على كل من الأمرين المذكورين في المقدمة الصغرى لا مانع من إيرادها، والإجابة عنها، حتى يسلم الدليل تماما .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .

(١) قد عولتم فى إثبات التحدى على الآيات القرآنية المتضمنة للتحدى وادعيتم أنها متواترة ونحن نمنع تواترها، لأن الذى ثبت تواتره هو جملة القرآن، لا كل آية على حدتها، بدليل أنه نقل عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه أنكر كون الفاتحة والمعوذتين من القرآن، ونقل أيضاً الخلاف فى قرآنية (بسم الله الرحمن الرحيم)، التى فى أوائل السور، ونقل أيضاً أن أبىّ بن كعب أثبت فى مصحفه آية القنوت وهى (اللهم اهدنى فيمن هديت) وأثبت أيضاً (لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً) ولا يخفى أن هذا الخلاف دليل على أن القرآن غير متواتر فى تفاصيله .

وآيات التحدى من جملة التفاصيل فلا تكون دالة على التحدى قطعاً .

ويجاب عن ذلك بأن الذى نقل عن ابن مسعود فى الطرق الصحيحة ليس إنكار القرآنية فى هذه السور، إنما الذى فيه الخلاف هو كتابتها فى المصحف فإن ابن مسعود كان يرى عدم كتابتها فى المصاحف لكثرة تلاوتها فى الصلوات وحصول الرقى بها فلا يخاف عليها من الضياع، وهذا خلاف لا ثمرة له، وأما التسمية فالمعول عليه فى نقل الخلاف هو أنها هل هى آية من كل سورة، أو آية من القرآن، أنزلت للفصل بين السور، وأما الذى كتبه أبىّ بن كعب فى مصحفه من آية القنوت وقوله (لو أن لابن آدم الخ) فلا يؤخذ من كتابته فى مصحفه أنه كان يقول بقرآنيته، ولم ينقل عنه القول بقرآنيته، فعلى تسليم أنه كان مكتوبا فى مصحفه لا يلزم قوله بقرآنيته .

(٢) لقائل أن يقول سلمنا وقوع التحدى، ولكن هذا التحدى لا يعتبر إلا إذا وصل إلى جميع العالم، ولا يمكن القول بذلك، لأنا نعلم بالضرورة أن سائر الأقاليم البعيدة عن جزيرة العرب، ما كان يعلم ساكنوها بوجود النبى ﷺ، فضلا عن علمهم بتحديه بالقرآن، فتعين أن التحدى وصل إلى البعض لا غير، وهذا لا يكفى، لأن عجز البعض لا يكون عجزاً للجميع .

ويجاب عن ذلك بأنا نختار أنه وصل إلى البعض، ولكن إذا كان ذلك

البعض الذى وصل إليه أقدر على المعارضة، وحصل منه العجز، كان عجزه، مستلزما لعجز البعض الآخر، وحيث ثبت أن العرب الذين هم أهل الفصاحة والبلاغة وقد نزل القرآن بلغتهم، عجزوا عن المعارضة فغيرهم الذى لا علم له بأساليب الكلام البليغ يكون أعجز .

ولنا أن نختار أنه لابد فى التحدى من الوصول إلى الكل، ونقول قد وصل القرآن الآن إلى جميع الناس، وعجز الكل عن المعارضة .

(٣) نمنع قولكم إن العجز عن المعارضة قد تحقق بل حصلت المعارضة من مسيلمة فقد نقل أنه عارض قوله تعالى ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ الخ بقوله (إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر) وقال أيضا (والطاحنات طحنا والخابزات خبزا .

ويجاب عن ذلك بأن المعارضة بين الكلامين إنما تتحقق إذا كان بينهما مماثلة أو مقاربة بحيث يلتبس أحدهما بالآخر، أو يشتبه به، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان الكلام المعارض به مماثلا للقرآن فى الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، ولم يتحقق هذا فى كلام معارض أصلا، أما مجرد التماثل فى الفواصل، أو الإخبار بالأمور الماضية، من غير اشتمال على الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فلا يكفى .

المسلك الثانى لإثبات إعجاز القرآن

المثبتون لإعجاز القرآن من جهة كونه كلاما معتادا، أو خارقا للعادة، افترقوا إلى فرقتين :

فرقة قالت إنه كلام معتاد وفى إمكان العرب البلغاء إذا تركوا وشأنهم أن يأتوا بمثله .

والفرقة قالت إنه خارق للعادة ولا يمكن للعرب مع علو كعبهم فى الفصاحة

والبلاغة أن يأتوا بمثله، وكل من الفرقتين يثبت له الإعجاز .

الفرقة الأولى قالت نقل عن العرب خطب ورسائل وقصائد جمعت من ضروب البلاغة والفصاحة ما يجعلها فى أعلى طبقات البلاغة، وكل من قدر على الإتيان بمثل هذه التراكيب، فهو قادر على معارضة القرآن بمثله، من التراكيب الجامعة لكل الأساليب البلاغية، وغاية الأمر أن الله تعالى صرفهم عن معارضة القرآن بسلب العلوم التى توصلهم إلى ذلك، أو بإلجائهم وقسرهم، مع بقاء العلوم والدواعى التى توصل إلى المعارضة. وبهذا يثبت إعجاز القرآن .

هذا القول وإن نقل عن بعض العلماء لكنه لا يصح التعويل عليه فى هذا الباب، فإنه يترك للمعارض بابا واسعا فى القدح فى إعجاز القرآن، لأنه يؤدى إلى أن الإتيان بمثل القرآن ممكن، والامتناع إنما جاء من كون الله سبحانه وتعالى لم يمكن المعارضين من المعارضة، ولو كان الأمر هكذا ما كان القرآن معجزة، لأن المعجزة مقدورة لله تعالى، وليست مقدورة للعبد، وكيف هذا وقد ورد أن الوليد بن المغيرة لما سمع قوله تعالى ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى**﴾ إلى آخر الآية دهش لفصاحته وبلاغته، ووصفه بما يفيد أنه أدرك ما اشتمل عليه من وجوه الإعجاز، حيث قال (والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر) .

فلو كانت العلوم التى تؤهل العرب للمعارضة سلبت ما أدرك المغيرة حسن نظمه وتأليفه، لهذا لا يصح التعويل على هذا القول .

الفرقة الثانية قالت إن القرآن خارق للعادة وحيث كان خارقا للعادة وظهر على يد مدعى النبوة وتوفرت فيه شرائط المعجزة فهو معجز، ولكن أصحاب هذا القول اختلفوا فى تعيين الجهة التى كان بها خارقا للعادة، ومعجزا، فمنهم من قال خلوه عن المناقضة، وهذا فاسد لأوجه كثيرة منها أن الإجماع منعقد على أن التحدى واقع بأقصر سورة من سور القرآن، وقد يوجد فى كثير من الخطب

والشعر والرسائل ما يكون في مقدار سورة كبيرة، فضلا عن صغيرة، خاليا من التناقض فيلزم أن يكون معجزا وليس الأمر كذلك.

ومنهم من قال اشتماله على الأمور الغيبية وهو فاسد أيضا لأنه يؤدي إلى أن المانع للعرب عن معارضته عدم علمهم بالأمور الغيبية، فكان من حقهم أن يقولوا إنا متمكنون من معارضة القرآن لولا اشتماله على الأمور الغيبية.

ولكنهم لم يقولوا ذلك، فكانت دليلا على عدم التعويل على ذلك القول.

ومنهم من قال جهة إعجازه هي الفصاحة وغرابتها بسلامة ألفاظه من التعقيد وهو فاسد أيضا لأن كثيرا من شعر العرب وخطبهم ورسائلهم ليس في ألفاظه تعقيد، فلو كان إعجاز القرآن من هذه الجهة لكان كثير من كلام العرب معارضا للقرآن، وأيضا لو كان وجه الإعجاز هو الفصاحة المفسرة بذلك المعنى السابق لكان قول العرب (القتل أنفى للقتل) مساويا لقوله تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ وليس الأمر كذلك، فبطل ذلك القول أيضا.

وقال بعضهم جهة الإعجاز هي تجدد المعاني كلما تأمل الناظر في ألفاظه، وهذا فاسد أيضا، لأن الأصل في وجه الإعجاز أن يكون القرآن متميزا به لا يشاركه غيره فيه، وتجدد المعاني عند تكرار التأمل ليس خاصا بالقرآن، فإننا نرى أن الكتاب المعتنى بتأليفه وجمعه في أي فن من الفنون، كلما تجدد فيه النظر ظهرت معان من جديد في كل مرة، فكان اللازم أن تكون الكتب التي على هذا الوجه معارضة للقرآن، وليس الأمر كذلك، وأيضا فبعض الآيات مهما كررت النظر فيه لا يفيد إلا معنى واحدا. مثل قوله تعالى ﴿وإلهكم إله واحد﴾ وقوله تعالى ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ وقوله تعالى ﴿قل هو الله أحد﴾ فإنها تفيد بصريحها وظاهرها إثبات الوحدانية لله تعالى، وما عدا ذلك من المعاني لا يخلو حاله إما أن يستقل العقل بفهمه أو لا فإن استقل بإدراكه فقد أحاط به كغيره من سائر الكلام، فلا تفرقة بينه وبين غيره، وإن كان لا يستقل بفهمه فهو من قبيل الأمور الغيبية، وقد تقدم بيان بطلان كونها جهة

إعجاز. وقال بعضهم إن الوجه في إعجاز القرآن هو البلاغة وفسرها باشتماله على وجوه الاستعارة والتشبيه، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير والإضمار والإظهار إلى غير ذلك.

وهذا القائل إن أرجع ذلك الوجه إلى المعاني فقط دون الألفاظ فلا يصح جعله جهة إعجاز، لأن القرآن معجز باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعا، وقال بعضهم إن الوجه في إعجاز القرآن هو نظمه وتأليفه الذي امتاز به عن سائر الكلام، وهذا الوجه بانفراده لا يصح أن يكون وجها للإعجاز، لأنه يجوز أن يكون مع جودة نظمه غير فصيح أو غير بليغ.

القول المختار في إعجاز القرآن

الذي اعتمده المحققون في هذا المبحث أن المدار في إثبات إعجاز القرآن على أمور ثلاثة لابد من تحققها.

الأول الفصاحة في الألفاظ بمعنى أنها بريئة من التعقيد والثقل، خفيفة على اللسان.

الثاني البلاغة في المعاني.

الثالث جودة النظم وحسن السياق فهذه الأمور الثلاثة هي التي عليها المعول في إثبات إعجاز القرآن.

وإنما اختار المحققون هذا الوجه دون غيره لأن آيات التحدي طلبت الإتيان بالمثل، وقد ذكر مطلقا مع العلم بأن الجهات المماثلة بين الكلام كثيرة، ولم تسأل العرب النبي ﷺ عن المثل المطلوب لما تحداهم.

فدل ذلك على أن المماثلة التي بها المعارضة كانت معلومة فيما بينهم وبالرجوع إلى ما أثر عن العرب من تفاخرهم بالقصائد والخطب، يتبين لنا أن التحدي كان بينهم بهذه الأمور الثلاثة، دون سواها، فوجب أن تكون هي جهة

الإعجاز ولم يثبت أن العرب عارضوا القرآن بكلام اشتمل على هذه الأمور الثلاثة، وإذا ثبت عجزهم ثبت أن القرآن معجز .

وقد أورد على كون إعجاز القرآن من جهة الفصاحة والبلاغة وجودة النظم أمور يحسن ذكرها والإجابة عنها حتى يسلم ذلك الوجه ويتبين وجه اختياره على ما عداه .

(١) لو كان الوجه فى إعجاز القرآن هو اشتماله على الفصاحة والبلاغة وجودة النظم، لما كان القرآن دالا على صدق النبى، فلا يكون معجزة، لكنه دال على الصدق بإجماع المسلمين، فبطل كون وجه الإعجاز هذه الأمور الثلاثة المذكورة .

ودليل الملازمة أن كلام العرب فصيح بليغ، جيد النظم، حسن التأليف . فيكون من جنس القرآن، فيكون مقدورا للعباد، وقد قلتم إن المعجزة من فعل الله تعالى، لا من فعل العباد، وبجعل جهة الإعجاز هذه الأمور المذكورة يكون الإتيان بمثل القرآن مقدررا للعباد، فلا يكون معجزة، فلا يكون دالا على الصدق .

ويجاب عن ذلك بأن أصل الفصاحة والبلاغة، وجودة النظم، مقدور للعباد، لكنها جاءت فى القرآن على وجه ليس مقدورا لهم، فالاشتراك حينئذ إنما وقع فى أصل الفصاحة، والبلاغة، وجودة النظم، وانفرد القرآن الكريم باشتماله على الطرف الأعلى لهذه الأمور، وهو غير مقدور للعباد، مع توفر الدواعى عند العرب فكان معجزة .

(٢) لو كان الوجه فى إعجاز القرآن هو اشتماله على هذه الأمور الثلاثة، ووجودها فيه، دون سواه، لكان متميزا عما عداه، بحيث إذا سمع، وكان السامع عالما بوجوه البلاغة، كالصحابة لأدرك من أول نظرة أن الكلام ليس من جنس كلام البشر، لكن قد وقع من الصحابة عند جمع القرآن ما يفيد غير ذلك،

فقد كانوا يطلبون الآية والآيتين من الحافظ، فإن كان مشهوراً بالعدالة والأمانة، وصدق القول، قبلوها منه، وإلا فلا، ولو كان الوجه فى الإعجاز ما ذكر ما حصل السؤال ولتميز بمجرد سماعه عما عداه.

ويجاب عن ذلك بأن هذه الرواية موضوعة، مختلقة، لا أصل لها، والقرآن رتب وجمع فى صحائف فى زمن النبى ﷺ، غاية الأمر أن هذه الصحائف كانت مفرقة عند الصحابة، وفى زمن أبى بكر جمعت عنده، ثم بعد وفاته عند عمر، ثم بعد وفاته عند السيدة حفصة أم المؤمنين، إلى أن أخذت منها فى زمن سيدنا عثمان، وجمع القرآن كله فى مصحف واحد، وعلى فرض تسليم هذه الرواية فالتحرى إنما كان للكلمة والكلمتين، وكل ما لم يتحقق به الإعجاز.

أما المعجز من سورة قصيرة وثلاث آيات فلم يكن التحرى له أصلا.

(٣) لو كان الوجه فى إعجاز القرآن هو ما ذكر لما اشتبه الأمر على سيدنا عبدالله بن مسعود (وهو من العرب الفصحاء) فى الفاتحة والمعوذتين، لكن قد حصل له الاشتباه فيها، ولذلك لم يثبتهن فى مصحفه.

ويجاب عن ذلك بأن المنقول عن ابن مسعود فى الروايات الصحيحة، أنه لم ينكر نزول هذه السور من اللوح المحفوظ، وأن جبريل نزل بها من السماء، فهو معترف بالقرآنية، ولكنه كان يرى أن كتابة القرآن فى المصحف دعت إليها ضرورة المحافظة عليه من التغيير، والتبديل، وهذه الضرورة منتفية فى تلك السور الثلاثة.

أما الفاتحة فلأنها تتلى فى كل صلاة فلا يتوهم حصول تغيير فيها فلا حاجة إلى كتابتها، وأما المعوذتان فإن الرقى تحصل بهما، وهى من الأمور التى تتكرر فتوهم طُرُوّ التغيير والتبديل فيهما بعيد، فلذلك لم يثبتهما فى مصحفه، ولو سلم ما نقل عنه فهو قول شاذ مخالف لما أجمعت عليه الصحابة، فلا يعول عليه، وبهذا البيان السابق ثبت إعجاز القرآن، فكان معجزة دالة على صدق النبى محمد ﷺ فى دعواه أنه رسول الله للناس جميعا.

خصائص القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام عربي، فصيح بليغ، جيد النظم، حسن الأسلوب. ومن هذه الجهة قيل إنه عربي، ومن جنس كلام العرب، وهو أيضا كتاب مقدس، نزل به جبريل الأمين على سيدنا محمد ﷺ، ومن هذه الجهة كان من جنس الكتب المقدسة، قبل طرو التغيير والتبديل عليها، يجمعها أن الجميع وحى سماوى أنزله الله تعالى للعمل به، وإرشاد من نزل على نبيهم إلى الطريق الأقوم.

ومع كون القرآن الكريم من جنس كلام العرب، فقد امتاز عن كلامهم الفصيح البليغ، بما جعله في أرقى مراتب الفصاحة والبلاغة، فإنك ترى القرآن مع طوله، وتعدد سوره وآياته، وتناوله شؤونا متنوعة، خاليا من كل ما ينزل ببلاغته عن المرتبة العليا، ومن كل نقد يوجه إلى كلمة من كلماته، أو جملة من جمله، في حين أن خطب العرب ورسائلهم وقصائدهم لم تخل من نقد يوجه إليها في هذا الباب.

ومما امتاز به القرآن الكريم في باب الفصاحة والبلاغة، إبرازه المعنى الواحد في عدة صور مختلفة، مثل قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون، فإنها تكررت مرارًا، ومع ذلك تراها قد لبست في كل مرة ثوبا جعلها تتناسب مع الآيات التي سبقتها، والتي تلتها، فتارة تلبس ثوب الحقيقة، وأخرى ثوب المجاز أو الكناية مع إطناب، أو إيجاز، أو مساواة، وفي كل هذه الأحوال ترى انسجاما بين الحروف والكلمات، والجمل، لا يوجد في كلام العرب البلغاء، كذلك مما امتاز به القرآن الكريم ارتباط جميع آياته ببعضها ارتباطا لم يشبه مخالفة أو تناقض.

فترى الآية المشتملة على إطناب موضحة لآية أخرى موجزة، اشتركت معها في معنى واحد وهكذا.

وهذا الباب واسع ليس محله علم الكلام فإن أردت الاستزادة منه فعليك بكتب البلاغة التطبيقية.

أما الأوجه التي امتاز بها عن الكتب المقدسة فكثيرة:

منها أنه كتاب صالح لجميع الناس، ومناسب لجميع الأزمان فلا ينسخ بغيره، وقد نسخ ما قبله من الكتب السماوية، بالنسبة للأحكام التكليفية بخلاف غيره.

ومنها أن مباحث العقائد سواء تعلقت بالخالق، أو بالبعث، أو بالأنبياء ذكرت فيه مقرونة بأدلتها الكونية أو العقلية، بخلاف غيره من الكتب السماوية فإن العقائد ذكرت مجردة عن الأدلة، ولا سند لإثباتها إلا مجرد الوحي بها.

ومنها أنه اشتمل على جميع ما اشتملت عليه الكتب المقدسة من توحيد، وقصص ومواعظ وآداب فاضلة.

وانفرد بالأخبار عن أمور غيبية لم تكن قد وقعت حين نزوله، كذلك أرشد إلى حكم لبعض الأشياء، مثل إرسال الرسل.

ومنها كون الشريعة التي جاء بها طريقا وسطا بالنسبة للشرائع السابقة فليس فيها من أنواع التكليف ما يشق على النفس احتماله، كما كان في الشرائع السابقة، ولا منع الإنسان من التمتع بالطيبات من الرزق، ولا التزهيد في الدنيا، والأمر بتركها، قال تعالى ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[1] وقال تعالى ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[2].

ومنها خلوه من الغموض والتعمية على الناظرين فيه، فآياته واضحة المعنى، والخفاء الذي يلاحظ في بعض الآيات يزيله آيات أخرى واضحة المراد.

ومنها عدم جمع كل نوع من مقاصده التي نزل لأجلها في سورة على حدة بخلاف غيره من الكتب المقدسة.

---

(١) سورة البقرة الآية الأخيرة ٢٨٦. (٢) سورة القصص الآية ٧٧.

فالعقائد ذكرت مفرقة فى سور، كذلك العبادات والآداب، والقصص، وقواعده التشريعية، والحدود والعقوبات، والحكمة فى ذلك أنه لو جمع كل نوع منها على حدة كما فى التوراة لفقد القرآن بذلك أعظم مزاياه، وهى استفادة كل حافظ للقليل من سوره كثيرا من مقاصده، المنبثة فى جميع السور، لأن السورة الواحدة لا يوجد فيها فى ذلك الترتيب إلا مقصد واحد من المقاصد، التى نزل القرآن لإفادتها، فلو اقتصر الشخص على حفظها، وليس فيها إلا مقصد واحد لأدركه الملل عند تكرار تلاوتها، وكانت فائدته قاصرة على باب واحد، بخلاف ما إذا كانت المقاصد منبثة فى جميع السور .

ومنها نزوله باللغة العربية الفصحى وبذلك تحقق إعجازه، وكونه معجزة دالة على صدق النبى ﷺ .

ومنها تكرار بعض المقاصد مثل التوحيد، والبعث، والرسالة مع عدم الملل، والسآمة، بل مع القبول والحسن، والتأثير فى نفس السامع، بأبلغ وجه وآكده، فإن القرآن اشتمل عليه دون غيره من الكتب لاقتلاع ما ركز فى نفوس القوم، وتأصل فيها، من عبادة الأصنام ومساواة الخالق للعباد، واستبعاد كون الرسول من البشر، فإن ما تأصل فى النفوس وتشبعت به، وألفته، لا يكفى فى اقتلاعه التنبيه مرة أو مرتين .

الإيمان بكل ما جاء به القرآن

أنزل الله سبحانه وتعالى الفرقان على نبيه محمد ﷺ بلفظه، المتعبد بتلاوته، والعمل بما تضمنه من الأحكام، والتصديق بما دل عليه من العقائد الدينية، والتحلى بما أرشد إليه من مكارم الأخلاق، ووصل إلينا بطريق التواتر بلا شبهة فى سورة من سوره أو آية من آياته .

لهذا وجب على كل مسلم ومسلمة التصديق بجميع سوره وآياته، بحيث لو

أنكر قرآنية سورة أو آية، كان ذلك الإنكار مخلا بعقيدته، مقتضيا لعدم إيمانه، سواء كانت تلك السور والآيات مفهومة المعنى أو غير مفهومة.

هذا الكتاب الكريم المشتمل على العقيدة الصحيحة بالنسبة للخالق جل وعلا، وبالنسبة للأنبياء، وعلى الأحكام التكليفية، وكل ما فيه رقي النوع الإنساني من حيث دلالته على معناه يتنوع إلى أنواع:

الأول ما هو نص في معناه بحيث لا يحتمل غيره، مثل الآيات الدالة على وجود البارى وتوحيده، وقدرته وإرادته وعلمه، والآيات الدالة على رسالة محمد ﷺ، وعمومها، ورسالة غيره ممن ذكرت أسماؤهم تفصيلا.

والآيات الدالة على وجوب الصلاة والصوم، والزكاة والحج، والآيات الدالة على تحريم الشرك، والظلم والزنا، وحكم هذا القسم وجوب الإيمان والجزم والتصديق بما دل عليه، بحيث لو انعدم التصديق به انعدم الإيمان.

الثاني ما ليس نصا في معنى خاص، بل يحتمل عدة معان، وكل معنى منها لا يحيله العقل، بل يحتمله التركيب، ويصلح للدلالة عليه، ولم يقم إجماع على تعيين معنى من هذه المعاني التي يحتملها.

وحكمه عدم وجوب الجزم بمعنى من هذه المعاني المحتملة، وجاز لمن كان من أهل النظر والاستنباط عليه أن يقلد واحدا من أهل الاستنباط.

مثال هذا القسم قوله تعالى ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾[1] فإن الباء الداخلة على الرؤوس يحتمل أن تكون للتبعيض، وأن تكون للإلصاق، وأن تكون زائدة، والآية صالحة لكل هذه الاحتمالات، ولذلك أخذ كل إمام من المجتهدين باحتمال.

ومن هذا النوع آية الرؤية وهى قوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة﴾[1] فإنها لكونها ليست نصا فى الرؤية أمكن للمعتزلى أن يؤول فيها (انظر مبحث الرؤية) .

النوع الثالث ما يحتمل معنى مستحيلا هو المتبادر منه، ومعنى ممكنا . وهو غير متبادر مثل قوله تعالى ﴿ويبقى وجه ربك﴾ وقوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وقوله تعالى ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ فإنها بحسب الظاهر تفيد مماثلة البارى للحوادث، وهى مستحيلة عليه سبحانه وتعالى، وهذه الآيات وما ماثلها قد أجمع الخلف والسلف على صرفها عن ظاهرها .

واختلفوا فى تعيين المعنى المراد، فالسلف فوضوا الأمر فيه لله تعالى، والخلف ترجح عندهم معنى يصح وصف البارى سبحانه وتعالى به، فحكمهما الجزم بأن المعنى الظاهر مستحيل الإرادة، وأما تعيين معنى المراد بعد ذلك فالإنسان فى حل من التفويض، أو تعيين معنى خاص .

إذا علمت هذا فاعلم أنه يجب على المكلف الإيمان والتصديق بما دل عليه الكلام نصا تفصيلا[2] كالصفات التى ذكرت مفصلة، مثل القدرة والإرادة . وعدد الرسل الذى جاء مفصلا فى القرآن الكريم، وإجمالا فيما ورد مجملا، كثبوت الكمال المطلق لله سبحانه وتعالى، وثبوت أن لله رسلا لم تقص علينا تواريخهم، كما يجب الإيمان بأن المستفاد من آيات التشبيه بحسب الظاهر غير مراد .

أما ما لم يكن نصا فى معناه بل احتمل عدة معان، أو لم نفهم له معنى،

---

(1) سورة القيامة الآيتان ٢٢، ٢٣ .

(2) هكذا فى النسختين المطبوعتين ويبدو أن فى العبارة خطأ مطبعيا والأولى أن يقال : نصا تفصيلا فيما ورد مفصلا كالصفات .. الخ بدليل المقابلة فى قوله بعد ذلك وإجمالا فيما ورد مجملا .

فالواجب علينا بإزائه الجزم بأنه من الكلام المستعمل الدال على معنى، وليس من الكلام المهمل، ولا يجب علينا الجزم بمعنى من معانيه .

نهج القرآن الكريم في الاستدلال

على إثبات الصانع والرد على الخصوم

اتفقت الكتب السماوية وجميع الأديان من عهد أبينا آدم عليه السلام إلى أن بعث سيدنا محمد ﷺ، على مطالبة الأمم وتكليفها بتوحيد الخالق جل وعلا، وانفراده بالتصرف المطلق، وتنزهه عن كل نقص، واتصافه بكل كمال، غير أن ما عدا القرآن من الكتب السماوية سلك طريقا في بيان ذلك المقصد الأسنى، يتناسب مع استعداد أهل زمنه الذى نزل فيه، وهو ذكر العقائد مجردة من الدليل، حيث إن أهل ذلك الزمن لم يكونوا قد استعدوا للنظر في الآيات الكونية .

أما القرآن الكريم فقد نزل في زمن كان الإنسان فيه قد بلغ رشده، وأصبح أهلا للتفكر في ملكوت السموات والأرض، مستعدا لفهم الأدلة والوقوف على شيء من الحكم، والمصالح المقتضية للتكليف .

ولذلك جاء هذا الكتاب الحكيم سالكا منهجا، خالف فيه سائر الكتب المقدسة، فقد طالب المكلفين بالعقائد الدينية وبرهن على ذلك المدعى، ورد على المخالفين وفند قولهم، وأيده بالدليل، وحث الإنسان على التفكير في الكائنات، وذم التقليد، غير أنه لم يسلك طريقة علماء الكلام في الاستدلال، من التزام ذكر مقدمات على شكل قياس، مستوف لشروط لازمة لإنتاجه، بل أورد الدليل على عادة العرب، وهو أمر مشتمل على ما يثبت المدعى بمعنى أنه ذو جهات كثيرة، بعضها يدل وبعضها لا يدل كالاستدلال بالعالم على وجود البارى سبحانه وتعالى، فإن العالم ذو جهات وصفات كثيرة، كطوله وكثافته،

وبساطته وتركيبه، وبياضه وسواده، وحدوثه، فإن هذه الجهات لا يصلح منها للدلالة على وجوده تعالى إلا جهة واحدة وهي الحدوث؛ ولم تلتزم طريقة المتكلمين في الاستدلال القرآني لأن الرسول عربي، والقرآن نزل بلغة العرب، ولأن طريقة المتكلمين فيها خفاء لا ينكشف إلا للخاصة، فلو جاء القرآن على هذه الطريقة لكانت فائدته قاصرة على الخواص، ولا تتعداها إلى العوام.

أما طريقة العرب في مخاطباتهم فينتفع منها العوام فيأخذون ما يفهمهم ويكفيهم في الحجة، والخواص يأخذون ما يناسب استعدادهم ويوصلهم إلى القطع والجزم بالمطلوب.

ومع كونه جرى على عادة العرب في الاستدلال، وإبطال أقوال خصومه، فإنه لم يلتزم نوعا خاصا في الاستدلال، فتارة لا يذكر عدة أمور تشتمل على جهات كثيرة، وبعض هذه الجهات هو محط الاستدلال دون غيره، فيأمر بالتفكر والنظر وإعمال العقل لمعرفة هذه الجهة الموصلة إلى المطلوب، مثل قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾[1] وقوله في سورة يونس ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[2] وقوله في سورة الروم ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض﴾ الآية وقوله تعالى ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾[3] فجميع هذه الآيات تشير إلى طلب التفكر في إنشاء السموات والأرض وإبداعهما، وفيما اشتملا عليه من عجائب المصنوعات، ودقائق الأسرار، ولطائف الحكم، وغير ذلك من الأحوال الدالة على وجود الصانع، ووحدته في ذاته وصفاته، وأفعاله.

وتارة يستدل بطريق القياس كاستدلاله على المعاد الجسمانى بقياسه على بدء الخلق قال الله تعالى ﴿كما بدأكم تعودون﴾ أو بقياس الأولوية كقوله تعالى ﴿أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾[1] .

كما أنه قد يستدل على إبطال قول الخصم بطريق السبر والتقسيم مثل قوله تعالى ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين • ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾[2] سيقت هذه الآيات لتخطئة الكفار فى تحريمهم ذكور الأنعام تارة وأناثها تارة أخرى، بطريق السبر والتقسيم، وحاصل المعنى أن الله تعالى خلق من كل نوع من هذه الأنواع ذكرا وأنثى، فتحريمكم الذكور تارة، والأناث تارة أخرى، إما أن تكون علته الذكورة، وإما أن تكون الأنوثة، وإما أن تكون اشتمال الرحم عليهما، وإما أن تكون علته السماع من الله تعالى بدون واسطة، وإما أن تكون العلة الوحى على لسان نبى مرسل، فإن كانت العلة هى الذكورة فاللازم تحريم جميع الذكور فى كل الأزمنة، وإن كانت العلة الأنوثة فاللازم تحريم الأناث فى جميع الأزمنة، وإن كانت العلة اشتمال الرحم، فاللازم تحريم الصنفين معا، وإن كانت العلة هى الأخذ عن الله تعالى مباشرة فهو باطل، لأن الأخذ عنه بلا واسطة لا يتأتى، وإن كانت العلة هى الوحى فباطل أيضا، لأنه لم يكن عند هؤلاء القوم رسول قبل محمد. وإذا بطلت كل هذه الأحوال بطل المدعى، وهو تحريم الذكور فى وقت والإناث فى وقت آخر، فيكون هذا القول افتراء منهم على الله وكذبا .

(١) سورة يس الآية ٨١.
(٢) سورة الأنعام الآيات ١٤٣، ١٤٤.

وقد يستدل على إبطال قول الخصم بالقول بالموجب وهو أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فتثبتها لغيره، كقوله تعالى ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1].

فالأعز صفة وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم، والأذل كناية عن فريق المؤمنين، وقد أثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة فرد الله عليهم بقوله ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾، فكأنه يقول لهم قولكم إن الأعز يخرج الأذل صحيح، لكن الأعز المخرج الله ورسوله والمؤمنون والأذل المخرَجُ المنافقون.

ومن طرق إبطال قول الخصم التي وردت في الكتاب الكريم التسليم وهو أن يفرض المحال الذي يدعى الخصم إمكانه واقعا، ويرتب على ذلك الوقوع المفروض مُحالاً، مثل قوله تعالى ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾[2] فإن المعنى أن الله منفرد بالتصرف والعبودية وليس له شريك، ولو سلمنا أن معه إلها لذهب كل واحد منهم بما خلقه، واستبد به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، ووقع بينهم التحارب وظهر التغالب، كما هو حال ملوك الدنيا، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض الإلهين محال، لما يلزمه من المحال وهو الفساد.

ومن طرق إبطال قول الخصم الانتقال، وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي سلكه لإبطال قول خصمه، لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة في الأول، ومثاله ما جاء في مناظرة سيدنا إبراهيم عليه السلام للملك وقته المسمى نمروذ.

---

(١) سورة المنافقون الآية ٨.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٩١.

قال له إبراهيم لما امتنع عن الإيمان بالله، وتمسك بالأصنام ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ أى يخلق الحياة والموت فى الأجسام، فقال الخصم أنا أحيى بالعفو عن القتل، وأميت بالقتل، فعلم الخليل عليه السلام من هذا الرد، أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة، أو أنه فهم وغالط، فانتقل سيدنا إبراهيم إلى استدلال آخر لا يمكن لخصمه أن يتخلص منه، ولا أن يغالط فيه، فقال إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فانقطع الخصم وهذا قليل من كثير .

ومن تتبع التراكيب القرآنية، وتأمل فى طرق الاستدلال والرد على الخصوم، يظهر له أن ذلك الكتاب المقدس ما ترك بابا من أبواب الاستدلال والرد على الخصوم، وإبطال قولهم بالطريقة المعتادة فى اللسان العربى، إلا طرقه، فهو الكتاب السماوى الذى حاز قصب السبق فى ذلك الميدان .

علاقة القرآن بالعلوم على اختلاف أنواعها

جاء فى القرآن آيات كثيرة ترفع من شأن العلم، وترغب فى تحصيله، وتنعى على التقليد واتباع الظن، من ذلك قوله تعالى ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقوله تعالى ﴿لا يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور﴾ وقوله تعالى ﴿ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ وقوله تعالى ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ وقوله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ .

وقوله تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وقوله تعالى ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ وقوله تعالى ﴿إن الظن لا يغنى من الحق شيئا﴾ .

هذه الآيات وما ماثلها تحث الإنسان على تحصيل العلوم وترفع من شأن العلم، الرافع للجهول، وتذم الاعتماد على الظن، ومن هذا يعلم أن القرآن الكريم يطلب من الإنسان التحلى بالعلم، لا فرق بين أن يكون ذلك العلم من العلوم

الشرعية، أو الرياضية، أو غيرها، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ الآية فإنها تأمرنا بأن نعد لأعداء الدين الآلات التى نستعين بها على دفع هجمات العدو، وهذا يستدعى تعلم الصنعة التى توصلنا إلى صنع الآلات، بل يستدعى البحث وراء خواص الأجسام، حتى نعلم فائدتها وثمرتها فننتفع بها.

وبهذا الاعتبار يقال إن القرآن يدعونا إلى تعلم العلوم التى توصلنا إلى مصالحنا وتحصيل ما نحتاج إليه.

ولما كان لبعض العلوم شأن كبير فى ترقية النوع الإنسانى، وهدايته إلى تحصيل السعادة فى الدارين، لم يكتف القرآن الكريم بالترغيب فى تحصيلها على طريق الإجمال، بل اشتمل على آيات إذا نظر فيها المفكر استنبط هذه العلوم منها وإليك البيان:

وردت آيات كثيرة فى القرآن دلت على وحدانية الله تعالى ووجود قدرته وإرادته، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، ومخالفته للحوادث، وأن لله تعالى رسلا من جنس البشر، خصهم بفضله، فأرسلهم لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، وأقام الأدلة العقلية والكونية على ذلك، وأرشد الناس إلى التأمل فيها.

فاستنبط علماء الكلام من هذه الآيات علم الإلهيات والنبوات، وسموه بعلم أصول الدين أو التوحيد أو الكلام.

ونظرت طائفة أخرى من العلماء فى بعض الآيات فرأوا منها العام والخاص، والمحكم، والظاهر، والنص، والمفسر والمجمل، والمتشابه، فاستنبطوا منها علما سموه بأصول الفقه، وفكرت طائفة فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فاستنبطوا من ذلك علم الفقه، ونظرت طائفة إلى ما تضمنه من أخبار الأمم السابقة مع أنبيائهم التى ذكرت للاتعاظ بما حصل لهم، فاستنبطوا علم التاريخ.

ونظر فريق آخر إلى ما فيه من المواريث وبيان أنصباء الورثة فاستنبطوا منه علم الفرائض، ونظرت طائفة إلى الآيات الدالة على الحكم الباهرة فى الليل والنهار، والشمس والقمر، ومنازله، والنجوم، فاستنبطوا من ذلك علم المواقيت.

وكذلك استنبطت طائفة من البراهين التى اشتمل عليها والمقدمات والقول بالموجب والمعارضة علم الجدل، ومن ذلك مناظرة سيدنا إبراهيم النمروذ ومحاجة قومه.

كذلك نظر علماء الأخلاق إلى ما تضمنه الكتاب الكريم من الترغيب فى التحلى بالأخلاق الفاضلة كالعدل والإحسان، والصدق والوفاء بالوعد، وأخذ العفو والخوف من الله وحده، فاستنبطوا منه علم الأخلاق.

أما علم الطب فقد أشار القرآن إلى أصوله الثلاثة: وهى الحمية وحفظ الصحة واستفراغ المواد المضرة فى ثلاث آيات.

الأولى آية التيمم التى أفادت أنه يباح للمريض ترك استعمال الماء والاكتفاء بالتيمم حمية له.

الثانية آية الصوم التى تضمنت إباحة الفطر للمريض والمسافر محافظة على صحته متى خاف الضرر.

الثالثة قوله تعالى ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام﴾ الآية فقد أباحت للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم أن يحلق ليستفرغ المواد الفاسدة، والأبخرة الرديئة التى تولد الميكروبات الضارة.

كذلك نظر فريق من العلماء إلى ما فى القرآن من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار فاستنبطوا فصولا من المواعظ وأصولا من الزواجر.

أما تركيبه فقد نظر فريق من العلماء إلى المعرب والمبنى منها فى الأفعال والأسماء، والحروف العاملة وغيرها، فاستنبطوا منه علم النحو، ونظر فريق آخر

إلى ما فى هذه التراكيب من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق والإطناب والإيجاز، والمجاز والكناية والمحسنات البديعية فاستبطوا منه علم المعانى والبيان والبديع.

ومن هذا يتبين أن القرآن الكريم هو الطريق الصحيح، والأصل الذى استبطت منه هذه العلوم التى لا غنى للإنسان عنها فى معاشه ومعاده، أما التوسع إلى حد أن يقال إنه اشتمل على جميع العلوم حتى الرياضة مثل الحساب والهندسة والجبر فأظن أن فضل القرآن لا يحتاج إلى مثل هذا التكليف ويكفى فيه الترغيب فى تحصيل العلم على طريق الإجمال.

الرد بتوسع على ما وجهه إليه أعداؤه من المطاعن

جرت عادة الناس أنه إذا قام من بينهم مصلح يطالبهم بسلوك طريق مغاير لما اعتادوه فى شؤونهم الخاصة والعامة كان ذلك شاقا على نفوسهم، فتعترضه صعاب كثيرة فى طريقه، ويوجد من يعارضه، ويقف فى سبيل نشر دعوته، لأن تحويل الناس عما ألفوه ليس بالأمر السهل، فإن الإلف من أقوى دواعى المحبة والتمسك بالمعتاد، فإذا داوم ذلك المصلح على مطالبة الناس باتباعه، وأخذ يبين لهم المنافع والمصالح المترتبة على الأخذ بقوله، والتحول عما ألفوه، وذلل تلك الصعاب التى وقفت فى طريقه أثمرت دعوته، وأتت بالنتائج العائدة عليهم بالنفع، ولكن ليس هذا بالنسبة لجميع من طالبهم باتباعه، لاختلاف استعدادهم فى التأثر وعدمه، والخضوع للحق أو العناد. فمن الناس من يتأثر فيه ذلك الإرشاد فيخضع لما أراده ذلك المصلح، ومن الناس من يعاند ويختار البقاء على ما اعتاده، وإن كان مؤديا إلى الضرر، وقطع الروابط بين بنى الإنسان، ومن الناس من يمقت التقييد بقانون، ولا يرضى لنفسه إلا أن يكون تحت تأثير الأهواء والشهوات.

هذا الفريق المعاند والفريق الخاضع لشهواته من مصلحته أن يدور مسلكه

الذى اختاره فيلتمس شبها توصله إلى خدش قانون ذلك المصلح، والقدح في بما تسوله له نفسه .

هذه العادات كانت عند بعث النبي ﷺ فإنه لما رأى الناس مشركين وأهل الكتاب ليسوا مؤمنين إيمانا صحيحا، واعتادوا أمورا لا يرضاها العقل السليم، ولا الدين الصحيح، طالبهم بترك هذا المألوف لهم، وباعتناق دين الإسلام الكفيل بمصالحهم، الخاصة والعامة، فمنهم من شرح الله صدره للإسلام فآمن وصدق بما جاء به، ومنهم من تمسك بدينه الذى يدين به، وإن كان قد دخله التغير والتبديل، مثل اليهود والنصارى، ومنهم من مقت جميع الأديان ولم يرض لنفسه التمسك بدين وهم الملحدون .

ولأجل أن يبرز كل من هذين الفريقين مسلكه الذى ارتضاه قام بالطعن في القرآن، وكونه وحيا من الله تعالى، وغرضهم من ذلك الوصول إلى نتيجة تتطلبها نفوسهم، وهى أن دين الإسلام ليس دينا سماويا صحيحا، فأوردوا شبها على القرآن الكريم ظنوها مؤيدة لعقيدتهم، وهى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، وسأذكر لك ما وقفت عليه من المطاعن التى وجهها الملحدون، والتى وجهها النصارى. وأجيب عنها بما تطمئن إليه نفس الناظر إن شاء الله تعالى .

المطاعن التى وجهها الملحدون

(١) قد اختلف العلماء فى حقيقة القرآن فقال فريق إنه معنى قائم بذاته، والكلمات التى نتلوها دالة عليه، وقال فريق إنه الحروف التى تركبت منها الكلمات التى نتلوها وكل فريق يخطىء الآخر فيما ذهب إليه، وحيث حصل الاختلاف فى بيان حقيقته فلا يصح الحكم بإعجازه، وأنه حجة، لأن الحكم على الشىء فرع عن تصوره، ولم يحصل تصور القرآن يقينا مع ذلك الاختلاف، ويجاب بأنه لا خلاف فى أن القرآن يطلق بالمعنيين المذكورين، وأن الذى حكم

عليه بالإعجاز وأنه حجة هو الكلام اللفظي الذي يقرأ فاندفع الاعتراض .

(٢) قد اختلف العلماء في جهة إعجاز القرآن كما يتبين لك من المنقول سابقا عن الباحثين في جهة الإعجاز .

وحصول الاختلاف يشعر بأن الإعجاز خفيٌّ لم يهتد إليه الباحثون يقينا، فلا يصح الحكم به، ويجاب عن ذلك بأن الإعجاز متفق عليه والاختلاف إنما حصل في جهته وهو لا يقتضي خفاء الإعجاز .

(٣) لا نسلم أن القرآن حجة على صدق محمد في دعواه، إلا إذا تيقنا أنه من عند الله، والجزم بذلك لا يتأتى، لاحتمال أن يكون بعض الجن أو الشياطين أو بعض الملائكة لقنه محمداً، كذلك يحتمل أن محمدا قد أعطى من الفصاحة والبلاغة ما لم يعط غيره، فأمكنه أن يأتي بكلام ليس في مقدور العرب الإتيان بمثله، فأتى به وسماه قرآنا .

ويجاب عن ذلك بما يأتي إن احتمال كونه من الجن أو الشياطين أو الملائكة بعيد لأمرين: **الأول أن طريق إثبات** هذا إنما هو السمع ولا دخل للعقل فيه ولم يرد سمع بذلك أصلا . **الثاني أن كونه من وحي الجن** أو الشياطين أو الملائكة لو كان محتملا لذكرته العرب في القدح في نبوة محمد ﷺ ، لأنهم كانوا حريصين على كل ما يبطل دعوى الرسول ﷺ ، فلما لم يذكروا شيئا من هذه الاحتمالات كانت ساقطة الاعتبار ، وغير قادحة في الحجية ، ويبطل خصوص احتمال كونه من الجن والشياطين أن النبي تحدى الجن والشياطين بالقرآن كما تحدى الإنس وقد نطق القرآن بذلك قال تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ فلو كان [illegible]
من كلامهم لتوفرت دواعيهم إلى معارضته [illegible]
مع توفر الدواعي ويبطل خصوص احتمال كونه من الشياطين أن القرآن [illegible]
الشياطين وأمر بالبعد عنهم [illegible]
القرآن من كلامهم [illegible]

بسبب لعنهم، وليس من المعقول أن يوحوا إليه بكلام يتضمن لعنهم .

ويبطل بخصوص احتمال كونه من الملائكة أنه لو كان من كلامهم وليس من عند الله لكانوا موافقين محمدا فى تلبيسه على الخلق والتضليل بهم وبذلك تكون الملائكة قد عصت ربها، وهذا يخالف ما ثبت بالدليل من أنهم معصومون عن المعصية، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وأما احتمال كونه من كلام محمد فهو بعيد وباطل عقلا، لأن الذى عرف فى معجزات الأنبياء أن المعجزة تكون من جنس ما برع فيه قوم ذلك النبى الذى أرسل إليهم وامتازوا به، فإذا عجز قومه عن الإتيان بمثل ما أتى به مع أنه من جنس ما امتازوا به، ثبت أنه من عند الله، لذلك كانت معجزة موسى قلب العصا حية لأن قومه اشتهروا بالسحر فلما رأوا أن ما أتى به لا يمكنهم الإتيان بمثله قالوا (آمنا بالله رب العالمين) وكانت معجزة عيسى إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، لأن قومه اشتهروا بصناعة الطب، ولما رأوا أن ما أتى به خارج عن طاقتهم صدقوه، كذلك لما أرسل النبى ﷺ وكانت معجزته القرآن وهو من جنس كلام العرب من حيث اشتماله على الفصاحة والبلاغة، وجودة النظم، وحسن التأليف، وعجز العرب عن الإتيان بكلام يماثله وجب الحكم بأنه من عند الله وبطل احتمال كونه من عند محمد .

(٤) جاء فى القرآن ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[1] وهذه الآية صريحة فى أن الاختلاف فى القرآن دليل على أنه ليس من عند الله وقد وجد الاختلاف فيه، فيبطل قولكم إنه من عند الله .

بيان ذلك أنه قد حصل اختلاف فى ألفاظه وترتيبه وزيادة بعض الكلمات واختلاف حركاته، أما الاختلاف فى ألفاظه فقد قرأ بعض القراء (كالصوف) بدل (العهن) وقرأ بعضهم (فكانت كالحجارة) بدل (فهى كالحجارة) وقرأ بعضهم

(١) سورة النساء الآية ٨٢.

(فاقطعوا أيمانهما) بدل أيديهما، ومن هذا القبيل كثير، وأما الاختلاف في ترتيبه فمنه قراءة (ضربت عليهم المسكنة والذلة) بتقديم المسكنة، وفي قراءة الأخرى تقديم الذلة على المسكنة، وقرأ بعضهم (وجاءت سكرة الحق بالموت) والبعض الآخر قرأ (وجاءت سكرة الموت بالحق) وقرأ بعضهم (فتلقى آدم من ربه كلمات) بنصب آدم ورفع كلمات، فتكون كلمات مقدمة في الرتبة، وفي قراءة أخرى برفع آدم ونصب كلمات، فتكون (كلمات) واقعة في موضعها، وأما الاختلاف بالزيادة فقد جاء في عدة آيات.

منها قوله تعالى ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾[1] فقد زاد بعض القراء بعد قوله (أمهاتهم) (وهو أب لهم).

ومنها قوله تعالى ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾[2] فقد زاد بعض القراء بعد قوله (الحجرات) (بنو تميم).

وأما الاختلاف في حركاته فهو كثير منه قوله تعالى ﴿ربنا باعد﴾ بصيغة الأمر، وقرأها بعضهم بصيغة الماضي ومنه قوله تعالى ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ بضم الفاء وقرأه بعضهم بفتح الفاء.

ويجاب عن ذلك بأن قوله تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ دل على أن حصول الاختلاف فيه يدل على أنه ليس من عند الله، وأنواع الاختلاف كثيرة، وليس في الآية ما يدل على أن الاختلاف مقصور على الاختلاف في الألفاظ، وما ذكر لم يقم عليه دليل، ...، والإطلاق أن ينصرف إلى ما به التحدي لأنه هو الذي يقصد ... الكلام ... معنى الآية، ولو كان القرآن من عند غير الله ... الفصاحة لما كان في الفصاحة والبلاغة ...

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦.
(٢) سورة الحجرات الآية ٤.

قصيده أو صاغ خطبة، أو رسالة، وكانت طويلة يكون كلامه فى بعض المواضع أبلغ من البعض الآخر، بخلاف القرآن فإنه مع طوله على طريقة واحدة فى الفصاحة والبلاغة وحسن الانتظام .

ويجاب أيضا بأن القراءات المتعددة الواردة ليست بدرجة واحدة فى الثبوت بل منها ما ثبت بالتواتر، ومنها ما ثبت بالشهرة، ومنها ما ثبت بالآحاد، والمعروف أن الذى يحكم بقرآنيته أصلا هو ما ثبت بالتواتر لا غير، بخلاف الثابت بالشهرة، أو الآحاد، فلا يحكم بقرآنيته أصلا فى القراءات، فلو نقل اختلاف فى القراءات وكان متواترا لا يضر فى القرآنية لأن الاختلاف الذى يخرج عن القرآنية هو المؤدى إلى التضارب والتناقض، والاختلاف فى القراءات لا يؤدى إلى ذلك .

(٥) حصل تناقض فى القرآن من جهة المعنى والوصف وهذا يدل على أنه ليس من عند الله وأنه لا يصح الاحتجاج به .

أما التناقض فى المعنى فقد وردت فى القرآن آيات تدل على مخالفة البارى للحوادث مثل قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ووردت آيات أخرى تفيد بحسب المتبادر منها مماثلته للحوادث مثل ﴿ويبقى وجه ربك﴾ وقوله ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وقوله ﴿وجاء ربك﴾ وقوله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فإن كلا من الآية الأولى والثانية تفيد مماثلة البارى للحادث فى أن له أعضاء محسوسة والآية الثالثة تفيد أن الله ينتقل كانتقال الأجسام والآية الرابعة تفيد أنه جلس على العرش وأخذ قدرا من الفراغ .

وأما التناقض فى الوصف فقد ورد فيه ما يدل على أنه لا لبس فيه ولا إبهام وأنه يصل إلى معناه كل ناظر فيه متى كان من أهل النظر مثل قوله ﴿وفصلناه تفصيلا﴾ وقوله ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ وقوله ﴿ولكن جعلناه نورا﴾ وورد فيه مع هذا أوائل السور التى لم يعلم المراد منها مثل (طس والم)

وآيات اضطرب المفسرون فى بيان معناها اضطرابا من شأنه أنه يدل على أن المعنى المدلول لهذه الآيات خفى لم يهتد إليه الناظرون، ولا شك أن اشتماله على هذا النوع يناقض وصفه بأنه مفصل لا إجمال فيه ولا لبس، ويجاب عن التناقض فى المعنى بأن الأدلة التى يستند إليها فى إثبات المدعى إما عقلية وإما نقلية، والعقلية لا تحتمل خلاف مدلولها وهى قطعية.

لا مجال للشك فيها، وأما الأدلة النقلية فهى كما تحتمل المراد تحتمل غيره كما هو شأن الألفاظ فليست نصا فى مدلولها قطعا، فإذا كان عندنا دليلان أحدهما عقلى والآخر نقلى وتوافقا فالأمر ظاهر.

وإذا تعارضا يؤول النقلى بما يجعله موافقا لما قضى به العقل، كذلك الأدلة النقلية منها ما هو نص فى معناه، ومنها ما هو محتمل، والمتبع فى ذلك أن يرد المحتمل إلى ما هو نص.

إذا علمنا ذلك نقول إن آيات التنزيه موافقة لما قضى به العقل، وهى نص فى مدلولها، وآيات التشبيه بحسب ظاهرها تخالف ما قضى به العقل، وتحتمل معنى آخر لا يتفق مع ما قضى به العقل، ومع ما استفيد من آيات التنزيه، لهذا حمل علماء الكلام الآيات المفيدة للتشبيه بحسب ظاهرها على معان تناسب كل آية، وبذلك الحمل والتأويل لا تخالف ما قضى به العقل، وكذا ما استفيد من آيات التنزيه، التى هى نص فى إفادته إذ لا تناقض فى معناه

والجواب عن التناقض فى الوصف بالمزج، فالقرآن كما وصفه الله تعالى فى غاية البيان لا لبس فيه، ولا إبهام، حتى فى أوائل السور، فقد ورد فى بيان معناها وجوه كثيرة وهذا يدل على عدم اللبس.

وأما الآيات التى اضطرب فيها المفسرون بحجة أن فيها أنها محتملة لمعان كثيرة، وهذا لا يقتضى اللبس، فإن الشأن فى مثل تلك التراكيب طلب المرجح لبعض المعانى المحتملة على البعض الآخر، فإن وصلنا إليه فقد تعين المعنى المراد من

الآية، وإن لم نصل إليه توقفنا عن التعيين، مع كوننا فهمنا المعانى التى تحتملها الآية، ويمكن أن يجاب بتسليم أن فى القرآن ما لم نصل إلى معناه، ولكنه قليل، ميكفى وجود وصف البيان فى أكثر الآيات، فإن المعروف أن الوصف بالمدح أو الذم، أو الاستحسان، أو البيان، أو التفصيل، يدور مع الأكثر وجودا وعدما.

(٦) ورد فى القرآن ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ وقوم النبى هم قريش فهذه الآية تقتضى أن يكون القرآن نزل بلغة قريش، مع أنه اشتمل على ما لا يوافق لغتهم، فقد ورد فيه ﴿إن هذان لساحران﴾[1] وقياس لغة قريش (إن هذين لساحران)، وورد فيه ﴿ومكروا مكرا كبارا﴾[2] والمفهوم فى لغة قريش (كبيرا) لا كبارا.

ويجاب عن ذلك بأن قوم النبى هم العرب لا خصوص قريش فمتى كانت الآية موافقة لأى لغة من لغات العرب كانت فصيحة، وما ذكر من الآيتين موافق للغة العرب قطعا، لأنه لو كان مخالفا للغتهم، والمشركون من العرب أشد الناس عداوة للنبى ومن معه لعابوه بذلك، لكنه لم ينقل أنهم عابوه باشتماله على هاتين الآيتين، فدل هذا على أنه موافق للغتهم، وأيضا فلفظ «كبارا» نطق به العربى الفصيح أمام النبى وأصحابه، وأما «إن هذان لساحران» فيصح أن يكون جاريا على لغة من يلزم المثنى الألف فى الأحوال الثلاثة، وهى لغة عربية ويصح أن يكون الكلام على حذف ضمير الشأن المتقع إسما لأن، والجملة [illegible] من «هذان لساحران» خبر.

(٧) [illegible] أن القرآن بلغ فى الفصاحة والبلاغة حدا عجز العرب عن معارضته، والإتيان بمثله، ومعلوم أن الكلام الذى يكون بهذا الوصف يجب أن يكون خاليا من العيوب، التى تنافى الفصاحة والبلاغة، لكن القرآن قد اشتمل

(١) سورة طه جزء الآية ٦٣.
(٢) سورة نوح الآية ٢٢.

على ما ينافى الفصاحة والبلاغة، فقد اشتمل على التكرار من جهة اللفظ والمعنى، فلا يكون فصيحاً بليغاً، أما التكرار اللفظى فمثل قوله تعالى ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ فى سورة الرحمن ﴿وويل يومئذ للمكذبين﴾ فى سورة المرسلات و ﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾ فى سورة القمر .

وأما التكرار من جهة المعنى فكما فى قصة موسى وفرعون فإنها ذكرت فى عدة سور من القرآن .

ويجاب عن ذلك بأن التكرار إنما يكون معيبا ويخل بالفصاحة إذا خلا عن الفائدة، أما إذا كان لفائدة فهو من مقاصد البلغاء، ويزيد الكلام حسنا، وكل من التكرار المعنوى واللفظى الواقع فى القرآن من هذا القبيل .

أما التكرار من جهة المعنى فإن من فوائده إظهار القدرة على إيراد المعنى الواحد وإبرازه فى عدة صور، مختلفة فى الإيجاز، والإطناب، والمساواة، وهذا من طرق البلاغة، ومن فوائده إرشاد العرب إلى طريق المعارضة، وتسجيل العجز عليهم فكأنه يقول للمعارضين هذا المعنى الواحد قد أمكن أن يؤتى على أوجه مختلفة معتادة فى كلامكم، فإن كان عندكم قدرة على المعارضة فاسلكوا طريقا من هذه الطرق، التى ظهر فيها هذا المعنى .

ومن فوائده تسلية الرسول ﷺ وتذكيره بما حصل لإخوانه الأنبياء من أممهم، عند تألمه من عناد قومه، ووقوفهم فى سبيل نشر دينه، الذى جاء به .

وأما التكرار اللفظى فمثل ما فى سورة الرحمن من قوله تعالى ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وقوله [illegible] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ فى سورة المرسلات فليس بتكرار فى الحقيقة لأن الله تعالى ذكر نعمة [illegible] وعقب كل ذكر نعمة [illegible] بالتوبيخ على التكذيب [illegible] الإنسان لغيره ألم أحسن إليك بأن علمتك العلم؟ ألم أحسن إليك بأن أرشدتك إلى ما فيه [illegible]؟ ألم أحسن إليك بأن عفوت عنك؟ وهكذا. وهذا من الحسن بمكان [illegible] الإقرار به .

وقد وقع هذا في كلام العرب وأشعارهم كثيرا، ومن ذلك قصيدة المهلهل التي أنشأها في رثاء كليب التي منها:

على أن ليس عدلا من كليب إذا ما ضيم جيران المجير

فإن الشطر الأول قد تكرر في كثير من أبيات القصيدة، وحسنه اختلاف ما تعلق به، وحيث كان المكرر ثانيا متعلقا بغير ما تعلق به الأول، فلا عيب فيه.

(٨) قالوا إن القرآن أخبر بشيء لم يقع وما كان هذا حاله لا يصح أن يكون دليلا على صدق النبي.

بيان ذلك إن من ضمن آياته ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها﴾ وهذه الآية تفيد أن كل من في السموات والأرض أسلم، وانقاد لما طلب منه فعله، أو تركه، والواقع يرد ذلك لأن جميع الناس لم ينقادوا بل أكثرهم عاص لأوامره تعالى.

ويجاب بأن الإسلام في الآية معناه الانقياد لأمر الله التكويني، وهذا حاصل لكل مخلوق، فإن قدرة الله تعالى لما تعلقت بإيجاد الممكنات في أوقاتها من أي نوع كانت وجدت الكائنات ولم يتعاص شيء منها أبدا.

(٩) قد ادعيتم أن القرآن معجز، ومن شأن المعجز أن يكون ترتيب كلماته وجمله موافقا للمألوف من تقديم الوسيلة على المقصود، والسبب على المسبب، وهكذا، ولكن القرآن اشتمل على آيات فيها تقديم المقصود على الوسيلة مثل قوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فقدمت العبادة على الاستعانة، مع أن الظاهر أن الاستعانة من الدواعي والوسائل، وشأن الدواعي والوسيلة أن يتقدم على المقصود فكان الظاهر أن يقال (إياك نستعين وإياك نعبد).

كما اشتمل على آيات فيها تقديم المسبب على السبب مثل قوله ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ فقد ذكر الإهلاك مقدما على مجيء البأس والعذاب، مع أن الظاهر أن البأس يجيء أولا ثم يحصل الهلاك ثانيا.

ويجاب عن ذلك بالآتى أما تقديم العبادة على الاستعانة فى الآية الأولى فالذى دعا إليه هو الاهتمام بالمقصود، والاهتمام من النكات التى تقتضى التقديم، وأما الآية الثانية فليس فيها تقديم المسبب على السبب لأن معناها وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا أو أهلكناها فظهر للناس مجيء البأس والعذاب .

وعلى هذا البيان فالترتيب الذى دلت عليه الآية موافق للترتيب الوجودى .

(١٠) قلتم إن القرآن تؤخذ منه الأسرار الدقيقة وتستنبط منه المعانى العربية ويرد هذا أن من آياته ما هو موضح للأمور الواضحة، ومعلوم أن توضيح الواضح معيب، مثال ذلك قوله ﴿فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ ويجاب عن ذلك بأن توضيح الواضح قد يكون من مقاصد البلغاء فيزيد الكلام حسنا، والاعتراض به جهل بمواقع البلاغة، وأما من خصوص الآية المذكورة فنقول للطاعن هل اعتراضك عليها بسبب ذكر قوله ﴿تلك عشرة﴾ بعد قوله ﴿فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم﴾ أو بسبب ذكر قوله ﴿كاملة﴾ بعد قوله ﴿عشرة﴾ ؟ فإن أردت الأول فجوابه أن العادة جرت عند ذكر جملة أعداد متفرقة يراد ضمها إلى بعضها أن تذكر جملتها بعد ذلك مرة واحدة، ويسمى هذا فذلكه، وهو ممدوح عند البلغاء، وإن أردت الثانى فلا وجه للاعتراض، لأن ذكر كاملة بعد قوله (عشرة) كذكر (واحدة) فى قوله ﴿فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة﴾ وقوله تعالى ﴿فدكتا دكة واحدة﴾ فى أنها من قبيل التأكيد المعنوى، فجيء بها لرفع توهم احتمال التجوز فى لفظ عشرة .

(١١) قد قررتم فيما بينكم أن القرآن دل على نبوة محمد، وصدقه فى دعواه من جهة كونه خارقا للعادة، وهذا باطل لأنه لو كان مجرد كونه خارقا للعادة يدل على نبوته لكان كل خارق للعادة دالا على نبوة من حصل ذلك الخارق على يده، وليس كذلك فقد نقل بعض الكاتبين أن رجلا كان يتكلم من أبطه بكلام معتاد، ويمكنه أن يماثل به صوت المتكلم بلسانه، ونقل أن رجلا مكث سبعة وعشرين يوما لا يأكل الطعام وهذا خارق للعادة، ومع ذلك لا يصلح دليلا على

النبوة إذا ادعاها من حصل منه واحد من هذين الأمرين ، فدل ذلك على أن الأمر الخارق للعادة لا يصلح دليلا على النبوة ، فالقرآن لا يصلح دليلا على نبوة محمد .

ويجاب عن ذلك بأن منشأ هذه الشبهة هو التباس المعجزة بالأمر الغريب في العادة ، ولو أدرك المعترض الفرق بينهما ما أورد هذه الشبهة ، فإن المعجزة أمر خارق لعادة الله سبحانه وتعالى في إيجاد الكائنات ، وليس مرتبطا باستعمال حيلة ولا آلة ، بخلاف الغريب في العادة فإنه مقدور للبشر ، ومرتبط بأسباب تدخل تحت قدرة البشر ، وما أورده المعترض من هذا القبيل ، وليس من قبيل الخارق للعادة ، فإنه لا مانع من أن يضغط الإنسان على بعض أصابعه بكيفية مخصوصة فيتولد الصوت عن هذا الضغط ، ألا ترى الآلة التي تسمى بالحاكي « الفونوغراف » فإنك إذا نظرت إليها سطحيا تظن أنها من قبيل الخارق للعادة ، ولو أمعنت النظر وعلمت السبب لأدركت أن هذا مما يدخل تحت قدرة البشر ، وليس خارقا للعادة ، وأما ترك الأكل هذه المدة فسببه الرياضة التي يعتادها بعض الناس حتى يكتفي بالماء في آخر الأمر ، وغرائب فقراء الهنود في هذا الباب لا تحصى ، ويكاد العقل لا يسلم بها وإن كانت ثابتة ثبوتا كافيا .

(١٢) قد ادعوا أن القرآن نقل إلينا بطريق التواتر مع أنه وقع الاختلاف فيه ومع وقوع الاختلاف لا يمكن الجزم به ، فقد نقل أنه وقع اختلاف بين الصحابة في كتابة القرآن في المصحف ، فكتبه عبد الله بن مسعود على وجه يخالف ما كتبه عليه زيد بن ثابت ، ويخالف ما كتبه عليه أبي بن كعب ، وعند ذلك أمر سيدنا عثمان بإحراق مصحف عبد الله بن مسعود ، وأمر مروان والي المدينة عبد الله بن عمر بإحراق المصحف الذي كان عند حفصة يوم ماتت ، مخافة الاختلاف ، ولا شك أن هذا يدل على تفرق الصحابة واختلافهم في القرآن ، وأنه غير متواتر النقل وغير مقطوع بأصله .

ويجاب عن ذلك بأن المصاحف المشهورة ثلاثة مصحف ابن مسعود : ومصحف أبي بن كعب ، ومصحف زيد بن ثابت ، فأما مصحف ابن مسعود

فهو أول ما قرىء على النبي ﷺ، وأما مصحف أبي بن كعب فقد قرىء على النبي ﷺ بعد مصحف ابن مسعود، وأما مصحف زيد بن ثابت فهو آخر ما قرىء على النبي ﷺ، وكان يقرأ النبي القرآن في الصلاة وخارجها إلى أن مات كما هو مكتوب في مصحف زيد بن ثابت، ولما كان مصحف زيد بن ثابت هو الذي استقر عليه الأمر، ونقل إلينا تواترا اختاره المسلمون، وعدلوا عن غيره من المصاحف، لأنها لم تنقل بطريق التواتر، بل ثبتت بالشهرة أو بخبر الآحاد. وهذا لا يقدح في الجزم بالقرآن لأن الذي جزمنا بقرآنيته هو ما ثبت بالتواتر، وهو ما في مصحف زيد بن ثابت، والمخالف من الصحابة كان يرى أنه كما يقرأ على الوجه الذي في مصحف زيد بن ثابت يقرأ كما في المصاحف الأخرى.

(١٣) ورد في القرآن آيات تدل على أنه اشتمل على جميع العلوم وجميع الحوادث مثل قوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[١] وقوله ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[٢] ومع ذلك إذا تتبعنا آيات القرآن وتأملنا ما أفاده من المعاني وجدناه خاليا من أكثر المسائل الكلامية، مثل الجزء والخلاء، وحقيقة الحركة، والسكون، والزمان، والمكان، كذلك نجده خاليا من علوم الحساب والهندسة، والجبر، وكثير من المسائل الشرعية لم يوجد فيه، مثل مسائل المساقاة والمزارعة، والاستيلاد، ودقائق علم الفرائض والوصايا، ولا يخفى أن عدم اشتماله على هذه المذكورات وأمثالها يناقض وصفه بأنه مشتمل على كل الأمور.

ويجاب عن ذلك أولا[٣] من المراد من الكتاب في قوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ومن كتاب في قوله ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ، وحينئذ لا يتجه الاعتراض على القرآن بالتناقض.

---

١) سورة الأنعام جزء الآية ٣٨.

٢) سورة الأنعام جزء الآية ٥٩.

٣) هكذا العبارة في المطبوعتين (من المراد من الكتاب) ويبدو أن في الكلام خطأ مطبعيا والصحيح أن تكتب كلمة (أن) بدلا من كلمة (من) الأولى.

وثانيا بأنا نسلم أن المراد بالكتاب في الآيتين القرآن، ولكن ظاهر العموم ليس مرادا بل معنى قوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أن الكتاب شامل لما يحتاجه الإنسان في إصلاح دينه، وكذلك قوله ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ معناه أن القرآن مشتمل على ما يحتاجه الإنسان في تحصيل سعادته، ولا شك أن القرآن قد تضمن ما يحتاج إليه الإنسان في دينه، إما بظاهره، وإما بنصه، وإما من جهة القياس على ما ذكر فيه، ويترتب على هذا الجواب الثاني أن العموم ليس مرادًا، وهذا لا مانع منه، فإن جميع ما ورد من العمومات الشرعية قد دخله التخصيص إلا عمومين: أحدهما قوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾[1] وثانيهما قوله تعالى ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ فإنهما باقيان على عمومهما.

شبه النصارى

(١) جاء في القرآن ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾، وهذه الآية تفيد إنزال كتب إلى إبراهيم ومن ذكر معه، وهو مخالف للواقع، فلم ينزل على هؤلاء كتب أصلا، ولو نزلت عليهم كتب لبقيت كما بقيت التوراة والإنجيل، فعدم وجود كتب لهم بين أيدينا دليل على عدم إنزال كتب عليهم، وحينئذ يكون القرآن قد أخبر بخلاف الواقع وهذا يقدح في قرآنيته وكونه كتابا سماويا.

والجواب عن ذلك أن إبراهيم نزلت عليه صحف كما قال تعالى ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾، ولما كان إسماعيل وإسحاق

(١) سورة هود الآية ٦.

يعقوب والأسباط متعبدين بتفاصيلها، داخلين تحت أحكامها، صح نسبة نزولها إليهم، كما أن تعبدنا بتفاصيل القرآن ودخولنا تحت أحكامه صح نسبة نزوله إلينا، وعدم بقاء صحف إبراهيم إلى اليوم لا يدل على عدم إنزال صحف عليه، ولا مانع من أن تكون أيدى اليهود قد امتدت إلى تلك الصحف فأبادتها.

فقد ذكر بعض علماء النصارى فى تفسير إنجيل (متى) أن كثيرا من كتب الأنبياء قد انمحى لأن اليهود ضيعوا كتبا لأجل غفلتهم، أو عدم تدينهم، ومزقوا بعضها وأحرقوا بعضها.

(٢) ورد فى القرآن آيات متعددة تفيد أنه عربى، ومع ذلك فقد اشتمل على كثير من لغة العجم، مثل أباريق وأرائك، وإستبرق، فوصفه بأنه عربى غير صحيح، وهذا يقدح فى قرآنيته، وكونه جاء من طريق الوحى السماوى.

ويجاب عن ذلك بمنع اشتماله على كلمات أعجمية، وما ذكر من الكلمات وما كان على شاكلتها مما توافقت فيه اللغات، فكانت العرب تتكلم به كما يتكلم به غيرهم، ولو سلمنا أن هذه الكلمات ليست عربية فاشتمال القرآن عليها لا يخرج القرآن عن كونه عربيا، لأن العرب استعملتها فى كلامها بعد أن صقلتها، وأجرت عليها قوانينها، فصار أسلوبها عربيا، فقد جاء فيها المجاز والكناية، والحقيقة على نمط اللغة العربية.

(٣) إن معظم ما فى القرآن مأخوذ من الكتب المقدسة السابقة عليه، صاغه محمد ﷺ فى ألفاظ عربية مزخرفة، واستدلوا على دعواهم بأن ما فيه من العقائد، والقصص، أو العبادات أو الأخلاق، إما أن يكون مماثلا لما فى تلك الكتب أو مشابها لها.

ويجاب عن ذلك أولا بأن القرآن إنما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ليصلح ما كان فاسدا عند الأمم لا ليزيل كل ما كان موجودا عندهم، فلا مانع من أن

يشتمل على ما اشتملت عليه كتبهم، بل هذا مما يدل على صدقه، وأنه ليس مخترعا، خصوصا وأن محمدا لم يكن قارئا، ولا كاتبا، بل كان أميا .

وقالوا بأن القرآن اشتمل على ما لم يوجد فى كتبهم، بل وعلى ما يخالف ما فى كتبهم من الأحكام الفرعية، ومخاطبة العقل بالتفكير، والنظر فى الآيات الكونية، فلو كان مصدر القرآن هو تلك الكتب لاقتصر على الموجود فيها، ولم يأت بشيء جديد، أو مخالف لما فيها، وليس الأمر كذلك، فليس مأخوذا من كتبهم كما يزعمون .

(٤) جاء فى القرآن أن التوراة ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾[1]، وجاء فيه ما يفيد أن اليهود حرفوا التوراة فقال ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾[2] وهذا تناقض، لأن مقتضى حكم النبيين بها أنها خالية من التحريف والتغيير، ومقتضى الآية الأخرى أن فيها تحريفا .

والجواب عن ذلك أن التوراة التى كان يحكم بها النبيون هى التى لم تحرف فهذا إخبار عن حالها قبل طرُوّ التحريف عليها، ووصفها بأنها محرفة بعد حصول التحريف فيها بالفعل فلا تناقض .

(٥) جاء فى القرآن أن طائفة من النصارى تقول بالتثليث فقد قال ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾، وهذا مخالف للواقع فإن هذه الطائفة لم توجد بين طوائف النصارى، والجواب عن ذلك أنه وجد فى تاريخ سعيد البطريق الذى كان فى آخر أمره بطريقا على الإسكندرية أن فرقة من النصارى فى الدهور المتقدمة كانت تعتقد التثليث، فدعواهم عدم وجود هذه الطائفة بين طوائف النصارى يبطله اعتراف هذا العالم النصرانى .

---

(١) سورة المائدة جزء الآية ٤٤ .

(٢) سورة المائدة جزء الآية ١٣ .

(٦) جاء في القرآن القصاص، فقال: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ وجاء فيه العفو فقال: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ الآية، والعفو والقصاص متناقضان، فالقرآن مشتمل على أحكام يناقض بعضها بعضا.

والجواب عن ذلك أن التناقض إنما يكون إذا أمرنا بالقصاص والعفو على وجه الوجوب، وليس كذلك، بل الأمر جاء بكل منهما على وجه التخيير فلا تناقض.

(٧) ورد في القرآن حكاية عن قوم مريم في خطابهم لها ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾ وهذه الآية تنص على أن مريم أخت لشخص يسمى هارون، ومعلوم أن هارون أخ لموسى عليهما السلام، فتكون مريم أختا لموسى، فيكون عيسى ابن أخت موسى، فيكونان معاصرين وهذا باطل. لأن عيسى جاء بعد موسى بزمن طويل قيل إنه ألف سنة فقد أخبر القرآن بخلاف الواقع وهذا يبطل كونه وحيا سماويا.

والجواب عن ذلك أن القرآن لم ينص على أن هارون الذى كان أخا لمريم، هو أخو موسى عليه السلام، فلا مانع من أن يكون لها أخ يسمى هارون وهو غير أخى موسى.

ويحتمل أن يكون هارون المذكور في الآية هو أخو موسى والمراد بالأخوة المشابهة، والمعنى يامن كانت شبيهة في العبادة والتقوى، والعلم بأحكام الدين، بهارون، الذى كانت له هذه الأوصاف. ولو قرأ ذلك المعترض قوله تعالى ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم﴾ ما أورد تلك الشبهة، فإنها تنص على أن عيسى أتى بعد جميع أنبياء بنى إسرائيل، وكيف يوردون هذه الشبهة وقد ثبت أنهم لا يعرفون اسم أبى مريم، بل اختلفت أناجيلهم في نسب المسيح عليه السلام؟؟!!

(٨) وجاء في القرآن ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا﴾، وهذه الآية تدل على أنه لم يسم أحد من قبل يحيى باسمه، وهذا غير مسلم لأن يحيى تعريب (يوحانان) العبرى ومعناه (الله حنون) وهذا

الاسم شهير بين اليهود، سمى به كثيرون من قبل يحيى، فإخبار القرآن بأنه لم يسم به أحد قبله غير مسلم .

ويجاب عن ذلك بأن المراد أنه لم يسم أحد بهذا الاسم قبله في أهله وعشيرته، كما جاء في أقوال لوقا، ويجاب أيضا بأن السَّمِيَّ يطلق ويراد منه النظير الذى يستحق مثل اسمه فيكون معنى الآية لم نجعل له من قبل نظيرا في استحقاق هذا الاسم، الدال على الرحمة والشفقة، والحنان، كما قال تعالى فيه ﴿وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا﴾ ولقد ورد في القرآن ﴿فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا﴾ أى نظيرا يستحق اسم الإله .

(٩) ورد في القرآن ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ وهذا الذى تفيده هذه الآية لم يوجد عندهم في الكتاب المقدس فلا يقبل، والجواب عن ذلك أنه جاء في سفر العدد قوله (وكانت سحابة الرب عليهم نهارا في ارتحالهم من المحلة) فقول المعترض أنه لم يوجد في الكتاب المقدس غير صحيح .

(١٠) جاء في القرآن في عجل بنى إسرائيل ﴿لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا﴾ وهذا غير صحيح لأن العجل كان من ذهب، والذهب لا يحرق. والجواب عن ذلك أنه قد جاء في سفر التثنية (وأما خطيئتكم العجل الذى صنعتم فأخذته وأحرقته بالنار ورضضته وطحنته جيدا حتى نعم كالغبار طرحت غباره في النهر المنحدر من الجبل) فما هو جوابكم فهو جوابنا، وأيضا فالمراد بالإحراق إذابته بالنار لإذهاب صورته .

(١١) ورد في القرآن في قصة ذى القرنين ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أى الشمس، وهذه الآية تدل على أن الشمس تغرب في نفس الأرض، وهذا غير صحيح، كما دل عليه العلم فإن الشمس لا تغيب في الأرض .

والجواب عن ذلك أن القرآن لم يكن بصدد بيان حقيقة غروب الشمس وشروقها ولكنه يعبر عما تخيله ذو القرنين بحسه، ولذلك قال ﴿وجدها﴾

بالنسبة إلى أن غروب الشمس فى الأرض كان باعتبار ما يبدو لذى القرنين، كما يقول القائل: رأيت الشمس تغرب فى البحر، وقد بين القرآن فى آية أخرى أن الشمس تجرى فى فلكها إلى أن يحصل خراب العالم، فقال ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾ أى فى مستقر.

(١٢) جاء فى القرآن فى حكاية عجل بنى إسرائيل ﴿وأضلهم السامرى﴾ وهو صريح فى أن السامرىّ الذى صنع العجل كان موجودا فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام، وهذا غير مسلم، لأن السامريين الذين يسكنون سامرة فلسطين لم يوجدوا إلا بعد موسى بعدة سنين، فكيف يتأتى وجود واحد منهم فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام.

والجواب عن ذلك بأن القرآن لم يصرح بأن السامرى الذى صنع العجل وأضل القوم هو من السامريين المنسوبين إلى سامرة فلسطين، كما أنه لم يقم دليل على أنه لا توجد بلدة تسمى بهذا الاسم غير سامرة فلسطين، فلا مانع من أن يكون منسوبا إلى بلدة أخرى تسمى بهذا الاسم، ويجوز أن يكون السامرى نسبة لبيت رجل يسمى (شامر) بالشين المعجمة، ولما نقل من العبرية إلى العربية قيل سامر بالسين المهملة، فإن المعروف أن الألفاظ التى هى فى العبرية بالشين المعجمة إذا نقلت إلى العربية تذكر بالسين المهملة.

وبالجملة فالقرآن لم يصرح بأن ذلك الرجل الذى أضل القوم بصنع العجل هو من (سامرة فلسطين) وحينئذ لا معنى لهذه الشبهة.

(١٣) جاء فى القرآن فى شأن سفينة نوح عليه السلام ﴿واستوت على الجودى﴾ وهذا صريح فى أن السفينة استوت على الجبل المسمى بالجودى، ويبطل هذا ما ورد فى التوراة من أنها استوت على جبل اسمه (أراراط).

والجواب عن ذلك أن مخالفة القرآن للتوراة لا يقتضى غلطه، بعد أن علمنا أن التوراة طرأ عليها التغيير والتبديل، وفضلا عن ذلك فنسخ التوراة ليست

متفقة فى أن السفينة استوت على أراراط ، فقد جاء فى النسخة السريانية أنها استقرت على جبل الأكراد الذى هو الجودى ، بل نقل بعض الكاتبين أن آثار الفلك وجدت على قمة الجودى ، فما ورد فى القرآن هو الأصح .

(١٤) جاء فى القرآن حكاية عن فرعون ﴿فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا﴾ ، وقال المسلمون إن هامان كان وزيرا لفرعون ، وهذا يخالف ما ورد من أن هامان كان وزيرا لأحشو يروش ملك فارس ، وهو متأخر عن فرعون بسنين ، فقولكم إنه كان وزيرا لفرعون غير صحيح .

والجواب عن هذه الشبهة أن القرآن لم يصرح بأن هامان كان وزيرا لفرعون ، والذى يظهر من سياق الآية أنه كان من الرؤساء الذين يسخرون الشعب فى المصالح ، ولو قلنا إنه كان وزيرا لفرعون فلا مانع من أن يكون وزير فرعون مسمى بهذا الإسم ، ووزير ملك فارس أيضا مسمى بهذا الإسم .

هذه هى الشبه التى وقفت عليها للنصارى والملحدين ، وقد علمت أنها ليست مستندا صحيحا يمكن اعتماده ، فلا عبرة بها ولا تقدح فى القرآنية .

حقيقة الإيمان

حقيقة الإيمان لغة هي الأمن من التكذيب والمخالفة، ثم نقل لغة إلى التصديق بأي أمر حقا كان أو باطلا، فاستعماله في التصديق مجاز لغوي، من استعمال الملزوم وهو الأمن من التكذيب والمخالفة، في لازمه وهو التصديق، لأنك إذا صيرت الغير في أمن من أن تكذبه وتخالفه لزم من ذلك أن تصدقه .

أما في عرف الشرع فاختلف أهل القبلة في مسماه هل هو فعل القلب فقط الذي هو التصديق الجزمي، أو فعل اللسان الذي هو الإقرار والنطق بالشهادتين، أو فعلهما معا، أو فعلهما وعمل الجوارح من صلاة وغيرها من أعمال الدين المطلوبة جزما .

ذهب إلى كل واحد من هذه الآراء فريق من العلماء:

فالمحققون والأشعري والقاضي عبد الجبار، وأبو إسحق الأسفراييني، وجهم ابن صفوان في أصح الروايات عنه، وكثيرون غيرهم أنه فعل القلب فقط، وعرفوه بأنه تصديق الرسول ﷺ في كل ما جاء به مما علم بالضرورة، تصديقا جازما مطلقا، سواء كان لدليل أو لتقليد الغير، فيدخل إيمان المقلد .

واختار أنه فعل اللسان فقط الكرامية وغيلان بن مسلم الدمشقي، والفضل الرقاشي، لكن الكرامية قالوا إنه مجرد الإقرار باللسان بدون قيد، ولا شرط، أما غيلان بن مسلم الدمشقي والفضل الرقاشي فقالا إنه فعل اللسان بشرط أن يكون معه التصديق بالقلب، فإذا فقد ذلك الشرط لا يكون فعل اللسان محققا للإيمان .

واختار كونه فعل القلب واللسان الأشاعرة والماتريدية[١]، لكن الماتريدية ومحققوا الأشاعرة قالوا إن التصديق محصل للنجاة من الخلود فى النار، والإقرار شرط لإجراء الأحكام الدنيوية من التوارث، والتناكح، والصلاة عليه، وخلفه والدفن فى مقابر المسلمين، لأن التصديق الباطنى وإن كان محصلا للإيمان إلا أنه باطن خفى، فلابد له من علامة ظاهرة تدل عليه، وهى الإقرار باللسان فمن صدق الرسول بقلبه فى كل ما جاء به كان مؤمنا فيما بينه وبين الله تعالى، وأن لم يقر بلسانه، وقال غير المحققين من الأشاعرة أن الإقرار باللسان ركن لكنه ركن زائد، يسقط عند الضرورة، كما إذا كان المصدق أخرس، فإنه قد سقط عنه الإقرار أما التصديق فإنه ركن لا يحتمل السقوط .

واختار كون الإيمان فعل القلب واللسان وسائر الجوارح المحدثون والإمام مالك والشافعى وأحمد والمعتزلة والخوارج .

وبعد أن اتفق هذا الفريق على كون الإيمان مركبا من هذه الأجزاء الثلاثة اختلفوا فى منزلة هذه الأجزاء. فقالت المعتزلة والخوارج لابد فى تحقق الإيمان من هذه الأجزاء، فهى أجزاء أصلية لا تحتمل السقوط بحال، فإذا انعدم جزء منها انعدم الإيمان، سواء كان ذلك الجزء فعل القلب أو فعل اللسان أو عمل الجوارح، غير أن المعتزلة قالوا إذا انعدمت الأعمال خرج الشخص من الإيمان ولم يدخل فى الكفر، فأثبتوا منزلة بين الإيمان والكفر، وسموا صاحبها فاسقا. والخوارج قالوا إذا انعدمت الأعمال خرج الشخص من الإيمان ودخل فى الكفر، أما المحدثون والأئمة الثلاثة فقالوا إذا انعدم التصديق انعدم الإيمان المنجى من الخلود فى النار، وإذا انعدم الإقرار انعدم الإيمان المستتبع لإجراء الأحكام الدنيوية دون المنجى من الخلود فى النار، وإذا انعدمت الأعمال انعدم كمال الإيمان، فالأعمال عندهم جزء مكمل لا أصلى، كاليد بالنسبة للجسم،

---

(١) راجع فى موضوع الإيمان والإسلام شرح المواقف للسيد الشريف جـ ٨ صـ ٣٢٢ وما بعدها وشرح المقاصد جـ ٢ صـ ١٨١ وما بعدها. وشرح العقائد النسفية للتفتازانى.

فإنها وإن كانت جزءاً منه لكنها إذا انعدمت لا ينعدم الجسم، وإن صار بانعدامها مشوها .

نظرة في الأقوال

إذا تأملت في هذه الأقوال المذكورة ترى من بينها قول الكرامية لا حظَّ له من النظر، فقد جاء في القرآن الكريم من الآيات ما يفيد أن المقر بلسانه ولم يصدق بقلبه كافر، ومخلد في النار، قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾[1] هذه الآية وردت في حق المنافقين حاكية ما وقع منهم فسمى فيها المنافق كافرا. قال تعالى ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾[2] الآية وهذه الآية سيقت لبيان حال المنافق في الآخرة، وأنه من المخلدين في النار، فإن المراد من الدرك الأسفل الطبقة السفلى في دار العذاب ولا يدخلها إلا غير المؤمن .

وحيث كان قول الكرامية بهذه المنزلة فلا داعي لذكر أدلته، فإنها أو هي من بيت العنكبوت .

وأما المعتزلة والخوارج فقد كان نظرهم في هذه المسألة قاصراً، حيث أخذوا بظواهر بعض الآيات والأحاديث، وغفلوا عن الآيات المخصصة للآيات التي تمسكوا بظاهرها، وعن الأحاديث المعارضة للأحاديث التي استشهدوا بها، فقد نظروا إلى آيات الوعيد وفهموها على عمومها الظاهر، فسووا بين معصية الشرك وباقي الكبائر، مثل قوله تعالى ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله

---

(1) سورة آل عمران الآية ١٥٦ .
(2) سورة النساء الآية ١٤٥ .

فيؤا عالقا فيها﴾، ومثل قول النبي ﷺ «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» الحديث وغفلوا عن الآيات الصريحة فى أن العاصى بغير الشرك مؤمن مثل قوله تعالى ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ وقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى﴾ وقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾ فإن هذه الآيات اعتبرت العاصى بغير الشرك مؤمنا، وطالبته بالتوبة، كما غفلوا عن حديث أبى ذر رضى الله تعالى عنه، ونصه قال: أتيت النبى ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم ثم أتيته وقد استيقظ، فقال ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق، قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق، قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى ذر.

فإن هذا الحديث صريح فى أن مرتكب الزنى مؤمن وأنه يدخل الجنة.

والمعروف أنه إذا وجد تعارض فى الظاهر بين الآيات، أو بين الأحاديث، يجب الجمع بينها بحمل كل على معنى لا يتعارض مع المعنى الآخر، لذلك نقول أن المعصية الدال عليها قوله تعالى ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ الآية هى معصية الشرك، والتى دلت عليها الآيات الأخرى معصية الكبائر غير الشرك، أما الحديث الذى تمسكت به المعتزلة فالغرض منه التنفير من معصية الزنا وجعل المرتكب لها كأنه خرج من الإيمان، وحينئذ ينتفى التعارض بينه وبين حديث أبى ذر، وقد ورد فى آخر حديث الشفاعة ما نصه:

(ولكن وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله).

وحيث علمت منزلة هذه الأقوال الثلاثة ومصادمتها للآيات والأحاديث فلنطرح من بين الأقوال المذكورة.

وأما قول غير المحققين من الأشاعرة إن الإقرار ركن زائد فقد ضعفه العلماء للأدلة الدالة على أن الإيمان هو التصديق .

كذلك قول غيلان بن مسلم والفضل إن الإيمان هو الإقرار والتصديق شرط ، يبطله بيان النبي للإيمان عند سؤال جبريل بقوله (أن تؤمن) الحديث أما الأقوال التي لها حظ من النظر فهي قول المحققين ومن معهم إن الإيمان هو التصديق فقط ، وقول الماتريدية ومحققي الأشاعرة إنه التصديق ، والإقرار شرط لإجراء الأحكام الدنيوية ، وقول المحدثين والأئمة الثلاثة إنه التصديق والإقرار والعمل ، على الوجه الذي سمعته في بيان مذهبهم .

وهذه الأقوال الثلاثة بحسب ظاهرها متقابلة فهل ذلك التقابل حقيقي ، وكل قول يخالف الآخر ، وله ثمرة خاصة تترتب عليه؟!!!

قد علمت من بيان مذهب المحدثين والأئمة الثلاثة أن الإقرار إنما اعتبر لإجراء الأحكام الدنيوية من التوارث والتناكح وغير ذلك .

وأن الأعمال ليست جزءاً أصيلا من أجزاء الإيمان ، ولكنها تزيده جمالا وتمكنا في النفس ، وعلمت من صريح مذهب الماتريدية ومحققي الأشاعرة أن الإقرار ليس جزأ من الإيمان ، وحينئذ يكون الإيمان المنجي من الخلود في النار عند هؤلاء هو التصديق فقط .

وهذا لا يخالف فيه المحققون ، فإن المعروف في الشرع أن الأمور الباطنية التي تخفى لابد لها من علامة ظاهرة تدل عليها لترتب آثارها ، وقد اشترط المحققون في كون التصديق إيمانا عدم وجود ما ينافيه من الإباء عن النطق بالشهادتين والسجود للصنم ، وإهانة المصحف ، ومن هذا يعلم أن كلام المحققين في الإيمان المنجي من الخلود في النار ، وكلام غيرهم في الإيمان المستتبع للأحكام الدنيوية . وحينئذ يكون الخلاف لفظيا فالكل مجمع على أن الإيمان المنجي من الخلود في النار هو التصديق والإقرار ليس جزأ أصليا . وكذلك الأعمال .

والذى يدلنا على أن الإيمان هو التصديق وعلى أن انعدام الإقرار لا يوجب انعدام الإيمان، وعلى أن الأعمال ليست داخلة فى مفهوم الإيمان هذه الأدلة قال تعالى ﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان﴾ وقال تعالى ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ وقال تعالى ﴿ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾ وقال تعالى ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ وقال تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ وقال ﷺ (اللهم ثبت قلبى على دينك) وقال ﷺ لأسامة حين قتل من قال لا إله إلا الله (هلا شققت عن قلبه) فهذه الآيات والأحاديث دلت على أن محل الإيمان هو القلب والذى يقوم بالقلب هو التصديق. وأيضا فقد خاطب القرآن الكريم الناس وطالبهم بالإيمان وقد نزل بلغة العرب، ولا تعرف العرب من لفظ الإيمان إلا التصديق، ولم يثبت أن الإيمان نقل من التصديق إلى معنى آخر، ولو ثبت لنقل تواترا، واشتهر المعنى المنقول إليه، لتوفر الدواعى على نقله، لأنه من الألفاظ التى يكثر دورانها على الألسنة، فلما لم ينقل دل ذلك على أنه باق على معنى التصديق، وأيضا فالكفر ضد الإيمان بدليل استعماله فى مقابلته، قال تعالى ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله﴾ والكفر هو التكذيب والجحود، وهما يكونان بالقلب فكذلك ضدهما وهو الإيمان، لأن التضاد لابد فيه من اتحاد المحل.

أما ما يدل على أن الإقرار ليس داخلا فى مفهوم الإيمان فقوله تعالى ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ فإنه يفيد أن انعدام الإقرار لا يوجب سلب الإيمان.

وأما ما يدل على أن الأعمال خارجة عن الإيمان فقوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وقوله تعالى ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ وقوله تعالى ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ فإن العمل عطف فى الآية الأولى والثانية على الإيمان، والعطف يقتضى المغايرة، والإيمان ذكر فى الآية الثالثة على أنه شرط، والشرط خارج عن المشروط.

وأيضا فاقتصار النبي ﷺ في بيان الإيمان عند سؤال جبريل له عنه على التصديق دليل على أن العمل ليس داخلا في مفهومه، ولو كان العمل أو الإقرار داخلا في مفهوم الإيمان لكان النبي مقصرا في الجواب، وكان مجيء جبريل للتلبيس على الناس في أمر دينهم .

زيادة الإيمان ونقصه

قال الله تعالى ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وزدناهم هدى ﴾ وقال تعالى ﴿ أيكم زادته هذه إيمانا ﴾ وقال تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ﴾ وقال تعالى ﴿ فاخشوهم فزادهم إيمانا ﴾ هذه الآيات أفادت أن الإيمان يزيد، وبالضرورة كل ما كان قابلا للزيادة فهو قابل للنقصان، فالإيمان يزيد وينقص. هذا ما دلت عليه الآيات وقضت به الضرورة، والكلام بعد ذلك في أن القابل للزيادة والنقصان هو الإيمان بمعنى التصديق والإقرار والعمل، أو الإيمان بمعنى التصديق فقط، قال بعض العلماء إن القابل للزيادة والنقصان هو الإيمان بالمعنى الأول فهو ينمو ويزيد بزيادة الأعمال كما ينقص بنقصها، فإن أديت جميع الأعمال من فرائض وغيرها ولم يتعد المكلف حدود الدين التي بينها الشرع كان إيمانه إيمانا كاملا، وكان مثله مثل البيت الذي استكمل جميع مرافقه الأساسية، والكمالية، وإن أديت بعض الأعمال دون البعض اتصف الإيمان بالنقصان، وتتفاوت مراتب نقصه تبعا للأعمال المتروكة، من حيث الفرضية والنفلية ، والقلة والكثرة، وصار مثله مثل البيت الذي هدمت مكملاته جميعها، أو بعضها، مع بقاء الأجزاء الأساسية .

أما الإيمان بمعنى التصديق فقط فلا يقبل الزيادة والنقصان لأن التصديق إذا نقص كان ظنا ، والظن ليس إيمانا، وحينئذ يمكن أن يقال إن الخلاف الحاصل بين العلماء في أن الإيمان يزيد وينقص مفرع على الكلام في معنى الإيمان، فمن قال إنه مجموع التصديق والإقرار والعمل، قال إنه يقبل الزيادة والنقصان، ومن قال إنه التصديق فقط قال بعدم قبوله للزيادة والنقصان، فيكون الخلاف لفظيا

وقد صرح بعض الكاتبين بذلك، وقال بعض العلماء إن الإيمان يزيد وينقص سواء كان هو مجموع الأمور الثلاثة، أو التصديق فقط، أما إذا كان المراد منه مجموع الأمور الثلاثة فقد علمت أن زيادته بزيادة الأعمال، ونقصه بنقصها، وأما إذا كان بمعنى التصديق فقط فطرد الزيادة والنقص عليه من جهة الدليل الموصل إليه ومن جهة متعلقه ومن جهة ثمرته .

بيان الأول أن الأدلة تتفاوت وضوحاً وخفاء، وبعدا عن الشبهة فكلما كانت واضحة بعيدة عن الشبه قريبة من البديهة، كان الثابت بها أشد رسوخا في النفس، فلا تؤثر عليه الشبهات، ولا تمحوه الطوارىء، وكلما كانت على الضد من ذلك كان الثابت بها قابلا للتأثر بالشبه، عرضة للزوال، وأيضا فإنا نرى تفاوتا بين ما تعددت أدلته وما لم تتعدد أدلته، وبين ما ثبت بالمشاهدة وما ثبت بالعلم .

فالتصديق إذاً يتفاوت بهذا الاعتبار، ومن ثم كان إيمان أبي بكر أرجح من إيمان أهل الأرض، كما ثبت في الحديث الوارد في ذلك .

وأما تفاوته من جهة متعلقة، وهي الأمور التي طلب منا الشارع التصديق بها، فبيانه أن التصديق بما جاء به النبي ﷺ قد يحصل على طريق الإجمال بمعنى أن المكلف إذا شاهد المعجزة الدالة على صدق الرسول في قوله أذعن بأن جميع ما جاء به النبي وما سيجيء به حق بدون وقوف على التفاصيل، وحكم التشريع، وقد يحصل التصديق على طريق التفصيل بمعنى أنه يصدق بالعقائد الدينية، وبأنواع العبادة مع الوقوف على الحكم التي ظهرت له، في كل جزئية من جزئيات الدين، وما لم تظهر له حكمته أو لم يفهم معناه، كالمتشابه يؤمن بأن له حكمة، وعدم إدراكه لها جاء من قصور فهمه .

لا شك أن التصديق على الإجمال وعلى التفصيل بالكيفية المتقدمة يتفاوت قوة وضعفا، فإن المصدق على الإجمال لا يبعد أن يتخلخل اعتقاده، أو يحصل

منه استكبار قلبي، أو لساني، عند عجزه عن فهم حكمة التشريع في بعض الأحكام أو اشتمال القرآن على المتشابه، أو تكرار قصص الأنبياء، أما المصدق على التفصيل فهو في أمن من تخلخل اعتقاده، وطرد الشك له في عقيدته .

وأما تفاوت التصديق من جهة ثمرته وهي الأعمال فواضح، إذ من المسلم به أن أثر الشيء إذا ترتب عليه كان ذلك دليلا على حضوره وتمكنه، وبعكس ذلك إذا لم يترتب الأثر، ويكفينا في بيان هذا ما ورد عن النبي ﷺ في شأن من ترك صلاة الجمعة مرة، وثلاث مرات، فقد جعل التارك لها ثلاث مرات منافقا، كما جاء في بعض الروايات، أما التارك لها مرة فقد شرع له كفارة وهي التصديق بدينار، كما جاء في رواية عنه ﷺ .

مباحث الإسلام

الإسلام معناه لغة الاستسلام والانقياد سواء كان بالباطن أو الظاهر، أما في عرف الشرع فهو ما بينه الرسول ﷺ بقوله : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان[١] فهو الانقياد الظاهري وعلى هذا يكون الإسلام مغايرا للإيمان، لأن الإسلام هو الانقياد الظاهري، والإيمان هو الإذعان القلبي، ولا تلازم بينهما، فقد يكون الشخص مؤمنا مسلما إذا أذعن بقلبه وصدق بالله، وملائكته وكتبه ورسله، وانقاد لأوامر الله تعالى ونواهيه، وقد يكون مؤمنا غير مسلم إذا أذعن بقلبه، ولم يحصل منه الانقياد الظاهري، وقد يكون مسلما غير مؤمن إذا انقاد ظاهرا ولم يصدق بقلبه، فتكون النسبة بينهما العموم والخصوص الوجهي، يجتمعان في أمر،

(١) يبدو أن الكلام ناقص ويحتاج إلى الزيادة، والحج للبيت إن استطعت إليه سبيلا لأن الكلام حديث رسول الله ﷺ .

بقلبه وانقاد ظاهرا، وينفرد الإيمان فيمن صدق بقلبه ولم يحصل منه انقياد فى الظاهر، وينفرد الإسلام فيمن انقاد ظاهرا وجحد باطنا.

هذا ما يتعلق بالإيمان والإسلام من حيث بيان معناهما فى اللغة[1] وفى عرف الشرع.

أما فى لغة القرآن فاستعمال كل منهما قد يكون فى المعنى اللغوى، وقد يكون فى المعنى الشرعى، وقد يتعداهما إلى معنى ثالث، وهو مجموع التصديق الباطنى والانقياد الظاهرى، والذى يعين المعنى المراد من هذه المعانى هو القرينة الدالة على إرادته دون غيره، وإليك بعض الآيات القرآنية الواردة فى ذلك:

قال الله تعالى ﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان﴾ وقال تعالى ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ فالإيمان فى هاتين الآيتين مستعمل فى التصديق الباطنى بحق، والمعين لهذا المعنى التعبير بالقلوب فى الآية الأولى، وبكتم الإيمان فى الآية الثانية، وقال تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ وهذه الآية استعمل فيها الإسلام فى الانقياد الظاهرى لأوامر الشارع، والإيمان فى التصديق الباطنى الحق، والقرينة على ذلك الجمع بين الإيمان والإسلام فى آية واحدة، وترتب المغفرة والأجر العظيم على تحصيلهما، فالإيمان والإسلام فى هذه الآيات استعملا فى حقيقتهما الشرعية.

وقد ورد كل منهما مستعملا فى حقيقته اللغوية والمتتبع للتراكيب القرآنية يتبين له أن هذا الاستعمال خاص بما إذا ذكر مع كل منهما متعلق خاص، تعدى الإيمان إليه بالباء، والإسلام باللام، قال تعالى ﴿ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله﴾ وقال تعالى ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله﴾ وقال تعالى ﴿وكانوا يعبدون الجن وأكثرهم بهم مؤمنون﴾ فالإيمان فى الآية الأولى التصديق

(١) راجع شرح المواقف للسيد الشريف جـ ٨ صـ ٣٢٢ وما بعدها، وشرح المقاصد للسعد جـ ٢ صـ ١٨١ وما بعدها.

الباطنى بحق، وفى الآيات التى بعدها التصديق بباطل وقال تعالى ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون﴾[١] فالإسلام فى هذه الآية تعدى باللام، والجملة تثبت بمنطوقها الانقياد لله، وبمفهومها تنفى الإسلام لغير الله.

أما استعمال كل منهما فى مجموع التصديق الباطنى والانقياد الظاهرى فقد ورد فيه آيات كثيرة، بعضها فى الإيمان، وبعضها فى الإسلام، فما ورد فى الإيمان قوله تعالى ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ وقوله تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ وقوله تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[١] ومما ورد فى الإسلام قوله تعالى ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وقوله تعالى ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ فالإيمان والإسلام فى هذه الآيات أريد منه الدين بجملته، بواسطة القرائن المعينة لهذا المعنى كما هو واضح.

مؤاخاة الإسلام للعقل والعلم

الدين الإسلامى الذى أرسل الله نبيه محمدا ﷺ لنشر مبادئه وتعاليمه يتكون فى مجموعه من أمرين: العقائد الدينية، والتكاليف الشرعية المطلوب فعلها من صلاة، وصوم وحج، وزكاة، وغير ذلك، أو تركها من سرقة وشرب خمر، وغير ذلك.

والعقائد الدينية تنتظم أمرين: ما يتعلق بالبارى سبحانه وتعالى، وما يتعلق برسالة سيدنا محمد ﷺ.

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٢، ٣.

أما المتعلقة بالبارى سبحانه وتعالى من وجوب وجوده، ووحدانيته، واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص، فقد جاءت به كل الأديان السماوية، وطالب كل رسول أمته باعتقاده، ولكن كان البرهان فى الأديان السابقة على كون ذلك الاعتقاد حقا واجب الاتباع هو مجرد اشتمال الكتاب المقدس عليه، أو طلب الرسول، أو إرشاد تلاميذ الرسول له، بدون استناد إلى دليل عقلى، أو نظر فى الآيات الكونية، وقد ذكر المرحوم الأستاذ الإمام فى كتاب الإسلام والنصرانية أن من الأصول التى اتفقت عليها طوائف المسيحيين أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها، وأن من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به، واستشهد على ذلك بقول القديس «انسيلم» «يجب أن تعتقدوا بما يعرض على قلبك بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت».

أما الدين الإسلامى فلقد احترم العقول ونبهها من غفلتها، وأمرها بالتدبر، وجعل حكمها القول الفصل فى تلك العقائد، فطلب من الناس الاعتراف بوجود الله تعالى، والإقرار بوحدانيته، ولم يكتف فى ذلك باشتمال القرآن الكريم على هذه المطالب وما ماثلها، ولا بمطالبة الرسول ﷺ، بل كان التعويل فى هذه البحث على العقول، فطالبها بتأدية وظيفتها، والنظر فى الأكوان وما اشتملت عليه من انتظام والترتيب، حتى تصل بذلك إلى الاعتراف بوجود الواجب، [illegible] الإله الحق جل سناه.

فإذا [illegible] بالأجرام، وتعاقب الليل [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٤.

اشتملت على عدة من الآيات الكونية، وطلبت من العقل أن يفكر فيها، وفيما اشتملت عليه من النظام ومنافع العباد، ليصل بذلك إلى معرفة منشئها، ومرتبها على ذلك الوجه البديع، وانظر إلى قوله تعالى ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[1] تراه قد نبه العقل إلى النظر في أصل الكون، وأن السموات والأرض كانتا ملتحمتين ففصلا عن بعضهما، وأن كل شيء حي خلق من الماء، لما اشتمل عليه من عناصر الحياة، ليصل بذلك النظر إلى أن هذا الكون البديع، موجدا واجب[2] الوجود، حيا قادرا، عليما حكيما، متصفا بصفات الكمال، وحينئذ تخضع النفوس لسلطان ذلك الإله وتدين لأحكامه وأوامره ونواهيه .

وانظر إلى قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ وقوله تعالى ﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾[3] فإنه بين ما يترتب على تعدد الآلهة من الفساد، وعدم نظام الكون، الذى يراه بالحس والمشاهدة، فهو يأمر العقل بالنظر فى ذلك حتى يصل إلى الجزم بوحدانية الإله ونفى الشريك .

على أن الدين لم يقف بالعقول عند أمرها بالنظر والتدبر، بل جعل إهمال استعمال العقل سببا للعذاب الأخروى، فقال تعالى فى حق أهل النار ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير﴾[4] .

أما رسالة سيدنا محمد ﷺ فقد جاء القرآن مصدقا بأن [illegible]

---

(1) سورة الأنبياء الآية ٣٠ .

(2) [illegible]

[illegible]

(3) سورة المؤمنون من الآية ٩١ .

(4) سورة الملك الآية ١٠ .

تدبر أسراره، وحسن أسلوبه، وما اختص به من آيات البلاغة، وإذا أمكنهم بعد ذلك أن يعارضوه فليأتوا بمثله قال تعالى ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ وقال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[1].

وأما التكاليف الفرعية من عبادات ومعاملات فإنك إذا تأملت فيها، وعلمت ما اشتملت عليه، من المصالح والمنافع التي تعود على العباد لا يسعك إلا أن تجزم بأنه ليس فيها ما يناقض العقل السليم.

وقد ذكر علماء الكلام أن أول واجب على الإنسان هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بوجوده تعالى.

وقالوا أيضا إذا تعارض العقل والنقل وجب الأخذ بما دل عليه العقل وإرجاع النقل إلى ما تقضي به العقل.

وكما أن الدين الإسلامي احترم العقل، ونبه إلى النظر في الآيات، كذلك رغب في تحصيل العلم الرافع للجهل، لا فرق بين العلوم الدنيوية والدينية، قال تعالى ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾[2] أي لا تتبع ما لم يتعلق به علمك فلا تقلد ولا تقل رجما بالغيب.

وقال منوها بشأن علم التاريخ ﴿إيتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ وقال في شأن العلوم العقلية مشيرا إلى الترغيب فيها: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾[3] وأصرح من ذلك في رفع شأن العلم. قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾[4] وقوله تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢.
(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦.
(٣) سورة الحج الآية ٨.
(٤) سورة آل عمران الآية ١٨.

درجات﴾ وقوله تعالى أمراً للرسول بطلب الزيادة في العلم ﴿وقل رب زدني علماً﴾ ولم يكتف القرآن بالحث على تعلم العلوم، بل ذم الظن والتقليد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ وقوله تعالى في قول النصارى في صلب المسيح. ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾[1] وغير ذلك كثير.

والخلاصة أن الدين الذى يدعو الناس إلى إعمال عقولهم وينهاهم عن الاعتماد على الظن، ويحثهم على تعلم العلوم بجميع أنواعها، ويحول في إثبات قضاياه على حكم العقل، لا يصح أن يشتمل على ما يناقض العقل ولا على ما يخالف العلم.

وإن قال خصومه إنه ناقض العقل، أو خالف العلم، فمنشؤه قصر النظر وعدم تفهم الكتاب الكريم ومزايا الدين.

ومن الأدلة على ذلك أن كثيراً من النظريات والاكتشافات التى يزعم أربابها أنها مخالفة للقرآن، ولما جاء به الدين، لا تلبث أن تعارض بنظريات أخرى، أو بإظهار خطأ صاحبها، أو عدم فهمه للقرآن الكريم على الوجه الصحيح، فالإسلام هو الدين الذى تآخى مع العقل والعلم.

الإسلام دين الفطرة

يطلق الإسلام ويراد به الانقياد الظاهرى لما جاء به نبينا محمد ﷺ من التكاليف الفرعية.

ويطلق ويراد به ما يشمل الانقياد الظاهرى والتصديق الباطنى وهو المراد هنا،

---

(1) سورة النساء جزء الآية ١٥٧.

والفطرة تطلق ويراد منها الدين، وتطلق ويراد منها الخلقة، وهو المراد هنا، فيكون معنى هذه الجملة أن الدين الإسلامى الذى جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية، هو الدين الذى يتناسب ويلتئم مع خلقة النوع الإنسانى، ويقبله العقل واستعداده، ويكفل مصالحه وحاجاته، ولو نظرنا إلى استعداد الإنسان وما خلق لأجله، وإلى التكاليف التى جاء بها دين الإسلام اتضح لنا أن الإسلام دين الفطرة وإليك البيان:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وميزه عن سائر الحيوانات، التى تشاركه فى الحيوانية بالعقل والتفكير، وجعله خليفة فى الأرض، ليقوم بعمارتها، وخلق الحيوانات الأخرى وعوالم كثيرة، ليستعملها الإنسان فى عمارة الأرض وتحصيل مصالحه، وجميع لوازم الحياة، وحيث كان الإنسان بهذه المنزلة فالدين الذى يناسبه ويلتئم مع استعداده هو الدين الذى يرفع شأنه، ويرقى روحه، ولا يهمل عقله، ويحفظ جسمه، وتكون تكاليفه وافية بحاجته، وتكاليف الإسلام من أصول وفروع كفيلة بذلك .

فقد طلب من الإنسان أن يترفع عن عبادة الأصنام والكواكب ويجعل عبادته خالصة لله تعالى الذى خلقه وسواه، وأسبغ عليه نعمه، ويعترف بوحدانيته واتصافه بجميع الكمالات وتنزهه عن النقائص .

وبهذا رفع شأن النفوس الإنسانية وطهرها من خرافات الشرك، والأوهام فلا تنحط إلى عبادة الجماد والحيوان، وجعل المرجع فى ذلك العقل، فحثه على النظر فى الكائنات، وما اشتملت عليه من إحكام الصنع وبديع الإتقان .

وفى هذا احترام للعقول وحثها على تأدية وظيفتها التى خلقت لأجلها .

ومن ذلك يتضح أن التكليف بالعقائد الإلهية على هذا الوجه جاء ملائما ومناسبا لما تقتضيه فطرة الإنسان وخليقته .

كذلك حث الدين الإسلامى على تعلم العلم سواء كان دنيويا أو أخرويا

ويرفع من شأنه وشأن أهله، وطلب من الإنسان أن يترفع عن التقليد واتباع الظن، وفي هذا إرشاد إلى ما يكمله ويرفع شأنه، ودلالة على أن استعداده يؤهله لذلك .

كذلك جاء الدين بعبادات من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك طالب الإنسان بها، وشدد في ذلك الطلب، لأن كماله في نفسه وإقامة دعائم المودة، والارتباط بين أفراده وجعله إنسانا كاملا لا يتحقق إلا بالإتيان بهذه العبادات :

فالصلاة تزكي النفس وتطهرها، وتقرب العبد من الله تعالى، والصوم يقوى إرادته، ويحفظ صحته، وينبهه إلى العطف على أخوانه الفقراء، والزكاة الواجبة في مال الغني تدفع حاجة الفقير المشارك له في الإنسانية، وتجعله آمنا على نفسه، وماله وهكذا، وجميع العبادات توصله إلى السعادة الأخروية التي يميل إليها بمقتضى استعداده وتفكيره .

كذلك جاء الدين الإسلامي في المعاملات بباب واسع بحيث يتمكن كل فرد من أفراد الإنسان بمقتضى رغبته وميله، أن يجد طلبته وما توده نفسه، ويحصل مصلحته ويدفع حاجته .

ذلك لأن الإنسان في حياته محتاج إلى أشياء كثيرة من مسكن، وملبس وغير ذلك، وليس من السهل وجود كل ذلك في يده، فهو مضطر إلى الحصول عليه من الغير وتحصيله بطريق الغصب وظلم الغير، تأباه النفوس السليمة لمخالفته لطبيعتها، فشرع الله له كيفية التعامل مع الغير من بيع وإجارة، ورهن وعارية، ليسهل عليه اختيار الطريق الذي يناسب حالته وتطمئن إليه النفوس .

كذلك أباح له التمتع بالطيبات، ونهاه عن تناول ما يضر جسمه ويميت فكره وعقله .

كذلك طلب الدين من الإنسان التجمل بالأخلاق الفاضلة من الصدق والوفاء وغير ذلك .

لا شك أن الدين الذي جاء بهذه التعاليم هو الدين الذي يجعل الإنسان إنساناً كاملاً، وهو الذي يناسب استعداد الإنسان ويلائم فطرته، فالإسلام دين الفطرة .

أثر الإسلام في انتشار العلوم
والرد على من زعم أنه أخر العقل البشري

يؤخذ من كتب التاريخ الموثوق بها أن العرب قبل الإسلام لم تكن حياتهم العقلية واسعة النواحي، لأن طبيعة بلادهم الصحراوية لا تستدعي أكثر من أن يفكروا في تحصيل أرزاقهم، بواسطة ما يملكون من الإبل، وأنواع السوائم وفي طلب المرعى لها .

لذلك لم يعرف عنهم أنهم فكروا، أو اخترعوا، أو استنبطوا من الآيات الكونية ما يسمى علماً، وكل ما عرف عنهم هو نبوغهم في اللغة والشعر، والأمثال والقصص، ومعرفة الأنساب والأنواء، وشيء من تواريخ الأمم الماضية، أخذه خلفهم عن سلفهم، وشيء من الطب وصلوا إليه بالتجارب التي ورثوها عن أسلافهم، وربما أخطأوا في الوصف، لأن ذلك الطب المعروف بينهم ليس جارياً على قواعد صحيحة، منضبطة، وكانت الأمية شائعة بينهم، حتى أنه لم توجد في قريش التي هي أشرف القبائل العربية وأرقاها، من يعرف الكتابة من الرجال، سوى سبعة عشر منهم: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومع ذلك فلم يكونوا مهرة في الكتابة، ولم تكن كتابتهم سائرة على نمط واحد، ولا خاضعة لقوانين الإملاء، فكانوا يكتبون امرأة بتاء مفتوحة، ويحذفون الألف حيث يجب حذفها، وسبب ذلك ضعفهم في صناعة الخط، وأنهم لم يبلغوا حد الإجادة فيها .

فلما جاء الإسلام أفاد الحركة العلمية فى بلاد العرب من وجوه متعددة:

« ١ » جاءت تعاليم هذا الدين صالحة لجميع الناس فى جميع الأزمان والأمكنة، فكانت وظيفة الرسول وخلفائه من بعده، القيام بنشر تعاليمه لعامة الناس، ومن لوازم ذلك وجود من يقرأ ويكتب، فيمكن للعالم بالقراءة والكتابة، أن يكتب آيات القرآن ويتلوها على من لم يعرف، كما حصل من خباب بن الأرت مع أخت عمر بن الخطاب، فإنه ذهب إليهما ومعه صحيفة فيها آيات من سورة طه فكان يقرؤها عليهما، وقد ورد أن النبى ﷺ فى غزوة بدر جعل فداء بعض الأسرى الذى يكتبون تعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة، بل حث النبى ﷺ بعض أصحابه أن يتعلموا لغة غير اللغة العربية لما رأى الحاجة داعية إلى ذلك، فقد روى البخارى أن النبى ﷺ أمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود، وقراءتها، وتعلم اللغة السريانية، ومن ذلك يعلم أن القيام بنشر تعاليم الدين الإسلامى كان داعيا إلى تعلم القراءة والكتابة واللغة المخالفة للغة العربية.

كذلك لما اتسعت الفتوحات الإسلامية وكان العنصر العربى هو الحاكم والقائم بالشؤون، كان لا غنى له عن تعلم القراءة، والكتابة، كى يتأتى له ضبط معاملات الناس مع بعضهم، وانتشار الإسلام ودخول الناس فيه من غير العرب كان من البواعث لهذا الفريق على تعلم اللغة العربية، ليفهموا آيات القرآن والأحاديث، حتى يعرفوا ما يلزمهم لدينهم ودنياهم فتعلموا النحو.

ومن هنا أيضا يتبين أن للإسلام أثرا كبيرا فى تعلم العلوم العربية.

« ٢ » طالب الإسلام معتنقيه بعقائد، وعبادات، ومعاملات، والتحلى بأخلاق فكان باعثا للعقول على التفكير فى تلك التعاليم ومزاياها، فرفع المستوى العقلى[١] من الانحطاط الذى لا يناسب استعداد النوع الإنسانى.

---

(١) هكذا وردت الكلمة فى النسختين المطبوعتين، وأعتقد أن فيها خطأ مطبعيا والصواب العقلى.

كذلك جاء القرآن الكريم متضمنا أحوال الأنبياء مع أممهم، فقص علينا خبر نوح وإبراهيم، وصالح وهود، ويونس وموسى، وعيسى عليهم السلام، مع أممهم بإطناب تارة، وإيجاز تارة، في أسلوب يحمل النفوس على الاستزادة من أخبارهم، وتعرف ما عند الأمم الأخرى، فكان ذلك متقنا لعقول المسلمين ومؤديا إلى توسيع مداركهم، والتطلع إلى زيادة التفكير والاستمرار فيه.

وجاء القرآن الكريم أيضا مشتملا على أحكام الأحوال الشخصية، والشئون المدنية، والجنائية، فكان أساسا اتخذه المجتهدون مرجعا لهم، يستنبطون منه أحكام الحوادث التي اقتضتها مدنية المسلمين، وحضارتهم، وغير خفي أن هذا يحمل الراغب في استنباط الأحكام على تعلم العلوم التي تؤهله للاستنباط

«٣» سلك القرآن الكريم في الدعوة إلى الإيمان بالله وصفاته، من علم وقدرة ووحدانية مسلكا حرك العقول وحثها على التفكير، فدعاها إلى النظر في الكائنات وما اشتملت عليه من الأسرار، فكان لهذا أثر كبير في نمو العلوم الكونية، وفي ترقية الحياة العقلية، قال تعالى ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ وقال تعالى ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم﴾[١] وقال تعالى ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾[٢] وقال تعالى ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾[٣]

---

(١) سورة عبس الآيات ٢٤ وما بعدها
(٢) سورة آل عمران الآيات ١٩٠ وما بعدها
(٣) سورة الروم الآية ٢٢ .

وغير خفى أن الدين الذى يرشد الإنسان إلى تعلم العلوم، واستعمال العقول، والتفكير فى الكائنات وما اشتملت عليه من الخواص والأسرار . لا يؤخر العقل البشرى، بل يرقيه إلى المستوى الذى يناسب استعداده .

فالإسلام لا يؤخر العقل البشرى .

بيان أن الإسلام أفضل الأديان

منذ سكن آدم عليه السلام الأرض، ووجد له أولاد، احتاجوا للتعامل مع بعضهم، والله تعالى يتعهد بنيه من وقت لآخر ببعث برسله إلى طائفة منهم، يرشدهم إلى التعامل بأحكام، تكفل مصالحهم بحسب العرض الذى وجدوا فيه .

استمر الأمر هكذا إلى أن أرسل الله نبيه محمدا ﷺ إلى الناس كافة، بدين صالح لجميع الأزمنة والأمكنة، ناسخ للأديان السابقة عليه .

هذه الأديان السابقة على الدين الإسلامى ليس بين أيدينا من الكتب والتواريخ ما يبين تكاليفها الفرعية، ما عدا شريعة موسى وعيسى عليهما السلام، فإن كتب العهد القديم تبين تعاليم الديانة اليهودية، وكتب العهد الجديد تبين تعاليم الديانة المسيحية، فإذا أردنا أن نعمل مقارنة بين الدين الإسلامى وغيره من الأديان، فلنكن بينه وبين دين اليهود ودين النصارى، حيث يوجد من الكتب المعول عليها عند أهل الديانتين ما يعلم منه أحكام هاتين الديانتين .

والتفاضل بين دين الإسلام وغيره إنما هو باعتبار الديانات فى ذاتها، بقطع النظر عن كون بعضها نسخ، أو لم ينسخ، أما إذا نظرنا إلى أن جميع الأديان المخالفة للدين الإسلامى قد نسخت، فلا معنى للتفاضل بين ناسخ ومنسوخ،

لأن نسخ اللاحق للسابق إنما كان لمصلحة اقتضته بالعمل[1] به متعين، وهو الأفضل بلا نزاع .

وإنى أذكر لك كلمة موجزة فى بيان أحكام من دين اليهود، وأحكام من دين النصارى، لتقارن بينها وبين الدين الإسلامى، ومن ذلك يظهر لك أن دين الإسلام أفضل الأديان .

دين اليهود

كان قوم موسى مستعبدين للفراعنة، فنشأ عن هذا الاستعباد ضعف الضمائر والعزائم، كما هو الشأن فى ذلك، ومثل هؤلاء الذين ضعفت ضمائرهم لا يجيبون داعى الله بسهولة، فلا يناسبهم إلا الشدة .

لذلك ترى بين صفحات التوراة من التكاليف والزواجر ما يصعب الخضوع له .

فقد جاء فى سفر اللاويين (من عمل يوم السبت يقتل قتلا) وجاء أيضا (الجمل نجس لا تأكلوه والأرنب كذلك من لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا إنها نجسة لكم) وجاء فى سفر الخروج (من سب أباه أو أمه يقتل قتلا) .

وجاء فى سفر العدد «إذا مات إنسان فى خيمة فكل من دخلها أو كان بها يكون نجسا سبعة أيام، وكل إناء مفتوح فإنه نجس، وكل من مس قبرا أو عظم إنسان يكون نجسا سبعة أيام» .

ونقل الفخر الرازى فى تفسيره أن الصلاة فى دين اليهود كانت خمسين فى

---

(1) هكذا ورد النص فى المطبوعتين، وأعتقد فى الكلام خطأ مطبعيا، والصواب: كان لمصلحة اقتضته، والعمل به متعين... الخ .

اليوم والليلة، وكان الواجب فى الزكاة عندهم ربع ما يملكه الإنسان، ولا تعطى للفقير بل تحرق، وكان الثوب إذا تنجس لا يطهر إلا بقطع موضع النجاسة، وكان الواحد منهم إذا نسى شيئا مما كلف به عجلت له العقوبة فى الدنيا، وإذا ارتكب خطيئة عوقب بتحريم بعض أنواع الطعام التى كانت حلالا له، وكانت التوبة عندهم بقتل النفس.

دين النصارى

جاء عيسى عليه الصلاة والسلام والناس قد سئموا ثقل التكاليف فنبذوها وانغمسوا فى اللذات والشهوات، فطالبهم بالانقطاع إلى الملكوت، والعفو والصفح، والزهد فى الحياة الدنيا ولذاتها، فقد جاء فى إنجيل (متى) أن عيسى قال يوما لأتباعه (سمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له رداءك، ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه ميلين).

وجاء فيه أيضا (مرور جمل فى ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى فى ملكوت الله، لا تقدروا أن تخدموا الله والمال، لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا، ولا تهتموا بما للغد، فإن الغد يهتم بما لنفسه) وجاء فى إنجيل (متى) ما يفيد أن عيسى حث على الرهبانية وترك الزواج مع أن فى ذلك قطع النسل البشرى نظا. قال (ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات، من استطاع أن يقبل فليقبل).

فشريعة موسى فيها من التكاليف الشديدة ما يؤدى إلى الخروج عليها ونبذها وشريعة عيسى فيها ما يدعو معتنقيها إلى احتقار الدنيا، والبعد عما فيها من عمران.

أما الدين الإسلامى فهو الدين الوسط الجامع لحقوق الروح والجسد،

ومصالح الدنيا والآخرة، ولا حرج فيه ولا عسر، ولا إرهاق، ويظهر لك هذا بذكر نبذة يسيرة.

دين الإسلام بالنظر إلى التكاليف الفرعية ينحصر في أمرين:

معاملة العبد مع ربه، ومعاملة العباد مع بعضهم.

والنوع الأول يعرف بالعبادات والتأثر[1] بالمعاملات. أما النوع الأول[2].

فقد كلف الله تعالى العباد بحسب طاقتهم مع اشتمال التكاليف على مصالح تعود على العباد.

كلفهم بالصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، في أوقات محدودة على وجه لا يمنعهم من السعي في أمور دنياهم، وفضلا عن ذلك فهي نوع من الرياضة التي تعود على البدن بالفوائد الجمة، مع ملاحظة أنها مسبوقة بوضوء، هو عبارة عن غسل الوجه والأيدي، والأرجل ومسح الرأس، وهذا يعيد إلى الإنسان ما فقده من النشاط، هذه الصلاة يؤديها من قيام إن قدر، وإلا فمن قعود إن استطاع ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، كلفهم بالصوم شهرا في العام، ليدركوا قيمة الألم الذي يلحق الفقير الجائع، فيعطفوا عليه، ولتخف تلك الرطوبات التي تمكنت من أجسامهم طول العام، بشرط القدرة وعدم المشقة.

قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾[3] كلف الغني بالزكاة بنسبة ربع عشر ما يملك

---

(١) هكذا وردت الكلمة (والتأثر بالمعاملات) في النسختين المطبوعتين وأعتقد أنه خطأ مطبعي، والصواب (والثاني بالمعاملات).

(٢) يقصد بالنوع الأول هنا العبادات. بخلاف النوع الأول في العبارة السابقة فيقصد الشريعة مطلقا: عبادات ومعاملات.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٢ وما بعدها.

بأمره ببذلها للفقير، وبذلك يأمن على نفسه، وماله من تعدى الفقير عليه، فيزول الحسد والحقد من النفوس.

كلف المستطيع بالحج ليحصل التعارف بين المسلمين، والوقوف على أحوال بعضهم، والتشاور فيما فيه مصلحتهم، فى ذلك الموقف الذى يذكرهم بالوقوف بين يدى الله سبحانه وتعالى فى المحشر، ولم يعجل لهم العقوبة فى الدنيا بالمسخ أو الإغراق.

يقبل التوبة من المؤمن بمجرد الندم والعزم على عدم العود وعفو المظلوم عن الظالم إن كان الحق للعبد.

لم يكلفه فى تطهير ثوبه من النجاسة بقطع موضعها، بل اكتفى بغسل موضعها، أو مسحها، أو جفافها، على حسب ما هو مبين فى كتب الفروع، وأباح للإنسان الزينة والتمتع بالطيبات من الرزق بدون إسراف قال تعالى:

﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾[1] وقال تعالى **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**[2] وجاء فى الأحاديث الصحيحة نهى المسلمين عن الغلو فى العبادة، وعن الرهبانية، وعن الخطأ، وأمرنا بالسعى فى تحصيل الدنيا، قال تعالى **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾**[3].

أما النوع الثانى وهو معاملة العباد مع بعضهم، فقد شرعه الله تعالى موسعا فى طرقه، من بيع، ورهن، وإجارة، وإعارة، على وجه قاطع لمنازعة

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣١.
(٢) سورة الأعراف الآية ٣٢.
(٣) سورة القصص الآية ٧٧.

العباد مع بعضهم، كفيل بمصالحهم، وسوى فيه بين الغنى والفقير، وبين المسلم والذمى، فيقتص من الغنى للفقير، ومن المسلم للذمى، وأوجب عصمة دم الذمى وماله كالمسلم.

وغير ذلك فقد جاء الدين حاثا على الإحسان إلى الوالدين، واليتيم، والجار، ومعاملة الزوجة بالحسنى، والوفاء بالعهد، مشددا النكير على الظالم لغيره، بإزهاق روحه أو أخذ ماله، أو تعد على عرضه، أو تكلم فى حق أخيه المؤمن بما يكرهه.

إذا نظر المنصف إلى هذه التكاليف والتعاليم، وقارن بينها وبين ما جاء فى الأديان السابقة أدرك أن دين الإسلام هو الدين الذى جمع كلاما يحتاج إليه الإنسان فى نفسه ومع أهله، وجاره، فى حضره وسفره، فى صحته ومرضه.

وهو الذى أوضح للإنسان سبيل العمل على وجه لا يلحق به مشقة، ولا عسرا، وهو الذى أعطى للإنسان حظه فى الحياة الدنيا، على وجه يتفق مع المصالح، فليس فيه عسر ولا حرج، فهو الدين الوسط، وخير الأمور أوساطها قال تعالى ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[1] وقال تعالى ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾[2] وقال تعالى ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾[3]

---

(١) سورة البقرة جزء الآية ١٨٥.
(٢) سورة الحج جزء الآية ٧٨.
(٣) سورة البقرة الآية الأخيرة.

بيان مزايا الإسلام

(فيما يتعلق بالحالة الخلقية للفرد، وبحالة الأسرة والمجتمع.)

دين الإسلام هو التعاليم التي جاء بها نبينا محمد ﷺ إلى الناس كافة، يطلب منهم اعتناقها، ليحصلوا على السعادة الدنيوية والأخروية. فأمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء، ورغبهم في التخلق بالصفات الحميدة، ونهاهم عن الاتصاف بضدها، فكان له أثر حميد في حياة الفرد، وحياة الأسرة، وحياة المجتمع.

أمرهم بتوحيد الإله وقصر العبادة عليه، وعدم الشرك قال تعالى ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ وقال تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وبذلك رفع شأن النفوس، وطهرها من خرافات الشرك والأوهام، فانكشف لها أن النفوس الإنسانية لا ينبغي أن تتجه إلى عبادة الجماد، أو الحيوان، وإن كانها في الخضوع للإله الخالق، المدبر للعالم دون سواه، وأمرهم بالصلاة في أوقات محدودة، كي يتوجه العبد إلى ربه يشكره على نعمته، ويطلب منه المعونة والهداية.

فأحدث ذلك أثرا حميدا في النفس هو مراقبته لله تعالى وخشيته، فلا يجرؤ على ارتكاب محرم، قال تعالى ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ وطالبهم بالصيام الذي يعود الإنسان على الصبر، وضبط النفس، وقوة الإرادة، واحتمال المشاق، وطالبهم بالزكاة، التي إذا قام الإنسان بها أحدثت فيه خلق الإحسان والرحمة بالضعفاء، وطهرت قلب الفقير من الأضغان والأحقاد على الأغنياء، وأمرهم بالحج، الذي يطوف بالبيت الحرام فيه الغني مع الفقير، فيذهب عن الغني الغرور بثروته، ويشعر الفقير بأن زخرف الحياة باطل فيرضى بنعمته، ويشعر الجميع بأن المال لا أثر له في اكتساب الفضل، وأن التفاضل إنما يكون بالتقوى، كما دل عليه قوله تعالى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

وكما أن لهذه المأمورات أثرا حميداً في النفس، كذلك للانتهاء عن المحرمات أثرا كبيرا في تهذيبها، فحرم الخمر لحفظ العقل من الفساد، والجسم من التهدم، وحرم المقامرة لحفظ كرامة الشخص، وماله، وحرم القتل وأكل أموال الناس بالباطل، والغيبة، وكل ما يؤذي الغير، ليأمن الناس من وقوع العداوة والبغضاء بينهم.

وإذا علمت على الإجمال أن للدين الإسلامي ذلك الأثر في تهذيب النفوس، فاعلم أن أثره في حياة الفرد أنه يجعله إنسانا كاملا، ويحصل له حياة طيبة، فمتى اجتنب الفرد المحرمات فلم يتناول مسكرا، ولم يفتك بعرض، ولا بنفس، تمتع بصحة الجسم، وأمن من نقل الأمراض إليه، وحقن دمه، ومن حافظ على العبادات المطلوبة منه، وأداها كما طلبت، نال الجزاء الأوفى عند ربه، وعظم أمره في نفوس الناس، ومتى عمل وسعى في طلب الرزق كما أمر الله تعالى تمتع بعزة النفس، وإذا كان رحيما بالضعفاء متواضعا، سمحا جوادا، يعطي المال مع حبه لمستحقيه، أمينا في عمله، صادقا في قوله، صابرا عند الشدائد، تمتع بمحبة الناس له، وحفظ لنفسه مكانة، يسمو بها على غيره، قال تعالى ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

وأما أثر الدين في حياة الأسرة فهو اجتماع شملها وانتظام أمرها، وبذلك تعيش في أرغد عيش وأهنئه.

أوجب الشارع على الزوج الإنفاق على زوجته وإمساكها بالمعروف، ونهاه عن مضارتها، كما أوجب عليها حقوقا لزوجها، من المحافظة على ماله، وشؤون معيشته، وعدم خيانته، وأوجب عليهما القيام بتربية الأولاد تربية حسنة، صالحة حتى ينشأوا كاملين صالحين، وأوجب على الأولاد أن يحسنوا بوالديهم.

لا شك أنه متى قام كل واحد من أفراد الأسرة بما طلب منه، وحافظ على

حقوق غيره من أفرادها، اجتمع شملها وانتظم أمرها، والمشاهدة أقوى دليل على ذلك .

وأما أثر الدينّ في حياة المجموع فهو تهذيب الأمة، ورقيها وقوتها، واتساع سلطانها، ودوام عزها .

كما أوجب الدين على كل فرد حقا لأهله، وعشيرته، أوجب عليه حقوقا لأمته، فأوجب عليه أن يحترم أعراض الناس جميعا، وأنفسهم، وأموالهم، فنهاه عن الزنا وقتل النفس، وأخذ مال الغير بطريق غير مشروع، وطلب من كل فرد أن يعاون الآخر ويساعده، وطلب من الكبير أن يرحم الصغير، ومن الصغير أن يوقر الكبير، وطلب من الولاة أن يحكموا بالعدل، وأن يقيموا الحدود التي جاء بها القرآن الكريم .

فإذا قام كل إنسان بما طلب منه في خاصته، ومع أسرته، ومع الأمة، تكون من تلك الأفراد مجموع وإن تعددت أفراده، فقد توحدت وجهته، وطريقته، فلا تحاسد، ولا تباغض، ولا ضرار، وبذلك يكون الأثر الذي أحدثه الدين في تلك الأمة من أفضل الآثار، وهو ارتقاؤها، واتساع سلطانها، ودوام عزها، فللدين الإسلامي مزايا تعود على الأفراد، والأسرة، والمجتمع بالسعادة .

ما يرتكبه بعض المسلمين

مخالفين فيه لتعاليم الدين الإسلامي ليس حجة على الدين.

نظرَ قاصرو العقول، والمكابرون، إلى الأعمال التي يأتي بها بعض معتنقي الدين الإسلامي، فرأوا منهم خلفا في الوعد ونقضا في العهود، وتفرقا في الكلمة، وتباغضا وتحاسدا، وحقدا على بعضهم، وسفك دماء معصومة، وهتك أعراض محترمة، وظلما لبعضهم، وأكل أموال بعضهم بالباطل، وكذبا في القول،

وميلا إلى البطالة والكسل، وتركا للتعاون والإحسان، وميلا إلى التعلق بالخرافات، فاعتقدوا أن دين الإسلام لا يجلب النفوس، ولا يكفل مصالح الناس، وأن ما يدعيه المسلمون من أن دين الإسلام هو دين الفطرة، وأنه مهذب للنفوس كفيل بالمصالح غير صحيح، وجعلوا عمل هذا الفريق من أهله حجة لهم، فيما يقولون، ولو تأملوا قليلا ما اجترؤا على ذلك القول فى أى دين من الأديان السماوية.

الأديان السماوية هى الشرائع التى جاءت بها الرسل إلى الأمم، بواسطة الوحى من الله تعالى، لمصلحة الأمم، وسعادتها؛ ودين الإسلام دين سماوى جاء به سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة، لتلك الغاية، وهو ما دل عليه القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فإذا أردنا معرفة قواعده وتعاليمه فلننظر فى القرآن الكريم، والسنة الصحيحة دون سواهما.

القرآن الكريم دعا الناس إلى التوحيد والترفع عن عبادة الجماد والحيوان، وكل أنواع الشرك قال تعالى ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ دعاهم إلى المحافظة على الأنفس من التعدى عليها، قال ﴿النفس بالنفس والعين بالعين﴾ ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم﴾ ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ دعاهم إلى المحافظة على حق الملكية فقال ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا﴾ ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾، دعاهم إلى المحافظة على الأعراض فقال ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهم مائة جلدة﴾ ﴿وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾، دعاهم إلى المحافظة على عقولهم فقال ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ دعاهم إلى المجاملة وحسن المعاملة، والأدب، فقال ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾، ﴿ادفع

بالتي هي أحسن﴾ ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾ ﴿لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ ، دعاهم إلى الصبر عند الشدائد فقال ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ دعاهم إلى الصدق فقال ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ نهاهم عن الكذب والنفاق فقال ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ دعاهم إلى العدل والإحسان فقال ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ دعاهم إلى التعاون على البر فقال ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ دعاهم إلى العطف على المحتاجين بالجود وبذل المال ، فقال ﴿وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا﴾ ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ دعاهم إلى العفو والصفح ، فقال ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن﴾ دعاهم إلى التواضع وتجنب الكبر والخيلاء فقال ﴿ولا تمش في الأرض مرحا﴾ ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ دعاهم إلى الرفق باليتامى وحفظ أموالهم فقال ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾

دعاهم إلى تحرير عقولهم من ربقة التقليد ، والعمل بالظن ، فقال ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ ﴿إن الظن لا يغنى من الحق شيئا﴾ دعاهم إلى الأخاء والمساواة ، وجعل كل المسلمين أمام التكاليف وأمام الحقوق سواء .

لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى فقال ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقال ﷺ «المسلم أخو المسلم» .

هذه هي قواعد الدين الإسلامي التي جاء بها القرآن الكريم ، ودلت عليها السنة ، وأدركت العقول السليمة حسنها ، ولا يشك عاقل في أن هذه التعاليم إذا

عمل الإنسان بها كفلت له السعادة فى الدارين، وهذبت نفسه، ورفعتها إلى المستوى اللائق بها، وقد جرب هذا العلاج فى صدر الإسلام فأتى بثمرته الطيبة، فإن العرب لما خضعوا للتعاليم الإسلامية وعملوا بها كما طلبت انتقلوا من فساد إلى صلاح، ومن تفرق إلى اتحاد، ومن ذل إلى عز، ومن تباغض إلى تآلف، ومن ظن إلى يقين، فاعتقت النفوس من الخضوع لغير الخالق جل وعلا، وحقنت الدماء، وحفظت الأعراض من التعدى، وتعاون أفراد المسلمين مع بعضهم، واتسعت فتوحاتهم، وخضعت لهم الأمم الأخرى، فالدين الإسلامى يسمو عن أن ينسب إليه شيء مما فعله ذلك الفريق المتسب إليه .

وكل ما فى الأمر أن بعض المنتسبين إلى الدين الإسلامى حادوا عن تعاليمه فعطلوا شعائره، وتعدوا حدوده، وأهملوا عقولهم، ووقفوا جامدين، وانغمسوا فى اللذات والشهوات، فأصيبوا بما حل بهم، سنة الله فى خلقه لا تتبدل ولا تتغير، ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ .

ولو تمسكوا بتعاليم الإسلام التى جاء بها القرآن الكريم، والسنة الصحيحة لكان حالهم كحال أسلافهم، الذين كانوا فى صدر الإسلام من عز ومنعة، واتساع سلطان، وتهذيب نفوس، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين للتمسك بدينهم حتى لا يكونوا حجة عليه .

(التقليد فى العقيدة الإسلامية وحكمه)

التقليد هو اعتقاد مضمون قول الغير اعتقادا جازما بلا دليل، فيكون معناه فى العقيدة الإسلامية بالنسبة للبارى اعتقاد وجوب القدرة أو أى صفة من صفات الكمال لله تعالى اعتقادا جازما، اعتمد فيه المعتقد على قول من قلده من غير أن يعرف الدليل .

وحكم هذا التقليد من حيث كونه كافيا فى تحقق الإيمان المطلوب شرعا أو غير كاف فى تحققه، يحتاج إلى تحرير محل النزاع .

لذلك نقول أجمع العلماء على أن من اعتقد أركان الدين وأصوله تقليدا، واعتقد مع ذلك جواز ورود شبهة على معتقده، وقال لا آمن من ورود شبهة تفسد ما اعتقدت فهو كافر، وهذا لا يدخل فى مفهوم المقلد الذى هو موضوع كلامنا، كذلك أجمعوا على أن المقلد فى الإيمان يعامل فى الدنيا معاملة المسلمين، من الدفن فى مقابرهم، والصلاة عليه وخلفه، وغير ذلك، ومحل كلامنا هو المقلد المعتقد قول الغير اعتقادا جازما ولا يجوز ورود شبهة .

هذا النوع اختلفوا فى إيمانه، هل هو معتبر فى الآخرة، أو غير معتبر قولان، ومبنى هذا الخلاف على خلاف آخر فى وجوب المعرفة والنظر، فذهب غير الجمهور من العلماء إلى أن المعرفة، وهى الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل ليست واجبة على المكلف، وكذلك النظر المؤدى إليها، بل هى مندوبة، والنظر شرط كال للإيمان لا شرط صحة، وبناء على هذا قال ذلك الفريق إن إيمان المقلد معتبر فى الآخرة، وصاحبه ليس فاسقا من هذه الجهة، لأنه وإن ترك المعرفة والنظر ليس بتارك لواجب، وإنما ترك أمرا مندوبا. ولما كان هذا القول مصادما للإجماع على وجوب المعرفة، وللإجماع أهل السنة والمعتزلة على وجوب النظر، وليس له سند يعتد به، فالواجب صناعة عدم الاشتغال بذكر شبهه التى استند إليها، وقال بعض العلماء إن هذا القول من أقوال المبتدعة .

وذهب جمهور أهل العلم من المتكلمين وغيرهم إلى وجوب المعرفة والنظر .

واستدلوا على وجوب المعرفة بما نقل من إجماع المسلمين على وجوب معرفته تعالى، وعلى وجوب النظر بما ورد من الأمر به فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة، والأمر إذا أطلق يبادر منه الوجوب، وبأن النظر مقدمة للمعرفة وهى واجبة، فتجب مقدمتها، وقد أجمع أهل السنة والمعتزلة على وجوب النظر، والخلاف بينهم إنما هو فى كون وجوبه بالشرع أو بالعقل، بعد أن اتفق الجمهور على

وجوب المعرفة والنظر ، اختلفوا هل الوجوب وجوب أصول حتى إن الإنسان إن أخل بذلك الواجب ينعدم إيمانه ، أو وجوب فروع حتى إن الإخلال بهما يكون معصية مقتضية للفسق الذى هو دون التكفير .

فذهب فريق إلى الأول وذهب فريق آخر إلى الثانى .

استدل الفريق الأول القائل بوجوب المعرفة وجوب أصول بأن حقيقة الإيمان المطلوبة هى التصديق والإذعان عن دليل ، فالدليل لابد منه فى تحقق الإيمان سواء اعتبرته شطرا من الإيمان أو شرطا فيه ، والشىء لا يتحقق بدون شرطه وشطره ، فالإيمان لا يتحقق بدون الدليل ، فإيمان المقلد ليس هو الإيمان المطلوب وحيث كانت المعرفة واجبة وجوب أصول ، بمقتضى هذا الدليل ، والنظر مقدمته فلا يكون أقل منها ، فيكون شرطا فى صحة الإيمان .

واستدل الفريق الثانى القائل بوجوبها وجوب فروع بدليلين . الأول . أن المقلد مأمور بالإيمان ، وقد بين النبى ﷺ الإيمان بقوله (أن تؤمن بالله وملائكته) الحديث . فذكر التصديق مجردا عن الدليل ، فإذا أتى به المكلف مجردا عن الدليل يكون آتيا بالإيمان المطلوب .

الثانى : أن النبى ﷺ كان يعتبر من صدقه فى جميع ما جاء به مؤمنا ولا يشتغل بتعليمه من الأدلة العقلية فى المسائل الاعتقادية مقدار ما يستدل به المستدل ويناظر به الخصوم ويدفع به الشبه .

كذلك قبل سيدنا أبو بكر الإيمان من أهل الردة ، ولم يعلمهم الأدلة التى يصيرون بها مستبصرين من طريق العقل ، كذلك قبل سيدنا عمر رضى الله عنه هو وعماله ، لما فتح سواد العراق إيمان من كان بها ، من الزط والأنباط وهما صنفان من الناس عرفوا بضعف الإدراك وبلادة الفهم ، ولم يكن لهم من دنياهم سوى الاشتغال بالزراعة ، وطرقها ، ولم يكلفهم بالاستدلال العقلى ، فعمل النبى ﷺ والخليفتين من بعده ، دليل على أن إيمان المقلد صحيح معتبر ، وإلا

بأعرضوا عن قبول إسلام الذين صدقوا من غير دليل، أو كلفوا من يعلمهم كيفية المحاجة والاستدلال، لكنه لم يقع، فدل على أن إيمان المقلد صحيح، وإن كان مقصرا في تحصيل المعرفة فيكون عاصيا بتركها، ولا يخرج من الإيمان.

وهذا الفريق القائل بوجوبها وجوب فروع اختلف في أن ذلك الوجوب يعم جميع المكلفين أو يخص من كان أهلا للنظر، فقال البعض بتعميم الوجوب على من كان أهلا ومن لم يكن أهلا، ويظهر أن صاحب هذا القول يرى وقوع التكليف بالمحال، فلذلك عمم الوجوب، وقال البعض إن الوجوب خاص بمن كان أهلا للنظر لأن التكليف يعتمد القدرة، وعدم الحرج قال تعالى ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾، وقال تعالى ﴿**ما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ فلا يصح أن يخاطب من لم يكن أهلا للنظر بالمعرفة والنظر، لعدم القدرة ولزوم الحرج.

ولقائل أن يقول إذا صح الاستدلال على عدم وجوب المعرفة وجوب أصول بقبول النبي وأصحابه الإيمان من الناس بدون مطالبتهم بالدليل، فهو لا يثبت أنها واجبة وجوب فروع، لأنها إذا وجبت وجوب فروع فالداخل في الإيمان مطالب بها، كما يطالب بالصلاة والصيام، فسكوت النبي وأصحابه عن المطالبة بها والاكتفاء بالإيمان المجرد عنها إقرار على المعصية وهو لا يجوز.

ويبعد جدا أن كل من اعتنق الإيمان في زمن النبي وأصحابه لم يكن أهلا للنظر والمعرفة.

فالظاهر أنها واجبة وجوب أصول ولكن الواجب هو الدليل الإجمالي، وهو متحقق عند جميع عوام المسلمين.

وغاية الأمر أنهم عاجزون عن التعبير عنه، وعن تفصيله، وهذا لا يضر فيحمل قبول النبي وأصحابه إيمان الناس بدون مطالبتهم بالدليل، على أنهم علموا من حالهم معرفتهم بالدليل الإجمالي، وهو كاف في الإيمان بالإجماع.

عقائد العوام وما فيها من دخل

وما طرأ عليها من تطور ضار

أجمعت الفرق الإسلامية على أن للعالم خالقا منفردا بالإيجاد، لا شريك له، قديما باقيا، مخالفا للحوادث، قادرا مريدا، عالما متكلما، حيا سميعا بصيرا، وعلى أن الإنسان لا يتحقق إيمانه إلا إذا صدق بذلك، وبأن لله رسلا وملائكة، وكتبا، أنزلها على رسله، وباليوم الآخر، فمن أنكر شيئا من ذلك فهو غير مؤمن.

مع هذا الإجماع حصل خلاف بين هذه الفرق في أمور وتفصيلات تتعلق بهذه العقائد، تكفل علماء الكلام بشرحها، وبيان كونها مؤثرة على أصل الإيمان أو غير مؤثرة مع الرد[1] عليها على الوجه الأكمل فليس من موضوع بحثنا.

وموضوع البحث هو تلك العقائد التي فشت بين العوام ولا تنتسب إلى طائفة معروفة وقد تتعداهم إلى الخواص وسأذكر منها ما وقفت عليه مع بيان تأثيره على عقيدة الإيمان أو عدم تأثيره.

(١) يعتقد بعض العامة أن الله تعالى في جهة، وقد اختار بعض العلماء عدم كفر صاحب هذه العقيدة، إذا تعسر عليه فهم نفي الجهة، واختار بعضهم التفصيل، فقال إن اعتقد أن الله تعالى في جهة العلو لم يكفر، لأن جهة العلو فيها رفعة وشرف في الجملة، وإن اعتقد جهة السفل كفر، لأن جهة السفل فيها خسة ودناءة، والله تعالى منزه عن كل نقص.

---

(١) هكذا التعبير في النسختين المطبوعتين، ويبدو أن في الكلام تحريفا والصواب أن يقال: والرد عليها على الوجه الأكمل ليس من موضوع بحثنا، لأن موضوع هذا البحث هي تلك العقائد التي فشت بين العوام ولا تنتسب إلى طائفة معروفة.

(٢) قد علم من الدين أن وحى التشريع وإنزال الأحكام التكليفية انقطع بموت النبى ﷺ، فيجب على كل مسلم أن يعتقد أنه لا نسخ، ولا تغير فى الأحكام، كلا أو بعضا، بعد موته عليه السلام، قال تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾.

التبس الأمر على بعض العامة فى هذه العقيدة فاعتقد أن جبريل عليه السلام لا ينزل على الأرض بعد موت النبى أصلا.

وجره إلى هذا الاعتقاد مارواه بعض الناس وهو (لا وحى بعدى) ففهم من هذا أنه حيث لم يكن وحى بعد النبى ﷺ، وجبريل لا ينزل إلى الأرض إلا بوحى، فجبريل لا ينزل إلى الأرض، وهذا الاعتقاد خطأ لأن ذلك الخبر السابق ذكره وصفه بعضهم بالوضع، وعلى فرض صحته فهو إنما ينفى الوحى إلى الأنبياء بشرع، ولا تلازم بين هذا وبين عدم نزول جبريل إلى الأرض فقد ينزل إلى الأرض لتبليغ خبر لا يتعلق بتشريع جديد، وقد جاء فى حديث رواه مسلم (أوحى الله تعالى إلى عيسى أنى أخرجت عبادا لى لا يد لأحد بقتالهم فحول عبادى إلى الطور) فقد تضمن هذا الحديث أن الله تعالى أوحى إلى عيسى يخبره بأنه أخرج عبادا لا قدرة لأحد على قتالهم، وهم يأجوج ومأجوج، وأمره بأن يضم عباده إلى الطور حتى لا يصيبهم، ولا يلحقهم ضرر يأجوج ومأجوج، ومعلوم أن الوحى إلى الأنبياء إنما يكون على لسان جبريل عليه السلام، ومن هذا يتبين أن جبريل ينزل بعد موت النبى إلى الأرض، وأنه يخبر بأشياء لا تتعلق بتجديد شرع أو نسخ حكم، فاعتقاد عدم نزوله مطلقا خطأ، إلا أن هذا الاعتقاد لا يؤثر فى أصل الإيمان ولا ينفى التصديق القلبى المنجى من الخلود فى النار.

(٣) قال تعالى ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ استفيد من هذه الآية أن أهل الجنة يخاطبون بهذا القول الدال على أن دار الثواب ليست كالدنيا، فالناس فى الدنيا يخافون ويحزنون لمقتضيات دعت إلى ذلك، أما فى دار

المحبوب فلا خوف من عدو، أو لحوق ضرر، ولا حزن لزوال نعمة، أو فقد ولد، أو إصابة بمرض، فالآية حينئذ تفهم أن الشخص متى دخل الجنة أمن من زوال المصائب، وأمن مكر الله، بخلاف حاله فى الدنيا وهذا المستفاد من الآية يجب على كل مسلم أن يعتقده.

طرأ على هذه العقيدة ما جعلها أوسع من ذلك، فقد اعتقد بعض العامة أن الجنة ليس فيها حزن ولا ندم على شيء (ما) أصلا، فليس فيها حزن على عدم الإكثار من عمل الخير، ولا على فعل الشر، وهذا يرده ما ورد من أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة وعرفوا ربهم معرفة زائدة على معرفتهم له (فى الدنيا ندموا على ما قصروا فى حق ربهم، وفى خدمته، كذلك يرد ما ورد من أن الزناة إذا دخلوا الجنة وتجلى لهم الحق تعالى، فانكشف لهم ما هم عليه من الخساسة والجهل بربهم، وعلموا ما هو عليه فى الجلال والعظمة، والكبرياء والقهر، والغلبة وسعة الرحمة، ندموا واستحيوا حتى يغشى عليهم مدة.

وعند ذلك يقول من عصمه الله من الزنا بعضهم لبعض، لقد خصنا ربنا فى هذا الوقت بجميع نعمه، فإذا أفاق أهل الغشية حصل لهم من كمال المعرفة ما لا يكيف، وقد ورد عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ (ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا اسم الله تعالى فيها) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (ما قعد قوم مقعدا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبى ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة). فهذه الأحاديث تدل على أن فى الجنة حزنا يحصل لبعض الناس على ما فاتهم من فعل الخير فى الدنيا فاعتقاد أنه لا حزن فى الجنة أصلا مخالف لما استفيد من هذه الأحاديث غير أن هذا الاعتقاد لا يخرج صاحبه من الإيمان.

(٤) الأولياء. الولى هو من جاهد فى الله حق جهاده حتى هداه سبله وجعله على صراطه المستقيم، ممتثلا لشرعه القويم، لذلك كانت له منزلة أرقى من منزلة غيره من العباد المؤمنين، ودون منزلة الأنبياء والمرسلين، وقد يكرمه الله

تعالى بإظهار أمر خارق للعادة تنويها بشأنه، وإظهارا لمنزلته، ومع ذلك فليس له تصرف فى العالم بإحياء وإماتة، وغير ذلك، ولا مانع من أن يتفضل الله تعالى على بعض العباد بنعمة، إكراما لهذا الولى .

هذا هو ما جاء به الدين الإسلامى فى شأن الأولياء فلم يرفعهم إلى درجة الإله أو النبى، ولم ينزل بهم إلى درجة مساواتهم بالعباد، العصاة، أو المارقين، من الدين وهذا هو الطريق الوسط الذى يجب سلوكه .

أما طريق الإفراط الذى سلكه بعض العامة فى شأن الأولياء من رفع منزلتهم إلى درجة أنهم يقصدونهم، ويطلبون منهم قضاء مصالحهم، وشفاء مرضاهم، والتصرف فى بعض المخلوقات فهو شرك، إن كانوا يسوونهم بالإله .

وأما طريق التفريط الذى سلكه بعض المتفرنجين، وهو التسوية بين الولى وبين من فرط فى دينه، فارتكب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فهو خطأ أيضا، من حيث أن فيه التسوية بين المحسن والمسيء، وهو مصادم لقوله تعالى فى حق الأولياء ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[1] فالطريق الوسط فى ذلك هو أن الولى من عباد الله الذين اشتروا الآخرة على الدنيا، والجهوا لله تعالى وحده، وقهروا أنفسهم وخضعوا لسلطان العقل والدين، فامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهى، وإن كانوا غير معصومين، هؤلاء لا شك أن لهم المنزلة العليا عند الله فى الدنيا والأخرى، فلا مانع من الإكثار من زيارتهم للاتعاظ، والتأسى بهم، فاعتقاد أى الطرفين المذكورين لا يقره الدين .

(٥) جاء الدين الإسلامى مطهرا للنفوس من العقائد الفاسدة، فأرشد الناس إلى أن مصدر النفع والضر هو الله سبحانه وتعالى، فهو النافع الضار دون

---

(١) سورة يونس الآيات ٦٢ وما بعدها.

سواء، والواجب على كل مسلم أن يعتقد ذلك، ولكن بعض العامة إذا حصل له خير أو شر عند سكنى دار، أو ملك دابة، أو اقترن بزوجة، يعتقد أن ذلك الخير أو الشر من هذه الأشياء ويعتمد فى ذلك على ظاهر ما ورد عن النبي ﷺ وهو قوله. (الشؤم فى الدار والمرأة والفرس) وهذا الاعتقاد خطأ، فإن أى واحد من هذه الأمور الثلاثة لا يصلح مصدرا لخير، أو شر، والحديث لا يصح أن يفهم على ذلك الوجه، وقد سلك العلماء فى بيان معناه طريقين:

الأول. وهو ما ارتضاه الجلال السيوطى أن هذه الأمور الثلاثة من الأسباب العادية بمعنى أن عادة الله جرت على إسداء الخير، أو إلحاق الشر، ببعض الأشخاص عند سكنى بعض الدور، أو ملك بعض الدواب، أو الاقتران ببعض النساء، فتكون هذه الأشياء أمارات على الخير أو الشر، والموجد لكل منها هو الله سبحانه وتعالى، واعتقاد أن بعض الحوادث سبب عادى لبعض الحوادث لا حظر فيه من قبل الشارع.

الطريق الثانى أن المراد من شؤم الدار وما ذكر معها هو ما بين فى حديث آخر رواه الطبرانى من حديث أسماء بنت عميس ونصه (قالت يارسول الله ما شؤم الدار قال ضيق مساحتها، وخبث جيرانها، قيل فما سوء الدابة قال: منعها ظهرها وسوء خلقها، قيل فما شؤم المرأة قال: عقم رحمها وسوء خلقها) من هذا يتبين أنه إذا كان بعض العامة يعتقد أن مصدر النفع والضر هو أحد المذكورات يكون مخالفا لما جاء به الدين الإسلامى، أما إذا اعتقد أنها أمارات وعلامات فلا ضرر فى ذلك.

(٦) اقتضت حكمة الله تعالى فى تدبير نظام ملكه أن يكون فى النوع الإنسانى الغنىُّ والفقير، وضعيف العقل وكامله، والعالم والجاهل، فإن الإنسان مدنى بطبعه يحتاج إلى الزارع والصانع والمحترف بالحرف الدنيئة كالحداد، والقصاب والخياط والحجام والحرف الرفيعة كالصائغ والتاجر وتوجيه كل واحد إلى عمل خاص، فحبب الفقير ضعيف العقل فى الحرف الدنيئة، وحبب الفقير

الكامل العقل في الحرف الشريفة، وجعل قوام الفريقين الأغنياء يتنفعون بغناهم، وينفعونهم بحرفهم، فلم يمنع واحداً نعمته، فأعطى الفقير نعمة العقل أو العلم، وأعطى الغنى الجاهل نعمة المال، وتخصيص كل واحد من هؤلاء بنعمة خاصة لمصلحة تعود على أفراد النوع .

ولو أعطى العاقل العالم المال، وحرم الجاهل ضعيف العقل من المال، لكان ظالما .

فالواجب على كل مسلم اعتقاد أن توزيع النعم على الوجه الذى ظهرت به فى الخارج تابع للمصالح، وليس من قبيل وضع الشيء فى غير محله، وقد طرأ على هذه العقيدة أن بعض العامة والملحدين يعتقد أن صاحب العلم أو العقل أحق بالمال من الجاهل، وغفل عن كون العقل أو العلم، من أنواع النعم الجليلة، وهذا فى المعنى اعتراض على الله فى فعله فلا يسوغ لمسلم أن يعتقد ذلك .

(٧) جاء فى قصة المعراج أن النبى ﷺ لما أراد العروج إلى السماء نصب له معراج، فعرج عليه إلى السماء، وهو الذى اعتمده الكثيرون من الكاتبين فى هذا الموضوع، فيجب الوقوف عنده، وقد اشتهر عند بعض العامة أن النبى لما أراد العروج صعد على صخرة بيت المقدس، وركب البراق فمالت الصخرة، وارتفعت لتلحقه، فأمسكتها الملائكة، ففى طرف منها أثر قدمه الشريف، وفى الطرف الآخر أثر أصابع الملائكة عليهم السلام، فهى واقعة فى الهواء قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها إلا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض سبحانه وتعالى .

وهذه أكذوبة لا يصلح لمسلم أن يعتقدها .

وللعوام بدع كثيرة فى العقائد وغيرها تعرض لسردها كثير من العلماء فى مؤلفات خصصت لذلك كالاعتصام للشاطبى، والمدخل لابن الحاج .

الشبه المتعلقة بالجهاد

والإرث وتعدد الزوجات والطلاق

الجهاد في الإسلام

بعث الله نبيه سيدنا محمدا ﷺ إلى الناس كافة لإخراجهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الهداية، وتكليفهم بما يوافق الفطرة، فرآهم خاضعين لعادات مألوفة، وأخلاق موروثة، فنظر في هذه العوائد نظرة المرشد الحكيم، الرؤوف الرحيم، فما كان منها ضروريا لا يمكن لطبيعة الإنسان التخلي عنه أقرهم عليه، ونظمه، وشرع له قيودا، تجعله مباحا، لا محظورا، وما كان غير ضروري ويمكن التخلي عنه، ولكن حبه تمكن في النفوس، وكانت المصلحة في تركه تدرج في تحريمه، شيئا فشيئا، حتى صار الإقلاع عنه أمرا ميسورا على النفس، كشرب الخمر، وما كان غير ضروري ولم يتمكن حبه من النفوس، إن كان في فعله مصلحة أقرهم عليه، وإن كان فيه مفسدة نهى عنه دفعة واحدة، كسلب الأموال، والتعدى على الأعراض، ومن النوع الأول الحرب فإن التنازع بين الأحياء في مرافق المعيشة ووسائل الحصول على المال غريزة من غرائز الحياة، وكون التنازع يؤدي إلى شدة العداوة، والاقتتال بين الجماعات والأقوال، ضرورة من ضروريات الاجتماع إذ لا يمكن للنوع الإنساني التخلي عن التنازع والتقاتل والتعادي .

غير أن ذلك التقاتل والتعادي، إن كان الباعث عليه الوصول إلى شهوة فاسدة، وسلطة ظالمة، واستعباد للضعفاء، كان ضرره كبيرا، وشره مستطيرا، ففيه تبذير المال، وسفك الدماء، وترميل النساء، وتيتيم الأطفال، وتخريب الديار وتنمية الضغائن والأحقاد، لذلك حظر الدين الإسلامي هذا النوع من الجهاد.

وإن كان الباعث عليه نصرة الحق، وإزالة المفاسد، وتحصيل المصالح، التي تفيد النوع البشري كان محمود الأثر .

فتآلف النفوس بعد التباغض، وزوال الأحقاد، وتعاون الأفراد والجماعات، وصلات العهود والمواثيق .

هذا النوع أباحه الدين الإسلامي، ووضع له قيوداً ونظاماً لا تتحقق إباحته إلا إذا لوحظت .

غفل بعض الناس عن هذه القواعد والنظم، التي قيد الدين الإسلامي إباحة الجهاد بها، أو عاند وكابر، ونظر إلى تلك الغزوات المتكررة، التي حصلت من النبي وأصحابه، وإلى ظواهر آيات القتال، فرمى الدين الإسلامي بأنه لم ينتشر بهذه السرعة في تلك المدة الوجيزة، وهي مدة الرسالة، ومدة الخلفاء الراشدين إلا بواسطة السيف، وإكراه الناس على الدخول فيه، بل زعم أن الدين الإسلامي يوجب على أهله قتال من خالفهم في عقيدتهم، وفتح بلادهم، والاستيلاء عليهم .

وإن المسلمين فتحوا البلاد والقرآن بإحدى اليدين، والسيف بالأخرى، يعرضون القرآن على المغلوب ليصدق به، فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته، ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ . ولو تأمل ذلك المعترض قليلا الآيات التي وردت في القتال ما وسعه إلا الجزم بأن القتال الذي جاء به الإسلام كان دفاعا عن الأنفس، والأموال، والعقيدة، فهو لنصرة الحق ليس إلا، وإني أبين لك معاني الآيات التي وردت في القرآن على طريق الإجمال؛ وبذلك يتبين لك خطأ هذا الاعتقاد وأن المقتضى لانتشار الإسلام من سهولة تكاليفه، وكفالته بمصالح الناس .

جاء في سورة الحج آية هي أول ما نزل في القتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾

إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[1] يستفاد من هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين بسبب ظلم الكفار لهم، وإخراجهم من ديارهم بغير حق، ولا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله، فكان القتال من المسلمين دفعا لظلم الكفار لهم، وتعديهم عليهم، وجاء في سورة البقرة **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾**[2] أفادت هذه الآيات أن الله تعالى أمر المسلمين بقتال طائفة مخصوصة من الكفار، وهي التي تقاتلهم وتخرجهم من ديارهم، وتفتنهم في دينهم، بإلحاق الأذى، والظلم بمن آمن، وجعلت لهذا القتال غاية، وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حرا في دينه يدين به الله، لا خوفا من أذى يلحقه، ولا طمعا في متاع قليل يناله .

كذلك بينت الآية أن الفتنة «أي إلحاق الأذى والظلم بالمؤمن ومحاربة العقيدة» أشد من القتل، لأنها اعتداء على العقيدة، وذلك شر ما يكون من بني الإنسان، كذلك نهت عن الاعتداء، وأفادت أن الله يكره المعتدين، وهم الذين يؤذون غيرهم بالشر، وإن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي أن يتجاوز به ما فعله البادىء بالعدوان **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** .

---

(١) سورة الحج الآية ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة البقرة الآيات ١٩٠ وما بعدها .

وجاء في سورة النساء ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾[1] أفادتنا هذه الآية أن للقتال سببين :

أحدهما سبيل الله وهو أن لا تكون فتنة فلا يحصل اعتداء على العقيدة التي هي حق الله وسبب للسعادة الدنيوية والأخروية .

وثانيهما سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة، وحيل بينهم وبين الهجرة، فعذبتهم قريش وفتنتهم، حتى تضرعوا إلى الله طالبين الخلاص، فهؤلاء لابد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يعتقدون .

وجاء في سورة النساء في شأن قوم من المشركين لم يحبوا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانبا ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله عليكم سبيلا﴾ نهى الله المسلمين عن مقاتلة هذا الفريق، بشرط أن يكون ميلهم إلى المسالمة حقيقيا لا ذبذبة، فإن لم يكونوا كذلك، فقد بين حكمهم في قوله تعالى ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾[2] فقد استفيد منها أن الفريق الذي لم يكن مخلصا في مسالمته للمسلمين، ولا يزداد إلا بغضا لهم ورغبة في قتالهم، قد جعل الله للمسلمين عليه وأذنهم بمقاتلته حتى يؤمنوا شره .

وجاء في سورة الأنفال ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ ويستفاد منها أن القتال يستمر مع المخالفين إلى أن ينقطع أذاهم عن

---

(١) سورة النساء، الآية ٧٥.

(٢) سورة النساء، الآية ٩١.

المسلمين وظلمهم، وبذلك يأمنون على أنفسهم، ويكون اعتناق الدين لله، لا خوفا من أذى ولا طمعا فى متاع، وقال تعالى فى سورة الأنفال ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ أفادت هذه الآية أن النبى مأمور بالجنوح إلى المسالمة متى جنح أعداؤه لها، لأن الغرض هو تأمين الدعوة، والأمن من الفتنة، والسلام كفيل بهما، ولو كان الجانحون إلى المسالمة يريدون المخادعة، وجاء فى سورة التوبة ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ بينت هذه الآية سببا من أسباب القتال وهو نكث العهود، والعود إلى الطعن فى الدين بالفتنة، وبينت للمؤمنين أن العدو هو الذى بدأ بالقتال فهو المعتدى أولا، والناكث فى عهده آخرا، وأنتم أيها المؤمنون قد أبيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم .

جاء وقت اتفقت فيه اليهود مع المنافقين وقريش على إيذاء المسلمين، وأخافوا المسلمين فى غزوة الأحزاب، بعد أن كان بينهم وبين النبى عهود مكتوبة، فنقضوها، وأخلوا بما تقضى به تلك العهود فأمر الله المسلمين بقتالهم، وهذا ما استفيد من قوله تعالى فى سورة التوبة ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [1] وربما تمسك المخالفون بهذه الآية وقالوا إن القتال قد كان لأجل الوصول إلى الجزية لا لنصرة الحق، ولكنا نقول له إن معنى الآية قاتلوا أهل الكتاب الموصوفين بما ذكر فى الآية عند وجود ما يقتضى وجوب القتال، كالاعتداء عليكم، أو على بلادكم، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، حتى تأمنوا عداوتهم بإعطائكم الجزية فى الحالين اللذين

يبدت بهما أحدهما راجع إليهم والآخر راجع إليكم أما الراجع إليهم فهو أن تكون صادرة عن يد أى قدرة وسعة فلا يظلمون، ولا يرهقون، وأما الراجع إليكم فهو صغارهم: أى كسر شوكتهم وخضوعهم لسيادتكم وحكمكم وبهذا تيسر الطريق إلى اهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وإنصافكم وابتعادكم عن الظلم .

وهذه الجزية فرضها الإسلام عليهم جزاء على ما التزمه المسلمون من الدفاع عن أهل الذمة، وإعانة الجند القائم بمنع الاعتداء عليهم، ويشهد بأن الجزية فرضها الإسلام جزاء على ما ذكر ما كتبه خالد بن الوليد (لصلوبا بن نسطونا) حينما دخل الفرات وهو :

(هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا) ولما فتح الصحابة الشام وضعوا الجزية على أهل حمص وأخذوها منهم، ولكنهم وصل إليهم أمر أبى عبيدة بحضور وقعة اليرموك وترك حمص) ردوا إلى أهل حمص ما أخذوه من الجزية، وقالوا إنا أخذناها جزاء المنعة وحيث إننا خرجنا فقد أصبحنا عاجزين عما التزمنا به فوجب ردها، فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم ودعوا لهم بالنصر .

كان أمر القتال أولا قاصرا على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحدت معهم قبائل العرب قال الله تعالى ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وقد أفادت هذه الآية أن المقتضى لمقاتلة الكفار هو اتحادهم وائتمارهم ضد المسلمين، ووقوفهم فى سبيل الدعوة، هذا ما ورد فى كتاب الله تعالى متعلقا بالقتال، وكله ناطق بأن القتال لم يشرع إلا دفاعا عن الأنفس، وتأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها، كما يرى أن النبى نهى عن الاعتداء، وأنه يجب عليه أن يسالم من سالمه ويوضح هذا قوله تعالى ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله

يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

والمتتبع لسيرة النبى ﷺ وأصحابه والغزوات التى وقعت وما حصل فيها، يتضح له أن الحامل عليها ليس الإكراه على الدين ، والحصول على الغنائم ، ورأى تمسك المعاندون بظاهر قوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى) وفهم منه أن الباعث على القتال هو حمل الناس على الإسلام وإكراههم على الدخول فيه ، هو غلط ناشىء من عدم فهم الحديث على الوجه الصحيح .

فإن الحديث لم يتعرض للسبب الباعث على القتال ، بل سكت عنه اعتمادا على ما علم من القرآن الكريم ، من أن السبب الباعث على القتال هو الدفاع عن النفس ، والمال ، وتأمين الدعوة ، وإنما تعرض الحديث لغايته بدليل التعبير بلفظ (حتى) فإنها فى الحديث أفادت أن ما بعدها غاية لما قبلها ، ولا شك أن القتال الذى يكون للدفاع عن النفس والمال وتأمين الدعوة ينتهى بالمعاهدة ، أو الدخول فى الدين والحديث ذكر نوعا منه وهو الدخول فى الدين ، ويمكن أن يقال فى الحديث إن لفظ (الناس) عام مخصوص ، فالمراد منه الوثنى من غير أهل الكتب وهذا الفريق لا يقبل منه إلا الإسلام لأنه لا يخضع للجزية .

(الميراث فى الإسلام)

يزعم بعض الناس أن الطريقة التى جاء بها الإسلام لنظام التوريث غير عادلة بالنسبة للمرأة حيث جعل لها نصف ما للرجل مع أنهما متساويان فى محبة الوالد ، ودرجة نسبتهما إلى الأبوين ، وفضلا عن ذلك فالمرأة ضعيفة عن الكسب وموارد كسبها أقل ، وحاجاتها أكثر ، فالواجب أن يكون نصيبها مساويا لنصيب الرجل إن لم يكن أزيد — ويرى بعض علماء القانون من المسيحيين

زيادة على ما ذكر حرمان الأصول مع وجود الفروع، لأن ميل المورث إلى الفروع أقوى من ميله إلى الأصول، وحاجة الفروع إلى المال أكثر .

ويحسن قبل الكلام على هذه الشبه بيان حالة المرأة في الميراث قبل الإسلام، وحالتها بعد الإسلام حتى يتضح لك أن الإسلام رفع من شأن المرأة ولم يظلمها .

الميراث عند قدماء الرومان واليونان

كان الميراث عند هاتين الأمتين مرتبطاً بصلاحية الوارث لقيامه مقام المورث في الحروب وشئون الأسرة .

وللمورث أن يختار في حياته من يقوم مقامه في الحقوق القومية وفي الرياسة على أسرته، وفي مباشرة الحروب، سواء كان من أبنائه أو أقاربه، أو الأجانب، ولما كان هذا المعنى لا يتحقق إلا في الذكر خصوا الميراث بالذكور وحرموا الإناث .

وقبيل ظهور الإسلام تغيرت تلك الطريقة عند الرومان واعتبروا المقتضى للميراث هو القرابة، بلا فرق بين الذكر والأنثى في الاستحقاق، ومقدار النصيب وجعلوا الميراث أولا للفروع، فإذا انعدمت، فالأصول، فإذا انعدمت فالأخوة الأشقاء ونسلهم، فإذا انعدم الإخوة الأشقاء ونسلهم، فالأخوات الشقيقات ونسلهن .

ومن هذا يتبين أن المرأة لم يكن لها نصيب في الميراث عند هاتين الأمتين أولا، ولها نصيب مساو للذكر إن كانت فرعا أو أصلا عند متأخري الرومان .

الميراث عند الأمم الشرقية القديمة

الميراث عند هؤلاء الأمم عبارة عن حلول الولد الذكر البكرى محل أبيه، ولو لم يكن أهلا للقيام بشئون الأسرة، فإذا لم يوجد البكرى قام مقامه أرشد الذكور من الأولاد، ثم الإخوة، ثم الأعمام، فليس للمرأة عندهم نصيب فى الميراث.

الميراث عند قدماء المصريين

كانت الأراضى فى عهد الفراعنة مملوكة ملك رقبة للحكومة، وليس للأمة فيها إلا حق الانتفاع، وكانت شئون الزراعة تشترك فيها الإناث مع الذكور، ولا يختص الذكر إلا بشئون رياسة الأسرة لهذا كان الميراث عندهم يشترك فيه الذكور والإناث بالتسوية، فلا يفضل الذكر الأنثى، فالسبب عندهم فى الميراث هو القرابة فقط.

الميراث عند اليهود

المعروف عندهم أن السبب فى الميراث هو القرابة. ولكنهم يقدمون بعض الأقارب على البعض، ويفضلونهم على بعضهم.

فإذا مات الميت عن ولد ذكر وأنثى، اختص الذكر بالميراث، ولا شىء للأنثى، وإن تعددت الأولاد الذكور أخذ الولد البكرى نصيب اثنين، ولا فرق عندهم بين أن يكون الولد من نكاح صحيح أو غير صحيح، وإذا لم يكن للميت ولد ذكر، وله ولد ولد كان الميراث له، ولو كان للميت بنت من الصلب، فإذا لم يكن له ولد فميراثه لبنته ثم لأولاد بنته.

الميراث عند العرب قبل الإسلام

كان السبب المقتضى للتوريث عندهم هو القرابة مع صلاحية الوارث للدفاع عن الأسرة والقبيلة، ولهذا كانوا يحصرون الميراث بالذكور، وليس للنساء مطلقاً سواء كن بنات أو زوجات، أو أمهات حق في الميراث.

رأى بعض المسيحيين في الميراث

يرى الفيلسوف بنتام أحد علماء القانون أن جعل السبب المقتضى للميراث هو القرابة وحدها لا يؤدى إلى الغرض المقصود من التوريث، وهو المحافظة على الجيل الجديد، والذى يؤدى إليه هو القرابة مع الميل والحب بين المورث والوارث، وبنى على ذلك تسوية الإناث بالذكور، وحرمان الأصول مع وجود الفروع لكون الميل إلى الفروع أقوى من الميل إلى الأصول.

الميراث في الشريعة الإسلامية

جعلت الشريعة الإسلامية سبب الميراث أحد أمور ثلاثة: القرابة والزوجية الصحيحة، والولاء، وفضلت الذكر على الأنثى، فجعلت نصيب الذكر من الأولاد أو الإخوة ضعف نصيب الأنثى من [illegible] نصيب الزوج ضعف نصيب الزوجة، وأعطت [illegible] الحواشى على تفضيل [illegible] في تحديد الميراث.

ومن هذا البيان يتضح أن الخلاف في الميراث بين الشريعة الإسلامية [illegible] في موضعين:

الأول: سبب التوريث.

والثانى تسوية الإناث بالذكور أو حرمانهن أو نقص نصيبهن عن نصيب الذكور، وإعطاء الأصول مع وجود الفروع، أو حرمانهم .

فالأمة الرومانية قديما والأمة اليونانية جعلتا سبب الميراث صلاحية الوارث القيام بشئون الأسرة، وحقوق الأمة، ولو كان أجنبيا، والأمم الشرقية قديما والعرب قبل الإسلام جعلوا سبب الميراث صلاحية الوارث لما ذكر مع القرابة. وكلهم اتفقوا على حرمان الأنثى من الميراث، وقدماء المصريين، ومتأخرو الرومان، واليهود، جعلوا سبب الميراث القرابة فقط، غير أن قدماء المصريين ومتأخرى الرومان سووا بين الذكر والأنثى فى الاستحقاق، ومقدار النصيب، واليهود حرموا الأنثى مع وجود الولد الذكر، أو ولد الولد الذكر، والفيلسوف بيناد جعل السبب القرابة مع الميل والمحبة، وسوى بين الذكر والأنثى من الأولاد، وحرم الأصول مع وجود الفروع .

أما الشريعة الإسلامية فقد جعلت سبب الميراث القرابة، أو الزوجية، أو الولاء، وفضلت الذكر على الأنثى فى النصيب، وأعطت الأصل مع وجود الفروع .

ولما كان الخلاف فى الموضع الثانى متفرعا على الخلاف فى الموضع الأول وهو سبب الميراث، وجب أن نتكلم عليه أولا فنقول: الأمم التى أهملت القرابة وجعلت سبب الميراث صلاحية الوارث للقيام بشئون الأسرة وشن الغارات والحروب، قد حادت عن طريق الجادة، وجرت على خلاف ما تقتضيه طبيعة النوع البشرى، فإن المعقول أن الإنسان إنما يجد ويسعى فى تحصيل المال فى حياته وتنميته ليتمتع به مع أولاده، وأقاربه، ليكون لأولاده شيئا يتمتعون به من بعده .

وكثيرا ما نرى الإنسان يؤثر أولاده على نفسه، وليس لذلك داع إلا رابطة القرابة التى بينه وبينهم .

فليس من الحكمة ولا من العدل أن نحرم أولاده أو أقاربه بعد وفاته من ماله لينتفع به الأجانب .

ولذلك جاءت الشرائع السماوية، وجرت بعض الشرائع الوضعية، على خلاف ما رأته هذه الأمم لمنابذته لما يستحسنه العقل السليم .

وأما الأمم التى اعتبرت مجموع القرابة والصلاحية للقيام بشئون الأسرة والحروب، فقد ظلمت المرأة ظلما فاحشا، وجعلتها لا تنتسب إلى المورث، وليس لها به صلة، كما ظلمت ابن المتوفى إذا كان قاصرا، فإنها فى تلك الحالة تقدم عليه الأخ، أو ابن العم، إذا كان رشيدا لصلاحيته للحروب دون الابن القاصر، وفضلا عن ذلك فهو مؤد إلى اعتبار القرابة البعيدة وإهمال القرابة القريبة، وهذا لا يقره الشرع ولا يستحسنه العقل .

وأما الأمم التى جعلت السبب القرابة فإن كانت تجعل الزوجية أيضا سببا للميراث فقد اتفقت مع الشريعة الإسلامية فى ذلك، وإن كانت لا تجعلها سببا فقد أغفلت رابطة من الروابط القوية، التى جعلت كلا من الزوجين لباسا للآخر، ويعتبر منفعة الآخر منفعة له وضرره شررا عائدا عليه، حتى إنه يتصرف فى مال الآخر كما يتصرف فى ماله .

وحيث كانت هذه الرابطة على هذا الوجه، فلا يصح إغفالها وعدم جعلها سببا من أسباب الميراث .

وأما الذى جعل السبب القرابة مع الميل والمحبة فقد خالف الطريق الذى يجب أن يتبع فى أسباب الأشياء وعلاماتها، فإن المعروف أن الأسباب والعلامات إنما تكون من الأمور الظاهرة التى لا تخفى، وبخاصة إذا ارتبطت بها حقوق وكانت مثارا لمناقشات ومنازعات، كالميراث، والميل والمحبة من الأمور الخفية، لأنها أمر باطنى فلا يصح ارتباط الميراث بها .

ومع ذلك فقد تقدم[1] فى بعض الأحيان بين الأب وابنه كما تشهد بذلك الحوادث التى تقع كثيراً .

لهذا لا يصح التعويل على المحبة ، والواجب أن يكون السبب هو القرابة لأنها يمكن الوقوف عليها .

أما الشريعة الإسلامية فقد جعلت للميراث أسبابا ثلاثة ، إذا تحقق واحد منها وانتفى المانع استحق الوارث من المورث نصيبه ، ولاحظت فى ذلك ما بين المورث والوارث من الروابط ، فرأت أن بين الشخص وفروعه ، وأصوله ، وحواشيه وبين الزوج وزوجه ، وبين السيد ومعتوقه ، صلة وائتلافا ، وتعاونا ورفقا ، واختلاطا فى شئون كثيرة ، واهتماما بمصالح بعضهم ، على وجه أقوى وأكمل مما بينهم وبين الأجانب ، فلم تهمل هذه الرابطة ، بل اعتبرتها وجعلتها سببا للميراث ، غير أن هذه الشئون لم تكن بمنزلة واحدة فى هذه الأصناف الثلاثة .

فالرابطة بين الأقارب بمقتضى أصل الخلقة فكانت أقوى من غيرها ، والرابطة بين الزوجين بمقتضى عقد النكاح الذى كان بصنع الزوجين ، إلا أنها تقوت بسبب النسل الذى يتولد بينهما وينتسب إلى كل منهما ، فكانت أقوى من الرابطة بين السيد ومعتوقه .

لهذا جعلت الابن أكثر من نصيب الزوج إذا اجتمعا ، ونصيب البنت أكثر من نصيب الزوجة عند الاجتماع ، كما أنها جعلت إرث السيد من معتوقه إذا انعدمت أصحاب الفروض والعصبيات النسبية لذلك المعتوق .

ومن ذلك يتضح أن ما جرت عليه الشريعة الإسلامية فى سبب الميراث جاء موافقا لما استحسنته العقول السليمة ، وتقتضيه وجوه الارتباط بين الوارث والمورث .

أما الموضع الثاني فينحصر في قطعتين: الأول حالة الأنثى مع أخيها الذكر والثانية حالة الأصول مع الفروع.

أما الأولى فبعض الأمم جرى فيها على حرمان الأنثى من الميراث، والبعض جرى على تسويتها بالذكر في الميراث.

والشريعة الإسلامية جرت على أن لها نصف ما للذكر.

وإذا قارنت بين هذه الطرق الثلاثة اتضح لك أن الشريعة الإسلامية سلكت الطريقة المثلى: طريقة العدل والإنصاف فليس فيها ظلم للذكر أو الأنثى.

وبيان ذلك: أن الأمم التي حرمت الأنثى من الميراث جعلتها كالأجنبية من المورث، مع كونها مساوية للذكر في الانتساب إلى المورث، ودرجة القرابة، ولا ذنب لها إلا أنها خلقت أنثى، وهذا مناف للعدالة بل هو عين الظلم.

وأما الأمم التي جعلت الأنثى مثل الذكر في الميراث ورمت الإسلام بأنه ظلم الأنثى حيث لم يسوها بالرجل، فقد ظلمت الرجل وحابتْ الأنثى كثيرا، فإنا إذا فرضنا أن المورث ترك ألفا من الجنيهات، وخلف ذكرا وأنثى، وقسم ذلك المقدار بينهما نصفين، وتزوج الرجل، وتزوجت الأنثى، فالمطلوب من الرجل في تلك الحالة مهر امرأته ونفقتها، ونفقة أولاده، ونفقة نفسه، أما الأنثى فنفقتها ونفقة أولادها على زوجها، وحينئذ إن لم ينفذ مال ذلك الرجل فلا أقل من أن ينقص، في حين أن مال الأنثى لم ينقص، فكان نصيب الرجل موزعا على زوجه وولده دون نصيب الأنثى التي نفقتها على زوجها، ولو كانت غنية، فالتسوية إذاً بينهما في الميراث ظلم للرجل، بل ربما يقال حيث كان حال الرجل وحال الأنثى كما ذكر فالملائق حرمان الأنثى.

ولكن الشريعة الإسلامية لاحظت أمرا آخر هو أن المرأة قد لا يكون لها زوج يقوم بالإنفاق عليها، فيجب أن يكون لها مال احتياطي، تنتفع به عند الحاجة، ويكفي في هذا أن يكون نصف ما يأخذه الرجل.

أما ميراث الأصول مع وجود الفروع، فقد جرى بعض الناس على حرمانهم محتجا في ذلك بأن حاجة الفروع إلى المال أشد، والميل إليهم أكثر، فهم أحق بالمال من الأصول، أما الشريعة الإسلامية فقد جعلت لهم نصيبا أقل من نصيب الفروع كما هو مبين في كتب الميراث، وإذا قارنا بين ما جرت عليه الشريعة الإسلامية وما جرى عليه غيرها نرى أن الشريعة الإسلامية قد حافظت على الرابطة التي بين المورث وأصوله، ورتبت عليها ما يناسبها من الثمرات، التي منها الميراث، كما أنها لاحظت أن حاجة الفروع إلى المال أشد، فلم تسو بينهم وبين الأصول في المقدار المستحق، وما استند إليه بعض الناس من كون محبة الفرع أقوى، وشدة احتياجه إلى المال فإنه لا ينتج حرمان الأصول، وإنما ينتج عدم مساواتهم للفروع في مقدار النصيب، وقد جرت الشريعة الإسلامية على ذلك ومن هنا يتبين أن الشريعة الإسلامية جرت في هاتين النقطتين على طريق وسط لا إفراط فيه ولا تفريط .

الشبه المتعلقة بتعدد الزوجات والطلاق

شاهد بعض الناس معاملة من المسلمين المتزوجين بأكثر من واحدة لنسائهم فرأى من الرجال إعوجاجاً، وسوءاً في المعاملة تحت تأثير سلطان الشهوة، والميل، وإهمالا لواجب الزوجية، فقد رأى من الرجال من يميل إلى إحدى نسائه فيقبل عليها، ويبغض الأخرى فيعرض عنها، ومنهم من يوسع في الإنفاق على بعض الزوجات دون بعض، وقد تصل التوسعة إلى حد الإسراف في حين أن الأخرى لا تصل منه على ما يسد رمقها إلا بمشقة، أو بواسطة رفع أمرها إلى الحاكم، وقد يضارها بعد ذلك .

ومن الرجال من يسوي بين نسائه في القسم والمبيت، ومنهم من يقدم على التزوج بأربع في حين أنه لا يقدر على الإنفاق على واحدة، ومن يجمع أحوال

المتزوجين بأكثر من واحدة يشاهد مضار كثيرة تلحق الزوجة من جراء ذلك التعدد .

كذلك يشاهد تباغض وتنافر وتقاطع ، وسعي بالنميمة بين الزوجات في حق بعضهن ، وأفظع من هذا ما يشاهد من أن كل زوجة تزرع في روح ولدها كراهته لإخوته ، وأخواته من غيرها ، بل ربما دفعته إلى كراهة أبيه ، ونتيجة هذا خراب في البيوت وفساد كبير .

هذا الفريق الذي شاهد ما يقع من الرجال المتزوجين بأكثر من واحدة ومن الزوجات التي تكون تحت رجل واحد ، ومن أولاد هؤلاء الزوجات وصم الإسلام بأنه دين لا يصلح لحفظ نظام الأفراد والجماعات ، لأنه هو الذي أباح تعدد الزوجات الذي أدى إلى مفاسد كثيرة قد سمعت شيئا منها .

وكذلك أباح الإسلام دون غيره من الأديان للرجل أن يطلق زوجه وهي في عقر دارها لا تعلم شيئا عن ذلك الطلاق ، ولم تشذ في معاملتها لزوجها ، ولم تقصر في تدبير منزلها ، ورتب على ذلك الطلاق انقطاع العلائق بين الزوجين ، وفي هذا من الظلم للمرأة ما لا يخفى .

ولقد كان لهذه الشبه تأثير سيء في بعض النفوس ، حتى اعتقد أن الإسلام بإباحته لتعدد الزوجات ، ولإيقاع الطلاق قد أباح للرجل أن يعامل المرأة تلك المعاملة القاسية ، التي لا يقرها شرع ولا يستحسنها عقل ، فاستباح لنفسه أن يصم الإسلام بما هو بريء منه .

وكان الواجب على ذلك الناقد الذي جعل عمل الأفراد حجة على الدين ، أن يبحث أولا عن حالة المرأة قبل الإسلام ، وحالتها بعد الإسلام ، وعما جاء به الإسلام من تعدد الزوجات ، وإباحة الطلاق ، حتى إذا ما حكم يكون حكمه صحيحا مسلما ، فإنه لم يقل أحد إن قواعد الأديان يدل عليها عمل الأفراد ، وإلى أذكر لك صورة تعرف منها حال المرأة قبل الإسلام ، وما لها بعد مجيء

الإسلام، ومتى أباح الإسلام للرجل أن يعدد الزوجات، وما أوجبه عليه فى هذه الحالة، وهى أباح له الطلاق، وبعد ذلك أترك لك الحكم فى أن أىَّ الأديان أعطى المرأة حظها من الحقوق والمزايا .

حال المرأة قبل الإسلام وحالها بعد الإسلام

طرق باب الكتابة فى هذا الموضوع كثير من أفاضل الكتاب — وممن عنى به ووضع كتاباً خاصا السيد محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار، فقال لقد كان جميع نساء البشر مرهقات بظلم الرجال، فى البدو والحضر، لا فرق فيه بين الأميين والمتعلمين، ولا بين الوثنيين والكتابيين، كانت المرأة تشترى وتباع، كالبهيمة والمتاع، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تورث ولا ترث، وكانت تملك ولا تملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق فى التصرف بمالها من دونها، وقد اختلف الرجال فى بعض البلاد فى كونها إنسانا لها نفس وروح خالدة كالرجل، أم لا، ولا كونها تلقن الدين، وتصح منها العبادة أم لا، وفى كونها تدخل الجنة أو الملكوت أم لا، فقرر أحد المجامع فى روحية أنها حيوان نجس، لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكمم فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك، والكلام، لأنها أحبولة الشيطان، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق فى قتل ابنته، بل فى وأدها (دفنها حية) أيضا، وكان منهم من يرى أن لا قصاص على الرجل فى قتل المرأة ولا دية .

وكان أهم إنصاف للمرأة منحها إياه الشعب الفرنسى فى أوروبا بعد ميلاد محمد ﷺ بخمس عشرة سنة أن قرروا بعد خلاف وجدال أن المرأة إنسان إلا أنها خلقت لخدمة الرجل ا هـ.

هذا حال المرأة قبل الإسلام ولما بعث الله تعالى نبيه محمدا ﷺ إلى الناس كافة، لإرشادهم إلى طرق الخير والسعادة وإصلاح حالهم، كان للنساء حظ وافر من هذا الإصلاح لم يسبق الإسلام به دين .

جاء الإسلام ينادى بأن النساء والرجال من جنس واحد، لا قوام للإنسانية إلا بهما، قال تعالى ﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1] وقال ﷺ (إنما النساء شقائق الرجال) .

كذلك اعتبر الإيمان من النساء ورتب عليه جزاءه كالرجال، قال تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾[2] الآية وقال تعالى ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[3]

كذلك جعل المرأة مثل الرجل فى الشعائر الدينية قال تعالى ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾[4]

كذلك أمر الله نبيه ﷺ بأن يبايع النساء إذا رغبن مبايعته قال تعالى ﴿ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .
(٢) سورة الممتحنة الآية ١٠ .
(٣) سورة التوبة الآية ٧٢ .
(٤) سورة التوبة الآية ٧١ .

ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾(١) فساواهن بالرجال فى ذلك، فقد روى عبادة بن الصامت قال كنا مع رسول الله ﷺ فى مجلس فقال (تبايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم)(٢) الحديث .

كذلك جاء الإسلام مبطلا ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من الميراث، وقصره على الرجال، قال تعالى **﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا﴾**(٣) .

كذلك فرض على الرجل إذا أراد الاقتران بامرأة أن يلتزم لها بمهر، لا تبرأ ذمته منه إلا بدفعه إليها، أو إبرائها له منه، كما أنه أعطى المرأة حق التصرف فى ملكها، من بيع وشراء، ورهن وهبة، وغير ذلك، واعتبر عقودها صحيحة، وجرى بعض الأئمة على أن المرأة متى كانت عاقلة بالغة كان لها الحق فى أن تزوج نفسها بكرا كانت أو ثيبا .

كذلك سوى بين المرأة والرجل فى جميع الحقوق، ما عدا أمرا واحدا قال تعالى **﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾** وتلك الدرجة هى درجة الرياسة والقيام على المصالح، وقد بينت فى قوله تعالى **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾** .

هذا شأن المرأة وحالها بعد الإسلام، ولا شك أنك إذا قارنت بين الحالين

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١٢ .
(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الإيمان .
(٣) سورة النساء الآية ٧ .

قبل الإسلام وبعده، جزمت بأن الإسلام رفع من شأن المرأة، وأعطاها من الحقوق والمزايا ما لم يسمح به أى دين من الأديان .

تعدد الزوجات

يزعم كثير من الناس أن الدين الإسلامى هو الذى أباح تعدد الزوجات ، وأن ذلك التعدد لم يكن معروفا قبله .

ولو نظر هؤلاء نظرة إنصاف ما ساغ لهم أن يقولوا : إن الإسلام هو الذى أباح تعدد الزوجات دون غيره من الأديان .

فإن التعدد كان موجودا قبل الإسلام فى بعض الشرائع السماوية، والشرائع الوضعية، فقد ذكر الأستاذ محمد رشيد رضا فى كتابه : (نداء للجنس اللطيف) أن قدماء اليونان كانوا يعددون الزوجات بغير حساب، وأنه كان فاشيا فى أوربا عند الغولو فى زمن سيزار، وكان معروفا عند الجرمانيين فى زمن تاسيتْ، وأنه فشا فى الرومان فعلا لا قانونا، حتى حظره جوستينان فى قوانينه ولكنه ظل فاشيا بالفعل، وأباحه بعض البابوات لبعض الملوك بعد الإسلام (كشر كان) ملك فرنسا الذى كان معاصرا للخليفتين : المهدى والرشيد من العباسيين، وقد اختلفت عادات الناس فيه بين الأمم فى جميع القارات، والجزائر الجنوبية، وما شذ عن ذلك إلا أهل أوربا فى القرون الأخيرة، ولكنهم استبدلوا بتعدد الزوجات الشرعيات السفاح واتخاذ الأخدان، ثم ذكر أنه كان فاشيا عند اليهود فى ملوكهم وأنبيائهم، وناهيك بداود وسليمان عليهما السلام .

وبعد الوقوف على ما كان عند هذه الأمم من إباحة تعدد الزوجات لا يصح القول بأن الإسلام هو الذى أباح التعدد دون غيره من الشرائع، والواجب على المنصف أن يوازن بين ما جاء به الإسلام وما كانت عليه الأمم السابقة فى شأن

التعدد، وقد علمت أن التعدد فى الأمم السابقة كان فاشيا بدون تقيد بعدد، وبحال دون حال.

التعدد فى الإسلام

لم تحظر الشريعة الإسلامية تعدد الزوجات على الإطلاق، لأن الحاجة قد تدعو إليه، كما إذا تزوج الرجل بامرأة فظهر أنها عاقر، فإنه يحتاج إلى الاقتران بأخرى لأجل النسل، وقد يكون من مصلحة تلك العاقر أن تبقى مع زوجها وإن تزوج عليها، لأنها بلغت سن اليأس فلا يرغب فيها، أو كانت فقيرة لا تجد من ينفق عليها، وقد يكون مزاج الرجل يدفعه إلى كثرة الإفضاء، ومزاجها بالعكس، وقد يمتد حيضها زمنا لا يصبر الرجل على ترك الجماع، وقد يكثر عدد النساء كثرة فاحشة ويقل عدد الرجال، فإن المصلحة حينئذ فى التعدد حتى لا تضطر المرأة الفقيرة إلى تعريض نفسها للفاحشة، للحصول على حاجياتها، وحتى يكثر النسل وبه تقوى شوكة الأمة.

ولكن لما كانت الأسباب التى تبيح تعدد الزوجات ضرورية والضرورة تقدر بقدرها، وكان الرجال يندفعون إليه غالبا إرضاءاً للشهوة، لا عملا بالمصلحة أباحه الإسلام بقيود تكفل مصلحة المرأة، وتدفع عنها الظلم، والمعروف أن الشىء كلما تعددت قيوده قل وقوعه، فتقييد الشارع تعدد الزوجات بالقيود التى سنذكر إرشاد إلى أن الأصل هو الاقتصار على واحدة، وأن التعدد رخصة.

أباح الإسلام التعدد بشرط الوقوف عند عدد محدود، وهو أربع، وبشرط القدرة على الإنفاق عليهن، وبشرط العدل بينهن، والتسوية فى القسم، وأما ما يشاهد من ظلم الرجال للنساء وما يتبع ذلك من المفاسد، فهو ناشىء من عدم التمسك بآداب الإسلام وتعاليمه، فى معاملة النساء وأولادهن.

ومن هذا يتبين أن الإسلام لم يظلم المرأة بل رفع من شأنها وأعطاها من الحقوق ما يحفظ كيانها .

الطلاق

كثير من خصوم الإسلام ومقلديهم يعدون من مساوىء الشريعة الإسلامية مشروعية الطلاق ، وانفراد الرجل به ، ويزعمون أن إباحة الطلاق على هذا الوجه ألحقت بالمرأة ظلما ، وجعلتها كالسلعة يملكها الرجل ينتفع بها فى شئونه ، فإذا ما استغنى عنها باعها ، ويكفيك فى رد هذا الزعم أن تعلم ما كانت عليه الأمم المتقدمة على الإسلام فى الطلاق ، وما جاء به الإسلام وتقارن بينهما .

الطلاق قبل الإسلام

الطلاق مباح فى شريعة اليهود بعذر وبغير عذر ، كما إذا رغب الرجل التزوج بامرأة أجمل من امرأته ، ولكنه لا يكون مستحسنا إلا بعذر ، والأعذار عندهم قسمان : عيوب الخلقة وعيوب الأخلاق ، أما عيوب الخلقة فذكروا منها العمش والحول ، والبخر ، والحدب ، والعرج ، والعقم ، وأما عيوب الأخلاق فذكروا منها الوقاحة ، والوساخة ، والعناد ، والإسراف ، والتأنق فى المطاعم ، والزنا ، ويكفى فى ثبوته مجرد الإشاعة .

أما النصارى فقد أقروا من هذه الأسباب الزنا فقط ، وجرى بعض الأمم الأفرنجية على أنه متى اقترف أحد الزوجين هذه الفاحشة ، كان للآخر أن يرفع الأمر للمحكمة فيفصل القاضى بينهما ، وتوسع بعض الأمم الأفرنجية فى أسباب الطلاق مع اشتراط رفع الأمر للقاضى وحكمه ، بأن هذا السبب يبيح الطلاق ، وقد وصل التوسع فى الأسباب إلى حد أن بعض النسوة طلبن الطلاق لأن

زوجها كان يغير لحيته عند ما تزوج بها، ثم أطلق لحيته فأجابها القاضي وحكم بالطلاق، كذلك رفضت امرأة الطلاق لأن زوجها لا يراعي التقاليد المتبعة عندهم في التزام ملبس خاص للمسالمة، وملبس خاص للمسهرة، فأجنبها القاضي إلى طلبها، وهكذا من الأمور التي سوغ كونها أسبابا عادات الناس وميولهم .

كذلك كان الطلاق معروفا عند العرب، وكان يلحق النساء منه ظلم كبير فإنه لم يكن مقيدا بعدد محدود، فكان الرجل يوقع الطلاق وقبيل انقضاء العدة يراجع المرأة ثم يستأنف طلاقها ثم يعود في ذلك مرة بعد أخرى، فكانت المرأة ألعوبة في يد الرجل، وكان الرجل عند الطلاق يأخذ ما دفعه إلى المرأة من المهر هذا حال الطلاق قبل الإسلام على الإجمال .

الطلاق في الإسلام

قال تعالى مخاطبا الأزواج ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ أي إن كرهتموهن فاصبروا على معاشرتهن ولا تسارعوا إلى الفراق، فإنه يرجى حصول خير كثير إذا استمرت المعاشرة كوجود ولد صالح ينفع أمه وأباه، وقال تعالى ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ أي إن قامت الزوجة بواجبها وعاونت الزوج في تنظيم شئون الزوجية فلا تطلبوا الفراق، ولا تطلقوهن، وقال ﷺ «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» وقال ﷺ «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة» ومن هذا يفهم أن الأصل في الطلاق الحظر والحرمة، وأن الخير في الصبر على ما يكرهه الرجل من المرأة، وقد ذكر ابن عابدين في حاشيته على الدر المختار في فقه الحنفية أن الأصل في الطلاق الحظر، والإباحة للحاجة إلى الخلاص، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص، بل يكون حمقا وسفاهة رأي، ومجرد كفران النعمة، وإخلاص الإيذاء بها وبأهلها وبأولادها، ولهذا قالوا إن سببه

الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق، وعروض البغضاء، الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى، فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر، ولهذا قال تعالى ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ أى لا تطلبوا الفراق.

فالطلاق فى الإسلام بدون سبب صحيح يدعو إلى الخلاص حرام، لما فيه من قطع الزوجية التى هى من النعم العظمى، ولما فيه من ضياع الأولاد، أما إذا وجد التباغض، والتقاطع بين الزوجين، ولم يمكن الصلح بينهما، وغلب على الظن عدم إقامة حدود الله فى الزوجية فالدواء الأخير هو الفراق، فيكون حينئذ مباحا، ولكن الشارع جعل أمر الطلاق بيد الرجل لأنه أحرص على بقاء الزوجية التى أنفق فى سبيلها من المال ما يحتاج إلى إنفاق مثله أو أكثر منه إذا طلق، أو أراد الاقتران بأخرى، ولأنه أكمل عقلا، وأصبر على المكروه. فلا يسارع إلى الطلاق لمجرد الغضب، أو حدوث ما يكرهه، بخلاف المرأة فإنها أسرع غضبا وأقل احتمالا، وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته، مثل ما على الرجل. فلو جعل أمر الطلاق بيدها لسارعت إلى تطليق نفسها، لأدنى سبب. ومع ذلك فقد جعل لها الشارع حق طلب الفسخ إذا امتنع عن الإنفاق أو عجز أو غاب غيبة منقطعة، أو كان به علة تمنعه من تأدية وظيفة الزوجية، كذلك أباح للزوج أن يجعل للمرأة حق التطليق، ومع كل هذا الإصلاح والمحافظة على حقوق المرأة فقد أوجب الشارع على الزوج إذا طلق أن يدفع مؤخر صداقها إليها، وأن يقوم بالإنفاق عليها مدة العدة ولو طالت، وبإسكانها وكسوتها كما طلب منه أن يفرق الطلاق، وأن يقف عند حد محدود لا يتعداه، وهو الثلاث خشية أن تكون المرأة ألعوبة فى يد الرجل.

فانظر رعاك الله إلى ما جاءت به الشريعة الإسلامية فى شأن الطلاق، وما كان فى الشرائع الأخرى سواء كانت سماوية أو وضعية، وقارن بينهما يتضح لك أن دين الإسلام هو دين الفطرة، وهو الذى حافظ على حقوق كل من الرجال والنساء.

الملائكة

الكلام على الملائكة ينحصر في أربعة مواضع:

الأول: وجودها .

الثاني: مفهومها .

الثالث: عصمتها .

الرابع: التفاضل بينها وبين الأنبياء .

وجودها

ذكر علماء الكلام أن وجود الملائكة مما انعقد عليه الإجماع[1] ودل عليه كتاب الله تعالى، وكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنه لا سبيل إلى إثبات وجودها بالدليل العقلي، وحينئذ فالدليل الإجماع والكتب المقدسة، والأحاديث المنقولة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمنكر وجود الملائكة كافر .

المفهوم

ذكر **الألوسي** في تفسيره (روح المعاني) عند الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾ إن الناس بعد اتفاقهم على وجود الملائكة اختلفوا في بيان حقيقتها، فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام نورانية

---

(١) وارجع في هذا الموضوع شرح المواقف للسيد الشريف جـ ٨ صـ ٢٨١ وشرح المقاصد للسعد جـ ٢ صـ ٤٠ وما بعدها.

وبُمل هوائية، قادرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى .

وقالت النصارى: إنها الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها الصافية الخيرة، والخبيثة عندهم شياطين .

وقال عبدة الأوثان : إنها هذه الكواكب، السعيد منها ملائكة الرحمة، والخبيثة ملائكة العذاب .

والفلاسفة يقولون: إنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقة، يصرح بعضهم بأنها العقول العشرة والنفوس الفلكية التى تحرك الأفلاك ا هـ .

ولم أطلع على مستند لأى فرقة من هذه الفرق فى تعيين المعنى الذى اختارته دون غيره، غير ما ورد فى كتاب الله تعالى فى وصفهم بأنهم عباد مكرمون، وأنهم يفعلون ما يؤمرون، وأنهم أمروا بالسجود لآدم فسجدوا، وما ورد فى السنة من أحوال جبريل مع النبى ﷺ فى تبليغ الوحى وظهوره فى صورة دحية الكلبى، يرجح ما ذهب إليه أكثر المسلمين من أنها أجسام قادرة على التشكل بإذن الله .

والمعروف بين المسلمين أنها تتشكل بأشكال حسنة شأنها الطاعة ومسكنها السموات غالبا، ومنهم من يسكن الأرض، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة، فمن وصفهم بذكورة فسق، ومن وصفهم بأنوثة كفر، لمعارضته قوله تعالى ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ .

وحيث أجمعت الأمة على وجودها، فيجب الإيمان بهم إجمالا فيمن علم على طريق الإجمال، وتفصيلا فيمن علم منهم تفصيلا بالشخص، كجبريل

وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل[١]، ومنكر ونكير، ورضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار، أو بالنوع كحملة العرش والحفظة، وهم ملائكة موكلون بحفظ البشر، والكتبة وهم ملائكة يكتبون على المكلف ما صدر منه من قول وفعل واعتقاد، لا يفارقونهم إلا فى حالة الجماع والغسل وقضاء الحاجة .

عصمة الملائكة

اختلف المسلمون فى عصمة[٢] الملائكة، فذهب فريق إلى أنهم معصومون يستحيل صدور الذنوب منهم كبيرة أم صغيرة واستدلوا على ذلك بالقرآن الكريم قال تعالى ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ أى أن شأنهم وعادتهم وجبلتهم التى فطروا عليها هى الخضوع والعبادة وقال تعالى فى حقهم ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ وقال تعالى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ قال تعالى ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ .

فهذه الآيات تفيد أن المعصية لا تحصل من الملائكة، فهم معصومون. وذهب الفريق الآخر إلى نفى العصمة عنهم واستند فى ذلك إلى ما دل عليه الكتاب الكريم فى عدة آيات .

الأولى قوله تعالى حكاية عن الملائكة عند أمرهم بالسجود لآدم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ فإن هذا القول تضمن أربعة أمور كلها من قبيل المعصية

---

(١) الأسماء الواردة فى أسماء الملائكة ليس منها اسم (عزرائيل) إنما الوارد اسم (ملك الموت) بهذا اللقب العام كما قال تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾ الآية ١١ من سورة السجدة، والأسماء المعروفة هى جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، ومنكر ونكير، ومالك ورضوان.. الخ راجع شرح العقيدة الطحاوية صـ ٢٧٠ وما بعدها.

(٢) راجع شرح المواقف للسيد الشريف جـ ٨ صـ ٢٨١.

الأول اغتيابهم لمن سيجعله الله خليفة فى الأرض بذكر عيوبه، من أنه مفسد فى الأرض سفاك للدماء :

الثانى تزكيتهم أنفسهم وافتخارهم بأنهم يسبحون الله تعالى وينزهونه .

الثالث أن وصفهم للخليفة بأنه مفسد فى الأرض، سفاك للدماء من قبيل الرجم بالظن. فإنه لم يكن قد وجد حتى يقع منه الإفساد فى الأرض، وسفك الدماء، فيشاهدوه واتباع الظن فى مثل هذا لا يجوز، قال تعالى ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ .

الرابع اعتراضهم على الله تعالى فى فعله .

والجواب عن استدلالهم بهذه الآية أن الغيبة وصف الغير بالقبح إهانة له والتزكية وصف النفس بالجميل تعظيما وتبجيلا، ولم يكن غرض الملائكة إهانة الخليفة، ولا تزكية أنفسهم، بل غرضهم السؤال عن الحكمة من ذلك التخصيص مع وجود هذا التفاوت، وليس ذكرهم لهذه الأوصاف من قبيل الرجم بالظن بل علموها بواسطة الاطلاع على اللوح المحفوظ، وحينئذ فقد انتفى كون ذلك القول يراد به الاعتراض على فعل الله تعالى .

الآية الثانية قوله تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ والاستدلال بهذه الآية على عدم عصمة الملائكة من جهة أن الأمر بالسجود كان للملائكة، وقد تناول إبليس بدليل الاستثناء، فامتنع إبليس وأبى واستكبر، وقال أنا خير منه خلقتنى من نار، وعاتبه الله تعالى فقال ﴿ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾ والجواب تسليم أن إبليس قد عصى، ولكن نمنع كونه من الملائكة، بل كان من الجن وقد جاء فى آية أخرى ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وشمول الملائكة له فى الآية على سبيل التغليب، لكونه جنيا واحدا مغمورا بينهم، وهذا هو التحقيق الذى يجب التعويل عليه .

الآية الثالثة المتعلقة (بهاروت وماروت) المتضمنة إنهما كانا يعلمان الناس السحر .

والمستدلون بقصة هاروت وماروت التي وردت في القرآن استندوا إلى ما قاله بعض الكاتبين في هذا الموضوع إنهما ملكان نزلا لتعليم الناس السحر ، وافتتنا بامرأة فمسخت ، وهي نجم الزهرة ، والملكان يعذبان في الدنيا على اقتراف هذه الجريمة .

فما وقع من هذين الملكين يدل على عدم عصمة الملائكة ، والجواب عن ذلك أن ما نسب إلى الملكين من العمل بالسحر والافتتان بالمرأة كلام دسه الملحدون وليس له أصل ، وكل ما في الأمر أن السحرة في ذلك العصر كانوا وصاروا يأتون بأفعال غريبة في العادة ، ويدعون النبوة فأنزل الله الملكين لأجل أن يعلموا الناس السحر ، حتى يعرفوا أن ما تأتي به السحرة ليس من قبيل الأمر الخارق للعادة ، حتى تصح دعواهم النبوة ، وإنما هو من الأمور التي تدخل تحت قدرة البشر فلا يكون دليلا على حجة دعوى النبوة ، وكان الملكان يقولان للناس ﴿إنما نحن فتنة﴾ أي نزلنا لاختبار الناس وابتلائهم ، والقرآن لا يعطي أكثر من ذلك ، فيجب الاقتصار عليه وطرح ما عداه حيث لم يثبت من طريق صحيح .

التفاضل بين الأنبياء والملائكة

اختلف علماء الكلام في كون الملائكة أفضل من الأنبياء ، فذهب جمهور أهل السنة والشيعة إلى أن الأنبياء أفضل من الملائكة مطلقا ، وذهب الحكماء والمعتزلة والقاضي أبو بكر الباقلاني وأبو عبدالله الحليمي من أهل السنة ، إلى أن الملائكة العلوية أفضل من الأنبياء ، أما الملائكة السفلية الذين يسكنون الأرض

فالأنبياء أفضل منهم بالإجماع، وقد نقل بعض الكاتبين[1] هنا أن هذا الخلاف مستثنى منه نبينا ﷺ، فإنه أفضل الخلق على الإطلاق بالإجماع، ولا عبرة بما يجرى عليه الزمخشرى من تفضيل جبريل على النبى ﷺ لأنه خارق للإجماع.

استدل القائل بأن الأنبياء أفضل من الملائكة إلى عدة أدلة:

الأول أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم الذى دل عليه قوله تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ فإن المعروف أن الذى يؤمر بالسجود لغيره، يكون أدنى من ذلك الغير، فتكون الملائكة أدنى من آدم، فيكون أفضل وغيره من الأنبياء كذلك إذ لا قائل بالفصل.

الثانى قوله تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ الآية، فإنها تدل على أن آدم علم الأسماء والملائكة لم تعلمها، والعالم أفضل من غيره، قال تعالى ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾.

الثالث أن طاعة البشر أشق من طاعة الملك.

لأن طاعة البشر لا تتحقق إلا بعد أن يجاهد الإنسان نفسه، وهواه، ويتغلب عليهما، وعلى الشيطان، وعلى جميع الشواغل الدنيوية، بخلاف طاعة الملك فإنه مفطور عليها، ولا شك أن العبادة مع هذه العوائق أدخل فى الإخلاص، وأشق فتكون أفضل لقوله ﷺ (أفضل الأعمال أحمزها) أى أشقها، فيكون صاحبها أكثر ثوابا عليها.

الرابع قوله تعالى ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾.

---

(1) راجع فى هذا الموضوع شرح المواقف للسيد الشريف جـ ٨ صـ ٢٨٢ وشرح المقاصد للسعد جـ ٢ صـ ١٤٦ وما بعدها.

قال أصحاب هذا الرأى إن الآل فى قوله ﴿آل إبراهيم وآل عمران﴾ خاص بالأنبياء، وحينئذ تفيد الآية أن الأنبياء أفضل العالمين، والملائكة من العالمين فتكون الأنبياء أفضل من الملائكة .

واعلم أن كل دليل من هذه الأدلة المذكورة ليس قطعيا فى المدعى كما يظهر بالتأمل، وغاية ما يقال فى ذلك إن مثا هذه المسألة يكتفى فيها بالظن للعجز عن القطع واليقين .

واحتج الفريق القائل بتفضيل الملائكة العلوية على الأنبياء[1] بأدلة :

منها قوله تعالى ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون﴾ فإن مثل هذا السياق يقتضى تفضيل الملائكة المقربين على عيسى، لأن البلاغة تقتضى الترقى من الأدنى إلى الأعلى. والجواب عن ذلك تسليم أن فى الآية الترقى من الأدنى إلى الأعلى، ولكن ليس التفاوت من جهة أكثرية الثواب، بل من جهة أن عيسى ولد من غير أب، والملائكة وجدت من غير أب وأم، فيكون معنى الآية لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله بسبب أن خلقه الله تعالى بغير أب، ولا الملائكة المقربون الذين خلقهم الله تعالى بلا واسطة أب وأم، ومعلوم أن الترقى من الأدنى إلى الأعلى من هذا الوجه لا يقتضى أفضلية الأعلى .

ومن الأدلة اطراد تقديم الملائكة على الأنبياء فى الذكر إذا اجتمعا، فإنه يدل على أن المتقدم أفضل من المتأخر .

والجواب أن التقديم فى الذكر لا يقتضى الأفضلية، لجواز أن يكون التقديم فى الذكر باعتبار التقديم فى الوجود .

ومنها أن الملائكة أرواح مبرأة عن الرذائل، مطهرة عن الشهوة، والغضب اللذين هما منشأ الأخلاق الذميمة، مطلعة على أسرار الغيب، قوية على الأعمال العجيبة، من تصريف السحاب والزلازل القوية، سابقة إلى الخيرات، مواظبة على محاسن الأعمال، ومن كان هذا حاله فهو أفضل ممن لم يكن معه هذه الأوصاف. ولهذا الفريق أدلة أخرى مذكورة في المطولات، قال السعد: ولا قاطع في هذه المقامات ولذلك قال تاج الدين بن السبكي ليس تفضيل (١) البشر على الملك مما يجب اعتقاده، ويضر الجهل به، والسلامة في السكوت عن هذه المسألة، والدخول في التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على الله تعالى من غير دليل قاطع، دخول في خطر عظيم وحكم في مكان لسنا أهلا للحكم فيه.

الجن والشياطين

ذكر صاحب المقاصد أن وجود الجن والشياطين مما انعقد عليه إجماع الآراء، ونطق به كلام الله تعالى، وكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اهـ.

وحينئذ يكون إنكار وجود هذا النوع كفرا كما صرح به الألوسي في تفسير سورة الجن، والخلاف الحاصل بين علماء الكلام في هذه المسألة إنما هو في مفهوم الجن والشياطين، وإني أذكر لك ملخص ما قيل في هذا المقام.

ذكر بعض الكاتبين في هذا المقام أن الفلاسفة اختلفوا فيما بينهم في بيان حقيقة الجن والشياطين.

فقال بعضهم هما متغايران بالحقيقة وعرف الجن بأنها جواهر مجردة عن المادة، لها تصرف وتأثير فى الأجسام العنصرية، من غير تعلق بها تعلق النفوس البشرية بأبدانها، وعرف الشياطين بأنها القوى المتخيلة فى أفراد الإنسان من حيث استيلائها على القوى العقلية، وصرفها عن جانب القدس، واكتساب الكمالات العقلية إلى اتباع الشهوات، واللذات الحسية والوهمية .

وقال بعضهم حقيقة الجن والشياطين واحدة، والاختلاف بينهما إنما هو بحسب الأوصاف، فعرف الجن بأنها النفوس البشرية الخيرة الخاضعة لدواعى القوة العاقلة بعد مفارقتها لأبدانها، وعرف الشياطين بأنها النفوس البشرية الشريرة المعينة على الضلال، والانهماك فى الغواية بعد مفارقتها لأبدانها .

كذلك اختلف غير الفلاسفة من علماء الكلام فى بيان حقيقة الجن والشياطين على الوجه المذكور، فقال بعضهم هما متغايران بالحقيقة وعرف الجن بأنها أجسام لطيفة هوائية تتشكل بأشكال مختلفة، وتظهر منها أفعال عجيبة، منهم المؤمن والكافر، ومنهم المطيع والعاصى، وعرف الشياطين بأنها أجسام نارية شأنها إلقاء النفس فى الفساد والغواية .

وقال بعضهم حقيقة الجن والشياطين واحدة، وهى أجسام عاقلة تغلب عليها النارية قابلة للتشكل بأشكال مختلفة، والفرق بينهما من حيث إن الشيطان هو المتمرد من الجن، أما الجنى فهو شامل للمتمرد وغيره فهو أعم من الشيطان، وهذا هو المشهور قال تعالى ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ .

النفوس البشرية

اختلف علماء الكلام فى حقيقة النفس البشرية فذهبت الفلاسفة الإلهيون وجماعة عظيمة من المسلمين، منهم الراغب الأصفهانى والغزالى، ومعمر بن عباد

السلمى من المعتزلة وبعض الشيعة وجماعة من الكرامية، وجمع من الصوفية إلى أنها مجردة أى ليست جسما ولا حالة فى جسم، وعرفوها بأنها جوهر مجرد فى ذاته، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، كتعلق العاشق بالمعشوق، فليس تعلقها بالبدن تعلق حلول كتعلق الصورة بالمادة، والعرض بالجوهر كتعلق السواد بالجسم، ولا تعلق مجاورة كتعلق الإنسان بثوبه الذى يرافقه تارة ويفارقه أخرى .

وقد ذكر أصحاب هذا المذهب عدة أدلة على تجرد النفس، لكنها لم تسلم من القدح فلذلك أعرضت عن ذكرها .

وذهب غير الفلاسفة ومن وافقهم فى القول بتجرد النفس إلى أنها ليست جوهرا مجردا، بناء على ما ذهبوا إليه من إنكار عالم المجردات، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك اختلافا كثيرا فى بيان حقيقتها، حتى قال الألوسى فى تفسيره عند الكلام على قوله تعالى ﴿ويسألونك عن الروح﴾ بعد أن ذكر عدة أقوال ما نصه «وقيل وقيل إلى نحو ألف قول» .

وإنى أذكر من بين هذه الأقوال قولين لشهرتهما .

الأول أنها جوهر لطيف نورانى مدرك للكليات والجزئيات حال فى البدن، متصرف فيه، غنى عن الاغتذاء، برىء عن التحلل والنماء .

الثانى أنها تتكون [illegible] إحداها فى النطاح وهى النفس الناطقة المسماة [illegible] موضعها القلب [illegible] بالحياة فى القلب [illegible] مبدأ الغضب والتخويف والفرح [illegible] فى [illegible] تبى [illegible] .

وقد استدل كل قائل على ما اختاره فى بيان ماهية النفس من البشر، ولكنها أدلة أقوى ما فيها أنها إقناعية، فليس من بينها ما يفيد القطع، لذلك كان الأسلم تفويض علم حقيقتها إلى الله تعالى .

حدوث النفوس البشرية

أجمع المسلمون على أن النفس البشرية سواء كانت جوهرا مجردا أو جسما حادثة بعد أن لم تكن، كسائر أجزاء العالم، لأنها أثر للقادر المختار، إلا أنهم اختلفوا هل حدوثها قبل حدوث البدن أو بعده، فذهبت طائفة إلى أنها حادثة قبل حدوث البدن واستدلت هذه الطائفة بما روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» قال ابن الجوزى فى تبصرته قال أبو سليمان الخطابى معنى هذا الحديث الإخبار عن كون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد .

وذهب آخرون ومنهم حجة الإسلام الغزالى إلى أنها حدثت بعد حدوث البدن، ومن أدلتهم ما ورد فى الحديث الصحيح من أن ابن آدم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما دما ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ووجه الاستدلال أن الروح لو كانت مخلوقة قبل الجسم لقيل ثم يرسل إليه الملك بالروح فيدخله فيه، واختار بعضهم هذا القول .

وذهب أفلاطون ومن تقدمه من الفلاسفة إلى قدم النفس البشرية، واستدلوا على ذلك بدليلين .

الأول أنها أبدية بإجماع ويلزم من كونها أبدية أن تكون قديمة، لأنها لو كانت حادثة لكانت قابلة للعدم ضرورة كونها مسبوقة بعدم وقبول العدم ينافى الأبدية، والجواب عن ذلك أن تجويز العدم المرتب على الحدوث إن أريد منه جواز طروه لذاته سلمناه، ونقول هذا لا ينافى امتناع وقوعه أبدا لغيره، وإن أريد منه حصوله بالفعل منعناه .

الثانى أنها لو كانت حادثة لكان لها مادة، لأن كل حادث يجب أن يكون مسبوقا بمادة وكون النفوس لها مادة باطل، لأنها من المجردات. والجواب عن

ذلك أن كونها من المجردات محل نزاع، ولا يسلمه الخصم، فالدليل على هذا الوجه لا يلزم الخصم .

ولو سلمنا أن كل حادث له مادة فقد تكون تلك المادة محلا له، وهو حال فيها، وقد يكون ذلك الحادث متعلقا بها، وهذا لا ينافي كونه مجردا بحسب ذاته .

بقاء النفوس البشرية

اختلف الناس في النفس البشرية هل تموت أم لا، فذهبت طائفة إلى أنها تموت، لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت، وقد دل الكتاب على أنه لا يبقى إلا الله وحده، وهذا يستدعى هلاك النفس كغيرها من المخلوقات، وإذا كانت الملائكة عليهم الصلاة والسلام يموتون فالنفوس البشرية أولى، وأيضا فقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنهم يقولون ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ ولا تتحقق الإماتتان إلا بإماتة البدن مرة، وإماتة النفس مرة أخرى .

وقالت طائفة إنها لا تموت للأحاديث الدالة على نعيمها وعذابها، بعد المفارقة للأبدان، إلى أن يرجعها الله تعالى إلى الجسد، ولو قلنا بموتها لزم انقطاع النعيم والعذاب، وهذا القول هو المشهور، والمراد من ذوقها الموت الذى دلت عليه الآية مفارقتها الجسد، والهلاك الذى دلت بعض الآيات على أنه يطرأ على كل ما عدا الله سبحانه وتعالى ليس مختصا بالعدم، بل يتحقق بخروج الشيء عن حد الانتفاع به، وهذا متحقق في النفس عند مفارقتها للجسد .

وما ذكره صاحب القول الأول في تفسير الأماتتين غير مسلم، أنظر ما قاله المفسرون، فالصواب حينئذ أن النفس بعد مفارقتها البدن تبقى مفارقة ما شاء الله، ثم تعود إلى الجسد بعد البعث، وتبقى معه في نعيم أو عذاب أبد الآبدين

بطلان التناسخ

التناسخ تعلق الروح بالبدن بعد مفارقتها البدن الذى كانت معه من غير تخلل زمان بين التعلقين.

وقد اختلف أهل النظر من المليين وغيرهم فى التناسخ فقال أهل الحق من الفلاسفة وغيرهم إن التناسخ باطل، وقال غيرهم من قدماء الفلاسفة وبعض المنتسبين إلى الملة الإسلامية التناسخ جائز وواقع.

وهؤلاء القائلون بالتناسخ افترقوا إلى طائفتين:

الأولى ذهبت إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجساد التى فارقتها، وهذا التناسخ إنما يقع ليكون عقابا أو ثوابا، فالفاسق سىء الأعمال تنتقل روحه إلى أجساد الحيوانات الخبيثة، الملازمة الأقذار، والمسخرة المؤلمة الممتهنة بالذبح. واختلفوا فى الذى كانت جميع أفعاله شرا لا خير فيها فقال غير المليين أرواح هذه الطبقة هى الشياطين، وقال المليون المنتسبون إلى الإسلام إنها تنتقل إلى جهنم فتعذب فيها على الدوام، كذلك اختلفوا فى الذى كانت جميع أفعاله خيرا لا شر فيها، فقال غير المليين أرواح هذه الطبقة هى الملائكة، وقال المليون إنها تنتقل إلى الجنة فتنعم فيها أبدا.

وذهبت الطائفة الثانية إلى أن الأرواح بعد مفارقتها للأبدان التى كانت متعلقة بها إنما تتعلق بأجسام أخرى من نوع الأجسام التى كانت متعلقة بها أولا فقط، فالنفس الإنسانية بعد مفارقتها للبدن تنتقل إلى جسم إنسانى معين آخر. احتج المنتسبون إلى الإسلام بآيتين وردتا فى القرآن الكريم، الأولى ﴿ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ٭ الذى خلقك فسواك فعدلك ٭ فى أى صورة ما شاء ركبك﴾ الثانية ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه﴾ فقالوا إن المخاطب فى الآية الأولى هو النفس الإنسانية والآية تعطى

أن تلك النفس يشاء الله تعلقها بصورة الإنسان وقد يشاء تعلقها بغير صورة الإنسان، وهذا هو التناسخ .

ويجاب عن ذلك بأن المعنى ليس كما فهم ذلك المستدل، وإنما الآية تشير إلى أن للإنسان صورا مختلفة فى الحسن والقبح، والطول والقصر، ومشيئة الله تعالى وحكمته اقتضت لكل نفس صورة خاصة من تلك الصور، التى تتعلق بها النفس البشرية، وحينئذ فليس فى الآية ما يفهم منه أن النفس الإنسانية تتعلق بجسم آخر غير الذى كانت فيه .

وقالوا فى الآية الثانية إن قوله تعالى ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ معناه يخلقكم ويبثكم فى المذكور، وهو النوع الإنسانى والأنعام، وحينئذ فالمفهوم من الآية أن النفس الإنسانية تخلق وتبث فى الجسم الإنسانى وأجسام الأنعام .

وهذا هو التناسخ والجواب أن معنى الآية ليس كما فهم هذا المستدل بل معناها أن الله تعالى خلق لنا أزواجا، أى أنشأ من أنفسنا، أى جنسنا تتوالد منها وقوله ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ معناه يجعل لكم فى الأنعام معيشة تعيشون بها، فليس فى الآية حينئذ ما يثبت التناسخ، ثم يقال لهذه الفرقة حيث إنكم تنتسبون إلى الإسلام فيكفى فى رد قولكم إجماع جميع أهل الإسلام على خلاف قولكم فى التناسخ، وفى المجازاة على الأعمال بتعلق الأرواح بأجسام أخرى .

أما من لا يعترف بالإسلام فقد استدل على التناسخ بأن النفس البشرية قديمة، فهى موجودة بالفعل وكل موجود بالفعل غير متناه، فالنفوس البشرية متناهية، والأجسام غير متناهية، لأنها من الحوادث المتعاقبة، المستندة إلى ما يتناهى من الأوضاع الفلكية، فلو لم تتعلق كل نفس إلا ببدن واحد لزم توزع

ما لا يتناهى[1]، وهو النفوس على ما لا يتناهى وهو الأجسام، وهو محال بالضرورة، فوجب القول بالتناسخ .

ورد هذا الدليل بأنا لا نسلم قدم النفوس، للأدلة القائمة على أن ما سوى الله تعالى وصفاته حادث، أما الطائفة الثانية التي ذهبت إلى أن النفوس البشرية إنما تنتقل في الجسم الإنساني فقط فدليلها هو دليل الفرقة القائلة إن الأجسام لا تتناهى والنفوس متناهية، وقد علمت رده، وذكر ابن حزم في كتاب (الفصل) وجها لإبطال قول الفلاسفة غير الإسلاميين القائلين بتعلق الروح بأى جسم، بعد مفارقتها الجسم الذي كانت متعلقة به، وحاصله أن الله تعالى خلق الأنواع والأجناس، ورتب الأنواع تحت الأجناس بفصل كل نوع من النوع الآخر بفصله الخاص به، الذي لا يشاركه فيه غيره .

وهذه الفصول المذكورة لأنواع الحيوانات إنما هي لأنفسها التي هي أرواحها فنفس الإنسان حية ناطقة، ونفس الحيوان حية غير ناطقة، هذا هو طبيعة كل نفس وجوهرها، الذي لا يمكن استحالته عنه، فلا سبيل إلى أن يصير غير الناطق ناطقا، ولا الناطق غير ناطق، ولو جاز هذا لبطلت المشاهدات وما أوجبه الحس وبديهة العقل .

أما الفرقة القائلة بتنقل النفس الإنسانية في الجسم الإنساني فيستدل على بطلان قولها بأنه لا يوجد في هذا العالم أمران بينهم تشابه تام، من جميع الجهات، بل لابد أن يتميز أحدهما عن الآخر بوجه (ما) فلا سبيل إلى وجود شخصين يتفقان في جميع الأخلاق، والأخلاق محمولة على النفوس وحيث كانت الأخلاق مختلفة، فالنفوس مختلفة، فوجب أن تكون نفس هذا الجسم غير النفس التي في الجسم الآخر .

---

(1) هكذا في النسخة المطبوعة، وفيها خطأ مطبعي والصواب حذف (لا) فتكون العبارة (لزم توزع ما يتناهى وهو النفوس البشرية على ما لا يتناهى وهو الأجسام وهو محال، وذلك لأن هؤلاء يرون أن النفوس البشرية متناهية.

وبالجملة فالقول بالتناسخ لم يقم عليه دليل صحيح وهو مخالف لجميع الشرائع السماوية .

الدنيا والآخرة

لعلماء الكلام قولان فى حقيقة الدنيا :

الأول أنها ما على الأرض مع الهواء والجو .

والثانى أنها كل المخلوقات من الجواهر والأعراض قبل الدار الآخرة، قال النووى وهو الأظهر : وهذا يشمل ما أباح الله تعالى للإنسان استعماله وتناوله وما حظره عليه ، فإن ورد فى بعض الآيات أو الأحاديث ذم للدنيا ، وترغيب عنها ، فهو مصروف إلى ذلك المحظور على الإنسان ، كصرف المال فى غير وجوه البر والإحسان وطرق الغواية والضلال .

وإن ورد مدح لها وترغيب فى التمتع بزينتها ، فمورده ما أباحه الله تعالى للإنسان .

وبالجملة فالدنيا طريق للآخرة فينبغى للإنسان أن يأخذ منها قدر حاجته ، حتى لا تلهيه عن الآخرة ، وأما الآخرة فهى الدار التى أعدها الله تعالى لمحاسبة كل إنسان على عمله خيراً كان أو شراً ، ومجازاته على ذلك العمل بالنعيم الدائم إن كان خيراً ، وبالعذاب مؤقتاً أو دائماً ، على مقدار المعاصى التى ارتكبت فى دار الدنيا من شرك أو غيره .

الموت ، وفتنة القبر ، ونعيمه وعذابه

فقال الأشعرى إنه من الصفات الوجودية، وعرف بناء على ذلك بأنه صفة وجودية تضاد الحياة، وحينئذ يكون التقابل بينه وبين الحياة تقابل التضاد.

واستدل للأشعرى بقوله تعالى فى سورة الملك ﴿الذى خلق الموت والحياة﴾ فإنها أفادت أن الخلق تعلق بالموت كما تعلق بالحياة، والخلق لا يتعلق بالعدمى لأزلية الأعدام، فتعلق الخلق به يدل على أنه وجودى.

ونقل عن المعتزلة وبعض أهل السنة أن الموت عدمّى، وعرف بناء على ذلك بأنه عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيا، فيكون التقابل بينه وبين الحياة تقابل العدم والملكة، وقال أصحاب هذا الرأى إن (خلق) فى الآية بمعنى قدر، فلا تدل على أن الموت وجودى.

أما الحياة فهى من الصفات الوجودية إجماعا، وهى صفة توجب لمن اتصف بها حالا لم يكن قبل طروها، مثل صحة العلم والقدرة، والواجب على كل مسلم أن يصدق بعموم فناء المخلوقات وأن ذلك الفناء يحصل عند فراغ الآجال المقدرة.

فتنة القبر

قيل إن فتنة القبر هى التلجلج والتلعثم فى الجواب، وقيل هى سؤال الملكين منكر ونكير، وقد ورد أنه بعد انصراف الناس من دفن الميت يأتيه ملكان يقال لأحدهما منكر، وللآخر نكير، يقعدانه فيعيد الله الروح فيه، فيحيا حياة متوسطة بين الموت والحياة الدنيوية، ويرد إليه من الحواس والعقل ما يتوقف عليه فهم الخطاب، ويتأتى معه رد الجواب حين يسأل، وعندئذ يقول الملكان له: من ربك وما دينك، وما تقول فى الرجل الذى بعث فيكم؟.

فيقول المؤمن: ربى الله، ودينى الإسلام، والرجل المبعوث فينا محمد ﷺ،

فيقولان له أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا فى الجنة، فيراهما جميعا، ثم يقولان له نم نومة العروس .

وأما المنافق أو الكافر فيقول لا أدرى، فيقولان له لا دريت ولا تليت، ثم يصيبه ما قدر له من العذاب فى قبره .

وهذا السؤال يقع للشخص الميت، ولو تمزقت أعضاؤه، أو أكلته السباع أو حرق وسحق، وذرى فى الهواء .

والحكمة فى سؤال القبر إظهار ما كتمه العباد فى الدنيا من إيمان أو كفر، أو طاعة أو عصيان، فالمؤمنون الطائعون يباهى الله بهم الملائكة، وغيرهم يفضحون عند الملائكة .

أما كون السؤال باللغة السريانية أو أن كل إنسان يسأل بلغته فالأسلم تفويض الأمر فيه لله تعالى لأنه من الأمور الغيبية التى لا مدخل للعقل فيها ولم يرد فيها دليل قاطع .

عذاب القبر ونعيمه

اتفق الإسلاميون جميعا على أن عذاب القبر ونعيمه حق، والمشهور أن العذاب يكون للجسم والروح، وقد[1] نسب للمعتزلة أنهم ينكرون عذاب القبر لكن ذكر القاضى عبدالجبار رئيس المعتزلة فى كتاب الطبقات تأليفه أنه قيل له مذهبكم أداكم إلى إنكار عذاب القبر، وهذا قد أطبقت عليه الأمة، فقال إن هذا الأمر لما أنكره أولا (ضرار بن عمرو) وقد كان من أصحاب الرأى ظننا أن ذلك مما أنكرته المعتزلة، وليس الأمر كذلك، بل المعتزلة رجلان: أحدهما

---

(١) راجع فى هذا الموضوع شرح المواقف للسيد الشريف جـ ٨ صـ ٣١٧ وما بعدها وشرح المقاصد للسعد جـ ٢ صـ ١٦٢ وما بعدها.

يجوز ذلك كما وردت به الأخبار، والثاني يقطع بذلك، وأكثر شيوخنا يقطعون بذلك، وحيث كان الاتفاق من الإسلاميين على نعيم القبر وعذابه قائما فلا يضر بعد ذلك احتمال الأدلة النقلية من القرآن أو الحديث، وعدم قطعية دلالتها، كما أنه لا حاجة لذكر أدلة قد ذكرها بعض الكاتبين للمخالفين من الأمة الإسلامية فإنك علمت أنه لا خلاف بين المليين فى عذاب القبر ونعيمه، نعم قد أنكر غير الإسلاميين عذاب القبر ونعيمه، فقالوا إن اللذة والألم، بالسؤال والجواب، ونحو ذلك لا يتصور بدون العلم والحياة، ولا حياة مع فساد البنية، وبطلان المزاج، والمشاهدة تساعد على إنكار عذاب القبر ونعيمه، فإنا نشاهد الميت أو المقتول أو المصلوب يبقى مدة من غير تحرك وتكلم، ولا أثر تلذذ أو تألم، وربما يدفن فى صندوق، أو لحد لا يتصور فيه جلوسه، بل ربما تأكله السباع، أو تحرقه النار فيصير رمادا تذروه الرياح، فالقول بعذاب القبر ونعيمه بعد أن سمعت ما ذكر غير معقول، وتجويز وقوعه سفسطة .

والجواب عن هذه الشبهة هو أن الإنسان ليس عبارة عن ذلك الجسم فقط بل هو جسم وروح، ولا يلزم فى الحياة البرزخية أن تتعلق الروح بكل أجزاء البدن، بل يكفى فى تحققها تعلق الروح بأى جزء من أجزاء البدن، لأنها حياة أقل من الحياة الدنيوية، وعند ذلك يعذب الميت أو ينعم، وعدم رؤيتنا لا يضر، فإن الواحد منا يجلس بجوار النائم، ويكون النائم فى ألم شديد، أو لذة عظيمة والجالس بجانبه لا يشعر بشيء من هذا، وبالجملة فهذه الشبه المذكورة لم تنتج استحالة عذاب القبر ونعيمه، وإنما أنتجت الاستبعاد، وحيث قد وردت الأحاديث الصحيحة فى عذاب القبر ونعيمه، ودل ظاهر كتاب الله تعالى على أن فى القبر عذابا فإنكاره لا يصح .

الساعة وأشراطها

الساعة هى الوقت الذى يموت فيه الأحياء فى هذا العالم، ويضطرب نظامه، ويخرب بما يكون فيه من الأهوال .

ومعرفة ذلك الوقت على التعيين اختص الله تعالى به، كما دل عليه قوله تعالى **﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو﴾**(١) ومعنى الآية يسألونك أيها الرسول عن الساعة قائلين متى إرساؤها وحصولها، واستقرارها، قل لهم إن علم الساعة عند ربى وحده، ليس عندى، ولا عند غيرى من الخلق شىء منه، لا يكشف حجاب الخفاء عنها، ولا يظهرها فى وقتها المحدود عند الرب إلا هو، ووظيفة الرسل الإنذار بها والتخويف عنها، وقد جاءت آيات فى كتاب الله تعالى، وورد عن النبى ﷺ ما يدل على قربها، قال تعالى **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾** وقال تعالى **﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾** وقال تعالى **﴿ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾** وقال ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين) وأشار بالسبابة والوسطى، والمعنى أن القرب بين بعثة النبى والساعة كالقرب بين الإصبعين .

أما أشراطها وعلاماتها فأننا نذكر منها فى هذا المختصر العلامات الكبرى المتفق عليها، وهى خمس، خروج الدجال، ثم نزول عيسى عليه السلام، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها .

أما الدجال فقد ورد فى شأنه عدة أحاديث صحيحة، متواترة المعنى، تدل على أنه سيظهر فى آخر الزمان دجالا، يظهر للناس خوارق كثيرة، وغرائب يفتتن بها خلق كثير، وأنه كافر وإن من اتبعه هلك ومن خالفه نجا، وأنه يقتل على يد عيسى عليه السلام .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (ينزل الدجال بعض السباخ التي بالمدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو رجل هو خير الناس، أو من خير الناس، فيقول أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون في الأمر فيقولون لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم، فيقول الدجال أقتله فلا يسلط عليه).

وأما نزول عيسى عليه السلام فقد جاء في صحيح مسلم عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة يقول، قال رسول الله ﷺ (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد).

وجاء فيه أيضا عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت النبي ﷺ يقول:

(لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم قال فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل لنا فيقول لا إن بعضكم أمراء تكرمة الله هذه الأمة).

وأما يأجوج ومأجوج فهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح عليه السلام خلف الحاجز الذي أقامه ذو القرنين بين الجبلين الذي بقرب القطب الشمالي وقال الألوسي ذكر بعض أحبار اليهود أن يأجوج ومأجوج في منتهى الشمال حيث لا يستطيع أحد غيرهم السكنى فيه.

وجاء في صحيح مسلم بعد ذكر الدجال، وهلاكه على يد عيسى عليه السلام (ثم يأتي عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله تعالى من الدجال فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجتهم في الجنة، فبينا هم كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم،

فحاصر عبادي إلى الطور ويبعث الله تعالى يأجوج ومأجوج) إلى أن قال فيرغب نبي الله وأصحابه إلى الله فيرسل عليهم كالنغف في أعناقهم، فيصبحون فرسى، وقال تعالى ﴿قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ إلى أن قال ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقاً﴾.

وبعد ورود الأحاديث وأخبار القرآن عن يأجوج ومأجوج، وأن بيننا وبينهم سدا وحاجزا لا يزول إلا إذا تحقق وعد الله لا يسوغ لعاقل أن يشك في أمرهم، وما يدعيه بعض .الناس من أن كثيرا من المستكشفين طافوا حول الأرض، ولم يتركوا بقعة من البراري والبحار والجبال إلا وصلوا إليها، ومع ذلك لم يروا ذلك السد، ولا من خلفه، لا يقدح فيما سمعته، لأن العقل يجوز أن يكون على ظهر الأرض ما لم يره أحد إلى الآن، وعدم وجدان السائحين لا يستلزم عدم الوجود، ولا مانع من أن يكون ذلك السد بسبب تقادم الزمان قد تراكمت عليه الأتربة، وتجمدت واستحجرت، حتى صارت مع الجبلين سلسلة من الجبال، وبالجملة فبعد ورود الكتاب وأخبار الصادق المعصوم من الكذب لا معنى لهذه التشكيكات، ولا يصح الإصغاء إليها.

وأما خروج الدابة فقد دل عليه القرآن الكريم قال تعالى ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾[1] والمعنى إذا دنا وقوع مدلول القول والآيات الناطقة بمجيء الساعة أخرج الله تعالى للناس دابة عظيمة، ذات قوائم، ليست من نوع الإنسان، أصلا يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض، تكلم الكفرة المنكرين للبعث أنهم كانوا لا يتيقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها.

وأما طلوع الشمس من مغربها فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) سورة النمل الآية ٨٢.

«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون ، فيومئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا» وقال تعالى ﴿يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا﴾ [1] أى يوم يأتى بعض آيات ربك الموجبة للإيمان الاضطرارى لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل إيمانها إيمانها بعده ، فى ذلك اليوم ، ولا نفسا لم تكن كسبت فى إيمانها خيرا وعملا صالحا ما عملها تكسب من خير فيه ، لبطلان الذى يترتب عليه ثواب الإيمان والعمل الصالح بأن التكليف على ما وهب الله المكلف من الإرادة والاختيار بالتمكن من الإيمان والكفر ، والخير والشر .

والثواب والعقاب مبنى على هذا التكليف ، وقد وردت أحاديث كثيرة منها ذلك الحديث السابق تفيد أن هذه الآية التى أبهمت هى طلوع الشمس من مغربها ، قبيل الساعة ، وليس بمستحيل على قدرة الله سبحانه وتعالى التى جعلت طلوع الشمس وغروبها على الحالة التى نشاهدها أن تتعلق بتغيير مجرى الشمس وجعل طلوعها من المغرب بدل المشرق ، وقد ورد أنه بعد ذلك تخرج نار من جهة عدن ، تسوق الناس إلى المحشر ، فتنتهى الحياة الدنيا ، وينتقل الناس إلى الدار الأخرى .

البعث والمعاد

البعث إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية .

وأما المعاد فستعلم مفهومه عند ذكر المذاهب فى شأنه .

---

(١) سورة الأنعام بعض الآية ١٥٨ .

اختلف العلماء في المعاد فأنكره الفلاسفة الطبيعيون[1] مستندين في ذلك إلى أن الإنسان هو هذا الهيكل المحسوس مع طبائعه الأربع، والقوى وجميع الأعراض، وغير خاف أن الإنسان بهذا المعنى، إذا زال عنه وصف الحياة ومات فنى، ولا يبقى منه إلا المواد العنصرية المنتشرة، وبذلك صار معدوما، والمعدوم لا يعاد.

وتوقف جالينوس في المعاد فقال لم يترجح عندي أن النفس هي المزاج أو جوهر يبقى بعد فناء البدن، فإن كانت هي المزاج: أي السوداء والصفراء والبلغم والدم فالمعاد لا يمكن، لأنه بالموت ينعدم المزاج، والمعدوم لا يعاد، وإن كانت جوهرا باقيا بعد فساد المزاج كان المعاد ممكنا.

ولما كان المعاد قد أجمعت عليه الشرائع السماوية، والعقول لا تحيله، حتى إن بعض علماء الكلام يقول بوجوبه، ليصل الثواب إلى المطيع، والعقاب إلى العاصي، وأيضا فليس من الحكمة أن يكلف الإنسان، يطالب بفعل بعض الأشياء ويترك بعض الأشياء، ثم يترك بدون حساب، ولا مجازاة، مع العلم بأن بعض الأفراد قهر نفسه ومنعها عن الشهوات، والبعض الآخر أعطاها حظها مما تشتهيه، وطاوعها فيما استحسنته، من ظلم الغير، وهتك عرضه، ونهب أمواله، بل من العبث تركه مع هذا الحال، بدون أن يكون له حياة أخرى ينال فيها جزاء ما فعل في الحياة الدنيا خيرا أو شرا، والله منزه عن العبث، فلا يليق أن يهمل ذلك الإنسان بدون بعث وإعادة.

ولما كان المعاد بهذه المثابة كان قول الفلاسفة الطبيعيين ساقطا عن درجة الاعتبار، ولذلك لم يقل به أحد من محققي الفلاسفة، أما رأي جالينوس فإنه لا يعد قولا حيث إنه شاك غير جازم بطرف خاص.

---

(1) راجع في هذا الموضوع شرح المواقف للسيد الشريف جـ ٨ صـ ٢٩٤ وما بعدها وشرح المقاصد للسعد جـ ٢ صـ ١٥٥ وما بعدها.

ولهذا اتفق المحققون من الفلاسفة وجميع المليين على أن المعاد حق واقع لا محالة .

ولكنهم اختلفوا في كيفيته، والأقوال في ذلك ثلاثة:

قول محققي الفلاسفة وقول محققي الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة والصوفية .

وقول جمهور علماء الكلام .

أما قول محققي الفلاسفة فهو أن المعاد روحاني فقط وعرفوه بأنه عود النفوس إلى ما كانت عليه من التجرد عن التعلق بالبدن، واستعمال الآلات، واتصالها بعالم المجردات، وأنكروا المعاد الجسماني، مستندين إلى أدلة (في زعمهم) لا تفيد يقينا، ولا يصح النظر إليها بعد إجماع المسلمين واليهود والنصارى على المعاد الجسماني، وورود نصوص القرآن الصريحة فيه، كقوله تعالى ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم • قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ [1] .

فقد روى أنها نزلت في أبي بن خلف الذي خاصم النبي ﷺ في أمر المعاد، وأتاه بعظم قد رم وبلي، فبضه ففتته بيده، وقال يامحمد أترى الله يحيى هذا من بعد ما رم، فقال ﷺ نعم، ويبعثك ويدخلك النار .

وقوله تعالى ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه • بلى قادرين على أن نسوى بنانه﴾ [2] وقوله تعالى ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ [3] فهذه الآيات وأمثالها صريحة في المعاد الجسماني، ولا

---

(1) سورة يس الآية ٧٧ وما بعدها.
(2) سورة القيامة الآية ٣، ٤ .
(3) سورة فصلت الآية ٢١ .

داعى لتأويلها وصرفها عن ظاهرها، فالمنكر للمعاد الجسمانى منكر لما أجمع عليه أهل الملل الثلاث، ولما دلت عليه النصوص الصريحة، فإسلامه غير معتبر.

أما غير الفلاسفة من المليين فقد اختلفوا فى أن المعاد جسمانى وروحانى، أو جسمانى فقط وهذا الخلا متفرع على الخلاف فى أن الروح جوهر مجرد عن المادة، أو جسم مادى، قولان لعلماء الكلام.

فذهب محققوهم كالغزالى والراغب وبعض علماء المعتزلة، وكثير من الصوفية إلى أن الروح جوهر مجرد عن المادة، متعلق بالبدن من غير حلول فيه، وبناء على ذلك قالوا: إن المعاد جسمانى وروحانى ويعرف المعاد على رأيهم بأنه رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرق، وإلى الحياة بعد الممات، ورجوع الأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة، وإنما عرف بذلك التعريف الذى يفهم منه أن الجسم بعد الموت لم ينعدم، وإنما تفرقت أجزاؤه، لأن الذى يميل إليه كلام الغزالى، وكلام كثير من موافقيه أن معنى الإعادة أن يخلق الله تعالى من الأجزاء المتفرقة لذلك البدن، بدنا فيعيد إليه نفسه المجردة الباقية بعد خراب البدن، وهذا صريح فى أن الجسم لم ينعدم، وإنما تفرقت أجزاؤه، كذلك يشير إلى أن الجسم المعاد مغاير للجسم الأول، بحسب الشخص، ولا ضرر فى ذلك، لأن المدار فى تحقق المعاد على كون الأجزاء الأصلية هى التى تجمع بعد التفرق، أما كونها تظهر على الحالة التى كانت عليها فى الدنيا، أو على حالة وصفة أخرى فلا يضر، على أنه قد ورد ما يستفاد منه أن هناك تغيرا بحسب الشخص.

فقد جاء فى السنة «أن أهل الجنة جرد مرد، وأن ضرس الكافر يكون مثل جبل أحد»، وجاء فى القرآن قوله تعالى ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾، ويشير إلى هذا أيضا قوله تعالى ﴿أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾، ولهذا يقال للشخص من الصبا للشيخوخة إنه هو بعينه وإن تبدلت الصور والهيئات.

ولا يقال لمن جنى فى الشباب وعوقب فى المشيب إنها عقوبة لغير الجانى،

وقوله تعالى ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ لا ينافى أن هنالك تغيرا بين الجسمين بحسب الشخص والأوصاف، لأن الألسنة والأيدى والأرجل من الأجزاء الأصلية، التى من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره، ولو قطعت قبل موته، بخلاف التى ليس من شأنها ذلك كالظفر والشعر، وأصحاب هذا القول قائلون إن الأجزاء الأصلية تبقى، وعند البعث تعود إلى الاجتماع .

وذهب كثير من علماء الإسلام إلى أن الروح جسم لطيف، نورانى سار فى البدن سريان الماء فى الورد .

وبناء على هذا قالوا إن المعاد جسمانى فقط، ويعرف حينئذ بأنه الرجوع إلى الوجود بعد الفناء، أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرق، ورجوع الأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة، وهذا الفريق لم يختلف مع فريق المحققين فى أن المعاد هو الجسم والروح، إلا أن فريق المحققين لما جرى على أن الأرواح جواهر مجردة قال إن المعاد جسمانى بالنظر إلى الجسم، وروحانى بالنظر إلى الروح، التى هى من المجردات، وليست بجسم، أما هذا الفريق فقال إن المعاد جسمانى فقط، ومعناه أن الجسم الذى هو هذا الهيكل يعاد والروح التى هى جسم سار فى البدن تعود إلى الحلول فى البدن .

وقد اختلف القائلون بالمعاد الجسمانى فقط فى كيفيته، فنقل عن إمام الحرمين أنه اختار التوقف وعدم الجزم بكون الجسم بعد الموت ينعدم بالكلية، أو تتفرق أجزاؤه، حيث قال يجوز عقلا أن تعدم الجواهر ثم تعاد .

ويجوز أن تبقى الجواهر وتزول أعراضها التى منها اجتماعها، ثم يعاد تأليفها، ولم يرد من السمع دليل قاطع على تعين كون الإعادة بعد العدم، أو بعد تفريق الأجزاء، فليس من المستبعد أن تتحول أجسام العباد إلى أجزاء متفرقة على صفة أجسام التراب، ثم يعاد تركيبها إلى الحالة المعهودة، وليس بمستحيل أن يعدم منها شىء ثم يعاد .

وقال صاحب المقاصد إن هذا القول هو الحق .

وقال بعض علماء الكلام تنعدم ولا يبقى منها شيء ثم تعاد بعد العدم واستدلوا فى ذلك إلى أدلة منها قولهم إن الإجماع من زمن الصحابة رضى الله عنهم إلى زمن ظهور المخالفين من بعض المعتزلة وأهل السنة انعقد على أن إعادة الأجسام بعد العدم وحينئذ لا عبرة بظهور المخالف ، ورد هذا الدليل بمنع تمام الإجماع على ما ذكر ، وكل ما عرف عن الصحابة أنهم مجمعون على بقاء البارى سبحانه وتعالى وفناء الخلق ، وعلى أن العالم حياة أخرى أبدية فى الدار الآخرة ، ولم يكن من شأنهم الخوض فى كون الإعادة بعد العدم ، أو بعد تفرق الأجزاء .

ومن أدلة هذا الفريق قوله تعالى ﴿هو الأول والآخر﴾ أى هو الأول فى الوجود ، فوجود العالم ليس مع وجوده ، والآخر فى الوجود فالعالم يفنى ولا يبقى من يتصف بالوجود سواه ، وهذا المعنى لا يتحقق إلا إذا انعدم الجسم كلا وجزءا ، أو يندفع الاستدلال بهذه الآية بأنها ليست نصا فى ذلك المعنى المذكور ، ويحتمل أن يكون معناه[1] هذا المرجع فى كل شيء كما يقال فى الشخص عند إرادة مدحه بأن حاجات الناس تنتهى إليه (هو الأول والآخر) أى مرجع أصحاب الحاجات ، لا فرق بين حاجة وحاجة ، ويحتمل غير ذلك ، وحينئذ لا تكون نصا فى المدعى فلا يصح الاستدلال بها .

ومن الأدلة قوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أى أن كل شيء من المخلوقات سيهلك لا محالة ، والهلاك لا يكون إلا بانعدام الشيء الهالك ، ويمكن أن يقال إن الهلاك كما يطلق على المعنى المذكور ، يطلق على الخروج عن الانتفاع المقصود به اللائق بحاله ، كما يقال هلك الطعام إذا لم يبق صالحا للأكل ، وإن صلح لمنفعة أخرى ، فالآية حينئذ محتملة ، وليست نصا فى

---

(١) هكذا فى النسختين المطبوعتين بلفظ (هذا) وأرى أن الصواب هو المرجع فى كل شيء .

المطلوب، وبالجملة فالأدلة التي استند إليها هذا الفريق لا تصلح لإثبات مدعاه .

وقال بعض علماء الكلام إن الأجسام لا تنعدم بالموت، بل تتفرق أجزاؤها وعند الإعادة تجمع الأجزاء ثانية، ويتكون منها الجسم، واستدلوا على ذلك بالنصوص القرآنية الدالة على أن المعاد يكون بجمع أجزاء الجسم بعد تفريقها .

مثل قوله تعالى حكاية لما وقع من سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا[1] وقوله تعالى ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾ وقوله تعالى ﴿إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ فإن قوله تعالى في الآية الأولى ﴿فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا﴾ وقوله تعالى في الآية ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾ وقوله تعالى في الثالثة ﴿إذا مزقتم كل ممزق﴾ يدل على أن الإعادة هي ضم الأجزاء إلى بعضها بعد التفرق، وتأويلها وحملها على معان أخر ينبو عنه ظاهرها .

وقال شيخنا الأستاذ محمد بخيت في كتابه : القول المفيد ما نصه وقد تبين من الاستكشاف الحديث أن المواد البسيطة لا تتلاشى بالكلية، ولا تزيد ولا تنقص في الطبيعة، وإنما هي على الدوام في تحليل وتركيب، وأن تلاشي الأشياء بحسب ما يظهر لنا لا يدل على تلاشيها في الواقع، ونفس الأمر، ألا ترى أن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .

السكر يذوب فى الماء فيظهر لنا أنه تلاشى ولكن العقل يجزم بأنه ما تلاشى، وإنما تفرقت أجزاؤه بحيث يمكن جمعها مرة أخرى كما تحقق ذلك بالعمليات الكيماوية، فإعدام العالم ليس إلا عبارة عن تحليله وتفريقه، بحيث يكون كالسكر فى الماء، أو التراب فى الهواء، وإعادته ليست إلا عبارة عن جمع أجزائه مرة أخرى بحيث تجتمع الأجزاء الأصلية لكل جسم، وتصاغ بصبغة باقية لا تقبل الفناء، وتصور بصورة تناسب العالم الأخروى الذى هو من عالم الملكوت، وعالم الأرواح والملائكة، وهذا هو الذى تؤيده الأحاديث ا هـ.

وهذا القول هو الذى يجب التعويل عليه، فإنه لا يرد عليه من التشكيكات ما يرد على القول بأن الجسم ينعدم ثم يعاد.

العقائد السمعية المتعلقة بالمعاد

(١) هول الموقف (٢) الميزان (٣) الصحف (٤) الحساب (٥) الحوض (٦) الصراط (٧) شهادة الأعضاء (٨) الشفاعة.

هول الموقف

هول الموقف هو ما يصيب الإنسان فيه من الشدائد والآلام، وقد دل مجموع الكتاب والسنة على أنه يحصل للإنسان فى اليوم الآخر أهوال كثيرة، قال تعالى ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ وقال تعالى ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ وفى حديث مسلم تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار

ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، وأشار النبي ﷺ إلى فيه، وحقويه تثنية حقو، وهو الكشح الذي بين الخاصرة إلى الضلع وشهيد﴾ وقال تعالى ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ وقال تعالى ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ .

الميزان

جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن لله تعالى ميزانا تعرف به أعمال العباد، من خير أو شر، يوم القيامة، ولم يرد في وصفه ما يصح الاعتقاد عليه فيجب الإيمان به، وتفويض علم حقيقته إلى الله سبحانه وتعالى .

قال تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ وقال تعالى ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ وقال تعالى ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾، ولا داعي لصرف الآيات عن ظاهرها وتأويل الميزان بالعدل الثابت في كل شيء، كما قالت المعتزلة محتجين بأن الأعمال أعراض، والأعراض لا توزن، فإن الآيات القرآنية يتبادر منها أن المراد الميزان بالمعنى العرفي، وهو ما يعرف به أعمال العباد من خير وشر، وحيث إن القرآن أطلقه فالمتبادر منه المعنى المتعارف، وعلى كل فمنكر أصل الميزان كافر، حيث إنه ورد في كتاب الله تعالى .

الصحف

الصحف هي ما تكتب فيها الملائكة أعمال المكلفين، من الأقوال والاعتقادات وأعمال الجوارح قال تعالى ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه

ويخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا﴾ وقال تعالى ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب إلى أهله مسرورا . وأما من أوتي كتابه وراء ظهره . فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا﴾ ، وبالجملة فالصحف هي الكتب التي أحصت جميع أعمال العباد المكلفين ، وقد دل عليها كتاب الله تعالى والأحاديث النبوية الصحيحة ؛ والحمل على الحقيقة ممكن ، فيجب الإيمان بها بلا تأويل لعدم الحاجة إلى ذلك ، ونفوض حقيقة هذه الصحف وكيفية الكتابة فيها إلى الله تعالى .

الحساب

الحساب معناه لغة العد واصطلاحا توقيف الله عباده في المحشر على أعمالهم خيرها وشرها ، فعلا وقولا واعتقادا .

ويكون بأن يكلمهم الله تعالى بكلامه الذي ليس بحرف ولا صوت ، بأن يزيل عنهم الحجاب حتى يفهموا منه ما يريد أن يفهموه ، أو يكلمهم الله تعالى بأصوات وحروف يخلقها فيما يشاء ، وقد يكون الحساب من الملائكة ، وقد يكون منه تعالى ومن الملائكة جميعا في آن واحد .

وكيفيته مختلفة . فمنه اليسير ومنه العسير ، ومنه السر ومنه الجهر ، ومنه ما يكون معه التفضل ، ومنه ما يكون معه العدل ، وذلك على حسب اختلاف الأعمال ، وهو عام لكافة الخلق من الإنس أو الجن ، ويكون بعد أخذ الصحف لقوله تعالى ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب إلى أهله مسرورا﴾ الآية .

وأيسر الحساب حساب الله تعالى فقط لعبده سرا ، حتى لا يعلم بذلك أحد من الإنس والجن ، والملائكة ، ولا يكون الحساب للمعصومين ، ولا لمن ورد

استشارهم فى الأحاديث الصحيحة ، وهم سبعون ألفا أفضلهم أبو بكر رضى الله عنه ، وقد نطقت النصوص الكثيرة بالحساب ، وكذلك الأحاديث من ذلك قوله تعالى ﴿والله سريع الحساب﴾ والآية السابقة ، وقوله ﷺ (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) والحكمة فى الحساب مع أن الله تعالى عالم بتفاصيل الأعمال إظهارا لفضائل المتقين وفضائح العصاة على رؤوس الأشهاد تتميما لمسرة الأولين وحسرة الآخرين .

الحوض

ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال (حوضى مسيرة شهر ، وزواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه أكثر من نجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبدا) ، وأنكر المعتزلة وجود حوض بهذا المعنى ، وقالوا إن الحوض عبارة عن نوع من الرضا والرضوان ، يتفضل به الله تعالى على من يشاء من عباده ، وهذا تأويل ينبو عنه لفظ الحديث المذكور ، فالحق وجوب اعتقاد أن لنبينا ﷺ حوضا موروودا كما دل عليه الحديث ، ولكون ثبوت الحوض بالحديث لم يكفر منكره وإن فسق .

الصراط

الصراط لغة الطريق الواضح وشرعا جسر ممدود على متن جهنم بين الموقف والجنة ، يرده جميع الخلائق من المؤمنين والكافرين ، للمرور عليه ، هو أدق من الشعرة وأحد من السيف ، كما ورد فى الحديث الصحيح . وقد ورد أن المارين عليه مختلفون ، فمنهم من ينجو من الوقوع فى النار ، وهؤلاء يتفاوتون فى سرعة

المرور وبطئه، على قدر تفاوتهم فى الأعمال الصالحة، والإخلاص فيها وإعراضهم عن المعاصى، ومنهم من لا يسلم من الوقوع فى النار، وهؤلاء يتفاوتون أيضا بقدر الجرائم التى ارتكبوها، فمنهم من يخلد فى النار، ولا يخرج منها وهم الذين ماتوا على الكفر، ومنهم من لا يخلد وهم عصاة المؤمنين من جميع الأمم، ويشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا. ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا﴾[1] أى ننجى الذين اتقوا على حسب تفاوت درجاتهم فى التقوى، التى أدناها اتقاء الشرك بالله تعالى، ونترك الظالمين الذين لم يتقوه أصلا، وهم الذين ماتوا على الكفر جثيا.

وأنكر المعتزلة وجود الصراط بهذا المعنى، وقالوا إنه بهذا المعنى مستحيل لأنه لو كان على هذا الوصف لا يمكن العبور عليه لأحد، فإيجاده عبث، وقال أهل السنة إن وجود الصراط بهذا المعنى من الممكنات العقلية، وقد وردت النصوص القواطع به، فيجب الإيمان به عملا بالنصوص القطعية، قال تعالى ﴿فاستبقوا الصراط﴾ وقال ﷺ (يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجوزه) وكونه أدق من الشعرة وأحد من السيف لا يمنع إمكان العبور عليه عقلا، غايته أنه مستبعد فى العادة، وذلك لا يسوغ تأويل النصوص الواردة فيه، والحق وجوب اعتقاد وجود الصراط عملاً بظواهر النصوص مع تفويض علم حقيقته إلى الله تعالى.

شهادة الأعضاء

جاء فى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة بما عمل من خير أو شر، فيجب الإيمان بذلك، قال تعالى ﴿يوم

---

(١) سورة مريم الآيتان ٧١، ٧٢.

تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾(١) وقال تعالى ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء﴾(٢).

الشفاعة

الشفاعة لغة هى الوسيلة والطلب، وعرفا سؤال الخير من الغير للغير، وهى خمسة أنواع .

النوع الأول الشفاعة فى فصل القضاء لإراحة الخلق جميعا المسلم وغيره من طول الوقوف ومشقته، وهى مختصة به ﷺ بالإجماع، فقد ورد أن الناس يذهبون فى هذا الوقت إلى الرسل من آدم إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام: يسألونهم الشفاعة فى الانصراف من ذلك الموقف، فكل يبدى حجة يستند عليها فى تأخره عن الشفاعة، إلى أن يذهبوا إلى نبينا محمد ﷺ يسألونه الشفاعة، فيقول أنا لها أنا لها، فيسجد تحت العرش فيقول الله له ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع فيرفع رأسه .

النوع الثانى: الشفاعة فى إدخال فريق الجنة بغير حساب، وقال بعض العلماء إن هذا النوع أيضا مختص به ﷺ .

النوع الثالث: الشفاعة فى زيادة الدرجات وهذه ليست خاصة بالنبى إجماعا وهذه الأنواع الثلاثة لم يخالف فيها أحد من علماء الكلام .

النوع الرابع الشفاعة فيمن استحق دخول النار من عصاة المؤمنين لارتكابه كبيرة أن لا يدخلها .

---

(١) سورة النور الآية ٢٤ .

(٢) سورة فصلت الآية ٢١ .

النوع الخامس الشفاعة في إخراج قوم من النار دخلوها لارتكابهم كبائر غير الشرك، وهذان النوعان وقع فيهما خلاف بين علماء الكلام، فأنكرهما المعتزلة والخوارج، وكل من قال إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، وقال بهما الأشاعرة والماتريدية والكرامية، وبعض الرافضة.

احتج الفريق المانع بآيات كثيرة جاءت في كتاب الله تعالى قال جل جلاله ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾[1] وقال تعالى ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ وقال تعالى ﴿قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا﴾ وقال تعالى ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة﴾[2]، وقال تعالى ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ وقال تعالى ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾. وقال تعالى ﴿ولا يؤخذ منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾.

والجواب أن هذه الآيات قطعية الثبوت، ظنية الأدلة، لأنها قد خصصت[3] من الشفاعة لزيادة الثواب فإنها حاصلة للمؤمنين اتفاقا، والعام إذا دخله التخصيص صار ظنيا، وحينئذ يجوز تخصيصه بخبر الآحاد الصحيح، وهو قوله ﷺ (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) وقد يقال لهذا الفريق المستدل بالآيات السابق ذكرها، أنه لا يجوز الاقتصار على بعض القرآن دون بعض، ولا على بعض السنة دون بعض، ولا على القرآن دون بيان رسول الله ﷺ الذي خاطبه ربه بقوله ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾، وقد جاء في القرآن ما يدل على صحة الشفاعة قال تعالى ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المدثر.

(٢) الآية رقم ٤٨ من سورة البقرة.

(٣) هكذا وردت العبارة في النسختين المطبوعتين، وأعتقد أن فيها تحريفا والصواب أن يقال: لأنها قد خصصت بالشفاعة لزيادة الثواب.

ورضى له قولا ﴾[١] وقال تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له[٢] وقال تعالى ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ وغير ذلك من الآيات، وحيث إن القرآن قد اشتمل على آيات فى موضوع واحد، بعضها ينفيه، وبعضها يثبته، ولا يمكن أن يكون محط الإثبات والنفى واحدا، لئلا يلزم التناقض فى كلام الله تعالى وهو محال، فوجب إذاً أن تكون الشفاعة التى نفاها البارى سبحانه وتعالى غير التى أثبتها، فالشفاعة التى أبطلها هى الشفاعة للكفار المخلدين فى النار، أما التى أثبتها فهى لمذنبى أهل الإسلام، وبذلك جاء الخبر الصحيح، قال ﷺ «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»[٣].

الجنة والنار

الكلام على الجنة والنار ينحصر فى ثلاث نقاط:

الأولى بيان مفهومهما.

الثانية أثبات وجودهما قبل اليوم الآخر.

الثالثة إثبات كونهما باقيتين لا يفنيان.

المفهوم

الجنة لغة البستان، والمراد بها هنا دار الثواب، التى أعدها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين.

---

(١) سورة طه الآية ١٠٩.

(٢) سورة سبأ الآية ٢٣ (٣) حديث صحيح.

وقد ورد أنها سبع جنات: أعلاها وأفضلها الفردوس، فجنة المأوى، فجنة الخلد، فجنة النعيم، فجنة عدن، فدار السلام، فدار الإجلال. واختار هذا ابن عباس وجماعة.

وذهب الجمهور إلى أنها أربع فقط، بدليل ما جاء فى سورة الرحمن قال تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ جنة النعيم وجنة المأوى، ثم قال تعالى ﴿ومن دونهما جنتان﴾ جنة عدن وجنة الفردوس، وقيل الجنة واحدة، والأسماء المتقدمة كلها صادقة عليها، لتحقق معانيها فيها، إذ يصدق عليها أنها جنة عدن أى أقامة، وجنة المأوى أى مأوى المؤمنين، وجنة الخلد ودار السلام، لأنها دار خلود وفيها السلامة، من كل خوف وحزن، وجنة النعيم لأنها مشحونة بأصناف النعيم، ودار الإجلال لأنها دار التعظيم للعباد الصالحين، والحق الذى يجب الإيمان به أن هناك دار ثواب، أعدها الله تعالى للمؤمنين من عباده سماها بالجنة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأما أنها واحدة أو أكثر فالأسلم الإمساك عنه، وتفويض علمه إلى الله تعالى، حيث لم يرد فى ذلك نص قاطع.

والنار لغة جسم لطيف محرق يميل إلى جهة العلو، والمراد بها هنا دار العقاب، التى أعدها الله تعالى للعصاة من عباده.

والذى يجب اعتقاده أن لله تعالى دار عقاب، أعدها للعصاة، تسمى نار جهنم لها سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم، وقد قال المفسرون لكل فريق من العصاة باب يدخل منه إلى النار، فباب للموحدين العصاة، وباب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للمشركين، وباب للمنافقين.

وأما أنها سبع طبقات، أو أكثر أو أقل، فلا يجب الإيمان به لعدم ورود نص قاطع يشهد بذلك.

وجود الجنة والنار قبل اليوم الآخر

ذهب جمهور المسلمين إلى أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وذهبت[١] طائفة من المعتزلة والخوارج إلى أنهما لا يخلقان قبل يوم الجزاء، فليستا موجودتين الآن .

استدل جمهور المسلمين بدليلين الأول قصة أبينا آدم عليه السلام مع زوجه حواء وإسكانهما الجنة ثم إخراجهما منها بسبب الأكل من الشجرة، وهذه القصة ذكرت في عدة آيات من كتاب الله تعالى، وفيها التصريح بلفظ الجنة، والمتبادر من ذلك اللفظ إنما هو دار الثواب، فينصرف إليه، حيث لا ضرورة إلى العدول عنه .

وقد جاء في القرآن في وصف جنة آدم ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾، وجاء في وصف الجنة التي هي دار الثواب ﴿ولا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا﴾ فإذا نظرت إلى مجموع هذه الأوصاف ترجح عندك أن جنة آدم هي دار الثواب. وإذا ثبت أن الجنة مخلوقة، فالنار أيضا مخلوقة، لأن القائل بخلق الجنة قائل بخلق النار، والمنكر لخلق الجنة منكر لخلق النار، ولا قائل بالفصل .

الدليل الثاني قوله تعالى في الجنة ﴿أعدت للمتقين﴾[٢] ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ وقوله تعالى في النار ﴿أعدت للكافرين﴾[٣] بصيغة الماضي الدالة على أن كلا من الجنة والنار قد أعده الله وهيأه لمستحقه، ولا يهيأ

---

(١) راجع في هذا الموضوع شرح المواقف للسيد الشريف جـ ٨ صـ ٣٠١ وما بعدها وشرح المقاصد للسعد جـ ٢ صـ ١٦١ .

(٢) جزء الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

(٣) .جزء الآية رقم ٢٤ من سورة البقرة.

يتحقق إلا ما كان موجودا، فدلت هذه الآيات على وجودهما بالفعل، والقول بأنه عبر بصيغة الماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه، مثل قوله تعالى ﴿أتى أمر الله﴾ وقوله ﴿ونفخ في الصور﴾ عدول عن الظاهر بدون مقتضى فلا يصار إليه.

وأما المنكرون لوجودهما فمنهم من تمسك بالعقل، ومنهم من تمسك بالسمع

فالمتمسك بالعقل قال إن الله تعالى منزه عن العبث في قوله وفعله، وأفعاله لا تخلو عن حكمة، لذلك يجب أن لا توجد الجنة والنار قبل يوم الجزاء، لأن إيجادهما لإثابة المطيع وعقاب العاصي، ولا إثابة ولا عقوبة قبل ذلك اليوم، فلو وجدتا قبل ذلك اليوم لكان إيجادهما عبثا، والعبث محال على الله تعالى، فوجب أن لا يوجدا قبل ذلك اليوم.

ويجاب عن ذلك بأن الحكمة في إيجادهما لم تنحصر فيما ذكر، فيجوز أن يكون لخلقهما قبل يوم الجزاء حكمة لم نطلع عليها، وكثير من أفعال الله تعالى عجزنا عن إدراك حكمتها، ولكن لما دلت النصوص عليها وجب التسليم والخضوع، وإن لم نفهم الحكمة، فكذلك الجنة والنار دلت النصوص والأحاديث على وجودهما فيجب التسليم.

وأما المتمسك بالسمع فقد استدل بدليلين الأول قوله تعالى ﴿أكلها دائم﴾ مع قوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾.

ووجه الاستدلال بذلك أن قوله تعالى ﴿أكلها دائم﴾ معناه مأكول الجنة دائم لا يلحقه فناء، وقوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ معناه كل شيء من المخلوقات يلحقه الهلاك لا محالة، وحينئذ يقال إذا كانت الجنة مخلوقة الآن وجب أن يلحق مأكولها الهلاك، بمقتضى الآية الثانية لاندراجها فيما حكم عليه بالهلاك، وحينئذ لا يكون مأكولها دائما، ولكن الآية الأولى تبطل هذا، لأنها صريحة في أن مأكول الجنة لا يلحقه هلاك، فللعمل بالآيتين وعدم التنافي بينهما يتعين أن تكون الجنة غير مخلوقة الآن، وإذا ثبت هذا للجنة ثبت للنار.

والجواب أنه لا تنافى لأن المراد، بدوام مأكول الجنة الدوام البدلى، بمعنى أنه كلما فنى منه شىء جىء ببدله، لأن دوام المأكول بعينه لا يتصور، فإنه متى أكل فنى، وحيث كان المراد الدوام البدلى فلا تنافى بينه وبين الهلاك، ويحتمل أن يكون المراد من الهلاك الهلاك الإدعائى، بمعنى أن الممكن لما كان وجوده ضعيفا لاستفادته من الغير، ألحق بالهالك المعدوم، ويحتمل أن يكون الهلاك باقيا على حقيقته ولكنه يكون بتفريق الأجزاء لحظة ثم يعودان إلى ما كانا عليه، وهذا كاف فى اهلاكهما فيكون الدوام الذاتى حاصلا، وعليه قوله تعالى ﴿أكلها دائم﴾ والهلاك الصورى بمعنى تفريق الأجزاء حاصل فى لحظة واحدة، وعليه يحمل قوله تعالى ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾ .

الدليل الثانى قوله تعالى فى وصف الجنة ﴿عرضها السموات والأرض﴾ فهذه الآية بظاهرها تدل على أن عرض الجنة هو السموات والأرض، فلو كانت الجنة موجودة الآن لكنا فى الجنة، وهذا باطل .

والجواب عن ذلك أن المراد عرضها كعرض السموات والأرض وقد جاءت آية أخرى فى القرآن فيها التصريح بأن عرضها كعرض السموات[1] والأرض فتحمل الآية المستدل بها على التشبيه كما صرحت به الآية الثانية، وعلى كل فهذا كناية عن الاتساع .

بقاء الجنة والنار وعدم فنائهما

قال صاحب الملل والنحل اتفقت فرق الأمة كلها على أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها، إلا جهم بن صفوان وأبا الهذيل العلاف، وقوما من الروافض، فأما جهم فقال إن الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما، وأما

أبو الهذيل فقال إن الجنة والنار لا يفنيان ولا يفنى أهلهما، إلا أن حركاتهم تفنى ويبقون بمنزلة الجماد لا يتحركون، وهم فى ذلك أحياء متلذذون، أو معذبون، وأما طائفة الروافض فقالت إن أهل الجنة يخرجون من الجنة، وكذلك أهل النار من النار، إلى حيث شاء الله، وليس لطائفة الروافض شبهة، فضلا عن دليل يصح أن يكون مستندا لقولهم، فكان قولا ساقطا عن درجة الاعتبار، أما جهم ابن صفوان فاستند إلى قوله تعالى ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾ وإلى قوله تعالى ﴿وأحصى كل شىء عددا﴾ ووجه الاستدلال بالآية الأولى أنها تفيد بمقتضى اشتمالها على أداة العموم أن ما عدا الله تعالى وصفاته سيهلك، ومن ضمن ما عدا الله وصفاته الجنة والنار، وما فيهما: فهما هالكان لا محالة.

والجواب عن ذلك يعلم بالوقوف على معانى الآية المحتملة لها، التى ذكرت فى مبحث خلق الجنة والنار، ووجه الاستدلال بقوله تعالى ﴿وأحصى كل شىء عددا﴾ أنها أفادت أن جميع الأشياء قد أحصاها العدد، وكل ما أحصاه العدد فهو ذو نهاية، ومن ضمن ما يصدق عليه الشىء الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، فيكون كل منهما قد أحصاه العدد فيكون متناهيا.

والجواب عن ذلك أن لفظ (شىء) فى الآية معناه الوجود، والإحصاء إنما يكون لما خرج بالفعل ووجد، ومعلوم أن ما وجد فى الخارج من نعيم الجنة وعذاب النار، وما تحقق من الأزمنة يفنى، ولكن يوجد الله تعالى غيره، فكلما فنى نعيم وجد بدله، وكلما مضى زمن خلفه زمن آخر، وحينئذ لا تدل الآية على فناء الجنة والنار بمعنى انعدامهما.

وأما أبو الهذيل فمستنده أن كل ما أحصاه العدد فهو ذو نهاية، والحركات ذات عدد فهى متناهية، والجواب أن الذى يقع عليه العدد هو الموجود بالفعل، ونحن لا ننازع فى أن ما وجد بالفعل متناه، ولكنا نقول ستتبع هذه الحركات التى وجدت بالفعل حركات أخرى توجد، وهكذا، وكان اللازم لأبى الهذيل أن يقول فى نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار بقوله فى الحركات، لأن الموجود منه فى

الخارج يُمَدُّ ويمصى، ولو كان ما قاله أبو الهذيل صحيحاً لكان أهل الجنة فى عذاب دائم، وكان حالهم كحال المفلوج، ومن سقى بنجا وهذا شقاء لا نعيم.

أما مستند ما اتفقت عليه فرق الأمة الإسلامية فقوله تعالى ﴿خالدين فيها أبدا﴾ وقوله تعالى ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ وإجماع الفرق المسبوق بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وقوله تعالى ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾ فى حق أهل النار وقوله تعالى ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ فى حق أهل الجنة، وتعليق الخلود على دوام السموات والأرض جرياً على عادة العرب من أن الشيء الذى يدوم ولا ينقطع يعلقونه على دوام شيء يطول زمنه، أما المشيئة المذكورة فى صيغة الاستثناء فإنما أتى بها لبيان أن ذلك الخلود أمره موكول إلى مشيئة الله تعالى، وليس واجبا عليه، غاية الأمر أن ما جاء من الوعد والوعيد هو الذى قضى بوجوب الخلود.

الدعوة إلى الإسلام ووجوب تبليغها وحكم من لم تبلغه

الإسلام أو الدين الإسلامى يتكون من أمور ثلاثة: اعتقادات، وأقوال وأفعال، أوحى الله تعالى بها إلى نبيه محمد ﷺ، وأمره أن يبلغها إلى جميع من أرسل إليهم، من الإنس والجن، قال تعالى ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر﴾ وقال تعالى ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾، وتقدم فى مبحث صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام أن مما يجب لهم تبليغ ما أمروا بتبليغه إلى الخلق، كذلك أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أن يسلك مع قومه ما يناسب حالهم من البيان وطرق الإلزام.

فالخواص وهم أصحاب النفوس المستعدة لإدراك المعانى الراغبة فى تحصيل اليقين، أمر الله نبيه بأن يدعوهم إلى الإسلام، ويقيم لهم الحجج القطعية،

والبراهين الصحيحة، على أنه محق فى دعواه، والعوام وهم أصحاب النفوس الضعيفة الاستعداد، شديدة الألف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم والعادات التى لا تقوى على إدراك البراهين إن لم يكن عندهم عناد أمره بأن يدعوهم إلى الإسلام ويؤيد دعواه بالخطابات المقنعة، والعبر النافعة، وإن كانوا معاندين لا تنفع فيهم المواعظ والعبر، أمره بأن يجادلهم بالطريقة الحسنى، وقد بينت هذه الطرق الحكيمة فى قوله تعالى آمرا لنبيه بالتبليغ ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ قال بعض المفسرين «السبيل» هو الإسلام و «الحكمة» هى الحجة القطعية المزيحة للشبه، و «الموعظة الحسنة» هى الخطابات المقنعة والعبر النافعة، و «المجادلة بالتى هى أحسن» هى المناظرة مع الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات المشهورة.

فهذه الطرق الحكيمة ذكرت فى الآية ليختار الداعى إلى الحق منها ما يناسب حالة المدعو واستعداده.

وقد مكث النبى ﷺ مدة الرسالة وهو قائم بتبليغ التعاليم كما أمره الله تعالى بها.

وهذا التبليغ كما أوجبه الله تعالى على نبيه ﷺ أوجبه على أفراد أمته، ولكن على وجه الكفاية إن قام به البعض سقط عن الباقين، قال تعالى ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[1] قال بعض المفسرين تتناول هذه الآية مطالبة أفراد من الأمة بدعوة الناس إلى الإسلام واجتناب الشرك، والأمر فيها للوجوب، فيجب أن يقوم من الأمة الإسلامية بالدعوة إلى الإسلام أفراد، حتى يخرج الجميع عن المهلة، ومتى حصل التبليغ فلا عذر لأحد ممن بلغتهم الدعوة، فإن أجابوا داعى الله نجوا من العقاب، وإن أعرضوا استحقوا الخلود فى النار.

---

(1) الآية رقم ١٠٤ من سورة آل عمران.

أمّا من لم تبلغه الدعوة بأن نشأ فى مكان منقطع عن العالم وأخباره، فلم يعلم بإرسال نبى يدعو الناس إلى اعتناق دين سماوى، فقد اختلف علماء الكلام فيه من حيث نجاته وعدمها، والخلاف فيه متفرع على الخلاف فى مسألة الحسن والقبح، وحاصل ما قيل فيها على الإجمال أن حسن الفعل بمعنى استحقاق فاعله المدح والثواب من الله تعالى، وقبحه بمعنى استحقاق المتصف به الذم والعقاب من الله تعالى، شرعى عند الأشاعرة، بمعنى أن كون الفاعل مستحقا للمدح والثواب أو لضدهما ليس ناشئا عن ذات الفعل، ولا عن صفة فيه، وإنما عرف من أمر الشارع ونهيه، فما أمر به الشارع فهو حسن وما نهى عنه فهو قبيح، ولو فرض وأن الشارع أمر بالمنهى عنه أو نهى عن المأمور به لانعكس الأمر، فلا حسن ولا قبح بالمعنى المذكور فى الفعل قبل ورود الشرع. وعند المعتزلة والماتريدية عقلى أى لا يتوقف على الشرع، لكن عند الماتريدية لا يستلزم حكما من الله تعالى وعند المعتزلة يستلزم حكما وقد تقدم هذا المبحث مستوفى بأدلته[١].

وبناء على ذلك الخلاف قالت الأشاعرة إن من لم تبلغه الدعوة لا يؤاخذ بشىء (ما) سواء كان من الأصول أو الفروع، لأن الشرع لم يصل إليه، وعند المعتزلة يؤاخذ بإتيان الكفر، وارتكاب ما يستقل العقل بإدراك قبحه، وعند الماتريدية لا يؤاخذ، لأنهم وإن وافقوا المعتزلة فى أن فى الفعل حسنا وقبحا[٢] بالمعنى المذكور، لكنهم قالوا إنه لا يستلزم حكما، وغاية الأمر أنه يصير موجبا لاستحقاق الحكم من الحكيم فما لم يحكم الله فليس فى الفعل حكم أصلا. ولأجل ذلك اشترطوا بلوغ الدعوة فى تعلق التكليف، فالكافر الذى لم تبلغه الدعوة غير مكلف بالإيمان، وغير مؤاخذ بالكفر فى الآخرة، وحيث كان

---

(١) راجع الجزء الثانى صـ ١٤١ وما بعدها من هذا الكتاب.
(٢) راجع صـ ١٤١ وما بعدها من الجزء الثانى من هذا الكتاب.

الخلاف فى هذه المسألة فرع الخلاف فى مسألة الحسن والقبح فالواجب صناعة فى بيان المذهب الراجح أن نرجح ما ساعده الدليل فى مسألة الحسن والقبح، وقد تقدم أن أرجح المذاهب فيها هو مذهب الماتريدية، ومذهب الماتريدية هنا عدم مؤاخذة من لم تبلغه الدعوة فيكون موافقا لمذهب الأشاعرة فيها، وإن لم يتفقا فى مسألة الحسن والقبح. أما الاستدلال بقوله تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ للفريق القائل بعدم المؤاخذة والاستدلال بالأحاديث الواردة فى تعذيب بعض أهل الفترة للفريق القائل بالمؤاخذة فليس بصحيح، لأن الآية وإن كانت قطعية الثبوت لكنها ظنية الدلالة، كما يعلم بالرجوع إلى ما كتبه المفسرون فى بيان مدلولها. أما الأحاديث فإنها أخبار آحاد لا تفيد فى المسائل القطعية.

الدعوة إلى الإسلام فى الصدر الأول وكتبه ﷺ ورسله إلى الملوك والأمم.

لما بلغ النبى ﷺ سن الكمال وهو أربعون سنة أرسله الله تعالى للعالمين بشيراً ونذيراً، ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ثم أنزل عليه ﴿ياأيها المدثر . قم فأنذر﴾ الآية فصار لزاما على النبى ﷺ أن يقوم بما أمره الله تعالى به، ويدعو الناس إلى توحيد البارى سبحانه وتعالى والتصديق برسالته، وترك عبادة الأصنام.

رأى النبى أنه سيدعو قوما إلى ترك ما ألفوه ويعيب تفكيرهم وعكوفهم على عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع.

ولو أنه فاجأهم بذلك وناداهم جميعا وأنذرهم، وسفه عقولهم، لقاموا فى وجهه، وثارت نفوسهم واستفزتهم النخوة العربية لمناوأته فى دعوته.

فكر فى طريق يسلكه يكون مأمون العاقبة، كفيلا بالوصول إلى الغاية المقصودة من البعثة .

فهداه التفكير إلى اتباع الحكمة والتأنى فى دعوته فتخير نفراً وثق منهم وعرف فيهم قوة العزيمة، والميل إلى الحق، فدعاهم إلى الإسلام سرا، فأجابوه منهم السيدة خديجة زوجه رضى الله عنها، والخليفة الأول أبو بكر رضى الله تعالى عنه، والإمام على كرم الله وجهه وكان إذ ذاك لم يبلغ الحلم، والأرقم بن أبى الأرقم .

وبعد أن آمن أبو بكر رضى الله عنه أخذ يدعو من يثق به سرا فأجابه كثيرون منهم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه، والزبير بن العوام، وكان ﷺ يجتمع بهم فى دار الأرقم، يعلمهم شئون دينهم، وما يلزمهم لمعادهم ومعاشهم، حتى أصبحوا صالحين للدفاع عن الدين والقيام بشئونه .

مضت ثلاث سنوات من مبدأ رسالته عليه الصلاة والسلام، وهو عاكف على تخير بعض الأفراد ودعوتهم سرا للإسلام، وتعليمهم ما يحتاجون إليه من شئون الدين، وهى مدة كافية فى التمهيد للجهر بالدعوة، فلا ضرر حينئذ فى الجهر بها .

لذلك أنزل الله عليه قوله ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فتقدم النبى ﷺ إلى قومه بروح قوية، وعزم ثابت، فجهر بالدعوة، فاعتلى الصفا ونادى بطون قريش، فحضر منهم من استطاع الحضور، ومن لم يستطع أرسل رسولا يأتى إليه بالخبر .

فلما التأم عقدهم وقف رسول الله خطيبا بينهم، وشرح لهم دعوته، وأبان لهم أن تعظيم الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ليس من العقل والحكمة، وأنه يجب الخضوع لخالق السموات والأرض دون سواه، وكان عليه الصلاة والسلام كبير الرجاء فى أن يجد إقبالا منهم، واستحسانا لما يلقيه عليهم، ويرشدهم إليه ولكن كان الأمر على خلاف ما يرجوه، فقد تصدى للإجابة نائبا عن القوم عمه

أبو لهب وقال «تباً لك ألهذا جمعتنا»، وبذلك انفرط عقد الاجتماع فأنزل الله تعالى في شأنه ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ السورة.

أنزل الله عليه بعد ذلك قوله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، فعمل بمقتضاها وجمع أقاربه، وخطب فيهم ناصحا مرشدا، فهب عمه أبو لهب ونادى في القوم قائلا «خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه» فكان أبو لهب سببا في إفساد هذا الاجتماع كما كان سببا في إفساد الاجتماع الذي عمل بطون قريش.

ولا يهولنك أيها الناظر ما حصل للنبي في هذين الاجتماعين فتظن أنه قد خذل، فإن فيما حصل حكمة عظيمة يدركها المتأمل، فإن بطون قريش وأقاربه لو آمنوا بمجرد الدعوة لقال الناس إن قريشا وآل محمد يدبرون، ليتخذوه ملكا يخضعون به رقاب الناس، ويستذلون أعناق العرب، وحينئذ تقل أتباعه، ويكون ذلك مطعنا يتذرع به أعداء الدين الإسلامي، هذا الإعراض عن إجابة النبي ﷺ لم يقعده عن السير في طريقه، بل استمر في دعوته وأخذ يعيب آلهتهم ويسفه عقولهم، ويقول لهم: «أنتم خالفتم دين أبيكم إبراهيم» وأنذرهم سوء المصير، إن لم يقلعوا عن اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله، ثم أخذ يصف آباءهم بعدم العقل، وعدم الهداية، فعظم ذلك عليهم، وقالوا لأبي طالب عمه إما أن تكفه أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، فلم يؤثر هذا على النبي وقال لعمه: «والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

بعد ذلك فكرت قريش في أن تسلك طريقا آخر للقضاء على هذه الدعوة فهداهم تفكيرهم إلى أمرين:

أولهما: أن يقاطعوا الرسول وأتباعه مقاطعة تامة عامة، وكتبوا بذلك وثيقة علقوها في جوف الكعبة تأكيدا لها.

ثانيهما: أن يصبوا العذاب فوق رؤوس المستضعفين من المؤمنين، وعلى هذا الأساس ابتدئوا ينفذون خطتهم، فحرموا معاملة النبي وأصحابه، حتى على الغرباء من مكة، وأبوا أن يبادلوهم حتى أنواع الطعام.

وألحقوا بأصحابه المستضعفين أنواع الأذى، ونكلوا بهم شر تنكيل. واستمروا على ذلك ثلاث سنوات، نفذوا فيها ما أقروه بعنف وغلظة، ولكن هذه القسوة والشدة نبهت نفرا من أعاظم قريش، وهم هشام بن عمرو، زهير بن أمية، المطعم بن عدى، أبو البختري بن هشام، زمعة بن الأسود إلى أن ما فعل مع محمد وصحبه ظلم وقطيعة ووحشية لا يصح إقراره، فاتفقوا ليلا على نقض الصحيفة، فلما أصبحوا غدا زهير فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة.

فعارضه أبو جهل وانتهى الأمر بأن قام المطعم بن عدى وشق الصحيفة. وبذلك استطاع الرسول والذين آمنوا معه أن يخرجوا من تلك الشدة، ولم يكد الرسول ﷺ يتنفس من تلك الشدة، حتى أصيب بكارثة عظمى فاختطف الموت عضدين عظيمين له، هما عمه أبو طالب، وزوجه خديجة رضى الله عنها، ففرح أعداؤه بذلك حيث زالت الحجب التى كانت تحول بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، فأخذوا يلحقون به من الأذى ما يبتغون ظنا منهم أن هذا يقعده عن السير فى طريقه.

ومن ذلك أن بعض السفهاء كان يحثو التراب على رأسه إذا مر أمامهم يسخرون منه، وبعضهم كان يلقى عليه حال سجوده للصلاة أوساخ شاة مذبوحة، وبعضهم يضع فى عنقه ثوبا ويشده ليخنقه، حتى خلصه منهم أبو بكر وقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله» مضت عشر سنوات والقوم يبالغون فى عنادهم وإيذائهم، وإعراضهم، والرسول يستمر فى دعوته، ولما استيأس من إجابتهم خطر له أن يستعين ببنى ثقيف، فذهب إلى الطائف

مستخفيا وكاشف أهله بغايته وما جاء لأجله، فردوا عليه دعوته وأغروا به سفهاءهم، فتجمهروا حوله، وصاروا يقذفونه بالأحجار ويهزءون به، حتى سال منه الدم، فالتجأ إلى بستان في الطريق واتجه إلى الله، وقال «يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إن لم يكن لك غضب عليّ فلا أبالي» .

بعد ذلك فكر النبي ﷺ في سلوك طريق آخر لنشر دعوته وهو عرض الدعوة إلى الإسلام على القبائل التي تفد إلى مكة أيام المواسم فأخذ يقصدهم في مجامعهم، يبين لهم دعوته ويقيم حجته، ولكنه لم يسلم من معارضين له في طريقه من أهل مكة، فصاروا يقولون للوفود هو ساحر، يأتي بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وزوجه، وبين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، فأثر ذلك في نشر الدعوة ورجعت القبائل إلى مواطنها كما جاءت، ولم يسلم منهم سوى ستة من أهل يثرب منهم جابر بن عبد الله وعقبة بن عامر .

ولكنهم كانوا خير دعاة إلى الإسلام بعد عودتهم إلى يثرب، فانضم إليهم عدد غير قليل، ولما جاء الموسم التالي قدم إلى مكة من المدينة إثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج، فاجتمعوا بالرسول وأسلموا، وبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه في معروف، وفي الموسم الثالث وفد على الرسول من المدينة ثلاثة وسبعون رجلا، وامرأتان، فقابلوه وأسلموا، وعاهدوه على أن يكونوا له أنصارا، يمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وبعد عودتهم إلى المدينة انضموا إلى الدعاة هناك .

فلم يمض سوى قليل من الزمن حتى كثر سواد المسلمين بالمدينة وبذلك صارت المدينة معقلا حصينا للإسلام، وصار أهلها أنصار الإسلام وحماته .

عند ذلك استشعرت قريش أن النبي أصبح له أنصار يحمون ظهره ويحفظونه، وينوهون بشأن دينه في الجزيرة العربية، فأجمعوا أمرهم بعد تشاور

ويبادل في الرأى على قتله، وأن يتفرق دمه في القبائل، حتى لا يتمكن بنو عبد مناف من الأخذ بثأره، فيرضخون للدية، وبذلك يستريحون وتطمئن نفوسهم فانتدبوا من كل قبيلة شابا يمثلها في قتل النبى، وحددوا موعدا لتنفيذ ما أفروه هذا مكرهم، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فقد أعلم الله نبيه بما دبره الأعداء في سرهم، وأمره باللحاق ببلد فيها ينشر الإسلام ويكون فيها لرسول الله ﷺ العزة والمنعة، لله تعالى فى ذلك حكمة عظمى، فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون أن قريشا أرادوا ملك العرب، فعمدوا إلى شخص منهم، وأوعزوا إليه أن يدعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم .

وفى الليلة التى اتفقوا على تنفيذ خطتهم فيها اجتمع الشبان المكلفون بقتل النبى حول باب الدار، ورسول الله داخله، ولما جاء موعد خروجه ﷺ أمر ابن عمه عليا بالمبيت مكانه، ثم غطى عليا ببردته، وخرج على القوم وهو يقرأ ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ فألقى الله عليهم النوم حتى لم يره أحد، وسار فى طريقه حتى التقى بصاحبه أبى بكر رضى الله عنه فى المكان الذى اتفقا على المقابلة فيه، فسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه، وحفظهما الله بعنايته من الأعداء، وبهذا فشل القوم فى تدبيرهم .

فخرجا من الغار وسارا إلى يثرب من طريق غير مألوف للمسافرين، حتى وصلاها، وكان أهل المدينة قد سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم، فخرجوا ينتظرونه حتى وصل إليهم، فوجدا أقواما مؤمنين صادقين، أنصارا مخلصين يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وبعد أن استقر بالمدينة هاجر من مكة أهل بيته إليه ومنع المشركون بعض المسلمين من المهاجرة، ولم يكد رسول الله ﷺ يتنفس قليلا حتى ابتلى بيهود المدينة، فقد أظهروا للنبى وأصحابه العداوة والبغضاء، وانضم إليهم سرا قوم لما يجاوز الإسلام حناجرهم وهم المنافقون، فكانوا عونا لهم على النبى وصحبه، فأصبح للنبى ﷺ أعداء

فى مكة وفى المدينة، يقفون فى سبيل نشر دعوته، يلحقون الأذى بالمسلمين، فلم يكن بد من الإذن بقتال هؤلاء المناوئين للرسول، الواقفين فى طريقه، فأخذ النبى فى مقاتلة هؤلاء المعاندين، تارة يخرج بنفسه مع المقاتلين وتسمى غزوة، وتارة يرسل عددا من الجيوش من غير أن يكون فيه وتسمى سرية.

استمر فى مقاتلة هؤلاء الأعداء إلى أن جاءت غزوة الحديبية، وحصل فيها الصلح على الشروط التى وضعت لذلك فأصبح الطريق بمقتضى هذه المعاهدة مأمونا، وأمكن للنبى أن يتوسع فى نشر الدعوة بإرسال الكتب، والرسل إلى الملوك والأمم يدعوهم إلى الإسلام فاتخذ خاتما من فضة يختم به خطابه، كان نقشه (محمد رسول الله) وابتدأ سنة ست من الهجرة فى مكاتبة الملوك، فكتب إلى القيصر «هرقل ملك الروم» وإلى أمير بصرى، وإلى أمير دمشق، وإلى المقوقس وإلى النجاشى وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين وإلى ملكى عمان وإلى غيرهم.

وإلى أذكر من بين هذه الكتب كتابه عليه السلام إلى القيصر وإلى المقوقس وإلى النجاشى وإلى كسرى ملك الفرس، أما كتابه إلى القيصر فهذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال: انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة، فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك، فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه سلهم أيهم أقرب نسبا لهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، فقال أبو سفيان أنا، لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره، فقال قيصر: أدن منى، ثم أمر بأصحابه

فجعلوا خلف ظهره، ثم قال لترجمانه، قل لأصحابه: إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل، الذى يزعم أنه نبى، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب، ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال هو فينا ذو نسب، قال هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله، قال لا، قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، قال لا. قال فهل كان من آبائه من مَلِك، قال لا: قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم قال بل ضعفاؤهم، قال فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال بل يزيدون، قال هل يرتد أحد منهم سخطا لدينه، قل لا: قال هل يغدر إذا عاهد؟! قال لا، ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها، قال فهل قاتلتموه قال نعم، قال فكيف حربكم وحربه، قل الحرب بيننا وبينه سجال، مرة لنا ومرة علينا، قال فيم يأمركم: قال يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، وينهى عما كان يعبد آباؤنا، ويأمر بالصلاة والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة.

فقال الملك إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل كان من آبائه من مَلِك، فقلت لا، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون، فقلت بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقلت لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم، وأن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك بماذا يأمر، فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء

الأمانة ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبي ، وقد علمت أنه مبعوث ، ولم أظن أنه فيكم ، وإن كان ما كلمتني به حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، ولو أعلم أني أخلص إليه لتكلفت ذلك ، قال أبو سفيان فعلت أصوات الذين عنده ، وكثر لغطهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه ، قال لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر ، ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها فأغلقت ، ثم قال يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم ، قال ردوهم عليّ ، فقال لهم إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فغلبه حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمه ، وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام في كتابه ولكنه رد دحية ردا جميلا .

وكتب عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر كتابا أرسله مع حاطب بن أبي بلتعة كتابا قال فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، وياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فأوصله حاطب الإسكندرية فلما قرأه قال ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده فقال حاطب ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله ، فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله ، حتى رفعه الله إليه ، قال أحسنت : أنت حكيم جاء من عند حكيم ، ثم قال قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر

الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة، إخراج المستور والإخبار بالنجوى وسأنظر ثم كتب رد الجواب يقول فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط، وبثياب وأهديت إليك بغلة تركبها والسلام) وكانت إحدى الجاريتين مارية التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام، وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت ولم يسلم المقوقس، وكتب عليه الصلاة والسلام كتابا إلى النجاشى ملك الحبشة أرسله مع عمرو بن أمية الضمرى قال فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة، سلام عليك أما بعد فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى) فلما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام، وقال لعمرو حامله إنى أعلم والله أن عيسى بشر به، ولكن أعوانى بالحبشة قليل، فانتظرنى حتى أكثر الأعوان، وألين القلوب.

وأرسل رسول الله ﷺ كتابا إلى كسرى ملك الفرس مع عبد الله بن حذافة قال فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين أسلم

تسلم، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فلما وصله الكتاب مزقه استكبارا، ولما علم النبي ﷺ قال (مزق الله ملكه كما مزق) وقد حصل، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطا .

أما رسله إلى الأمم ففي السنة العاشرة من الهجرة في شهر ربيع الآخر أرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد في جمع لبني عبد المدان بنجران من أرض اليمن وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاث مرات، فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم بعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام، ويقولون أسلموا تسلموا، فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجا، فأقام خالد بينهم يعلمهم الإسلام والقرآن، وكتب إلى رسول الله بذلك، فأرسل إليه أن يقدم بوفدهم ففعل، وحين اجتمعوا ﷺ قال لهم بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟! قالوا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدا بظلم، قال صدقتم وأمر عليهم زيد بن حصين .

وفي شهر رمضان من هذه السنة أرسل عليا إلى جمع إلى بني مزجح (قبيلة يمانية) وعممه بيده، وقال (سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم إلى قول لا إله إلا الله، فإن قالوا نعم، فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك، ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك) فلما انتهى إليهم لقي جموعهم فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا ورموا المسلمين بالنبل، فصف عليٌّ أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن طلبهم قليلا، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه، وبايعه رؤساؤهم، وقالوا نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله، ففعل ثم رجع إلى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع .

وإن أردت أن تلم بجميع ما وقع من النبي ﷺ مع قومه من تدرجه في الدعوة إلى آخر حياته فعليك بكتب السير، وبعد وفاة النبي ﷺ جرى الخلفاء الراشدون في نشر الدعاية للإسلام على طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام، فانتشر الإسلام في الجزيرة العربية وغيرها .

ظهور الخلاف بعده ﷺ

كان المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ على منهاج واحد فى أصول الدين، وفروعه، سوى من أظهر وفاقا وأضمر نفاقا، فقد كان رسول الله الصادق فى قوله ينزل عليه الوحى السماوى، مبينا حكم الله تعالى فى جميع الشئون الدنيوية والأخروية، فيقوم بالتبليغ كما أمره الله، فلم يكن هناك مقتض لوقوع الخلاف بينهم .

توفى رسول الله ﷺ، وانقطع الوحى، وجدّت حوادث لم يرد فيها نص قاطع، أو وردت فيها نصوص ولكنها خفيت على بعض الصحابة، فاختلفت فيها آراؤهم ومداركهم، غير أن الاختلاف بينهم فى عصر أبى بكر وعمر وصدر خلافة عثمان رضى الله عنه لم يتعد الفروع .

فاختلفوا فى موضع دفن النبى ﷺ فكان رأى أهل مكة أن يدفن فى مكة، لأنها مولده ومبعثه، وقبلته، وكان رأى أهل المدينة أن يدفن بها، لأنها دار هجرته، ودار أنصاره، ورأى آخرون نقله إلى بيت المقدس، لأن قبر جده الخليل عليه السلام هناك، وزال ذلك الخلاف بما رواه أبو بكر رضى الله عنه .

وهو قول النبى ﷺ «إن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون» فدفنوه فى حجرته بالمدينة .

ثم اختلفوا بعد ذلك فيمن يكون إماما وخليفة، يقوم بشئون المسلمين فكان رأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم، ورأى المهاجرين أن يكون الخليفة منهم، لأنهم أول من آمن به، وصبروا على الأذى، وهم قومه وعشيرته، وهم من قريش والعرب لا تدين إلا لهم، فهم أولى بالخلافة من غيرهم، فأذعنت الأنصار لقريش وحصلت البيعة لأبى بكر رضى الله عنه، ثم اختلفوا بعد ذلك فى توريث التركات عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكانت السيدة فاطمة ترى

أنها أحق بميراث النبى ﷺ وانتهى الخلاف فى ذلك بما رواه أبو بكر رضى الله عنه وهو قول النبى ﷺ :

(نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة) . ثم اختلفوا بعد ذلك فى وجوب قتال مانعى الزكاة، فرأى أبو بكر وجوب قتالهم، وقال (لو منعونى عقالا مما أعطوا رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه) وخالفه عمر وقال كيف تقاتلهم وقد قال ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها) فقال أبو بكر (ألم يقل إلا بحقها) ومن حقها إيتاء الزكاة، كما أن من حقها إقامة الصلاة. واختلفوا أيضا فى توريث الإخوة مع الجد، وفى أمور كثيرة لا يورث اختلافهم فيها تضليلاً ولا تفسيقاً، لأنه لم يكن الباعث عليها هوىً، ولا مجرد رغبة، بل الباعث إقامة مراسم الدين، والمحافظة على قواعد الإسلام والوصول إلى الحق .

وبعد مضى ست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه، اختلفوا فى أمره، لأشياء حصلت منه، لم يرض عنها بعض الصحابة، وكانت النتيجة لذلك أن قتل عثمان رضى الله تعالى عنه، ثم اتسعت دائرة الخلاف إلى أن تعدت إلى العقائد الدينية، فقد حدث فى زمان المتأخرين من الصحابة أن (معبد الجهنى) التابعى (وغيلان الدمشقى) ويونس الأسوارى أنكروا إضافة الخير والشر إلى الله تعالى، وقال إن الله تعالى لم يقدر على خلقه شيئا مما هم عليه، وفى زمن خلافة علىّ كرم الله وجهه، بعد وقوع الحرب بينه وبين معاوية، وحصول التحكيم صرح قوم من جنده بأن التحكيم خطأ، وطلبوا من علىٍّ أن يقر على نفسه بالخطأ، بل بالكفر، وكانوا يرون أن الخلافة تكون بالاختيار ولا يتعين كون الخليفة قرشيا، وأن العمل جزء من الإيمان، ومن ذلك الفريق تكونت طائفة الخوارج .

كذلك ظهرت بدعة سيئة فى أيام علىّ، كان على رأسها عبد الملك(١) ابن سبأ فقد أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ بالإمامة من بعده وأحدث القول برجعة علىّ بعد موته، ورجعة رسول الله ﷺ، وزعم أن عليا لم يقتل، وأن فيه الجزء الإلهى، وأنه هو الذى يجىء فى السحاب، وأن الرعد صوته والبرق ضوئه، وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملؤها عدلا، كما ملئت جورا، ومن هذا تكونت فرق الشيعة.

ونشأت طائفة المرجئة لما رأت الخوارج يكفرون عليا وعثمان، والقائلين بالتحكيم، ورأت من الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان، ومن ناصروهم، وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم، والأمويون يقاتلونهم، ويرون أنهم مبطلون، وكل طائفة تدعى أنها على الحق، وأن من عداها كافر، فظهرت المرجئة، تسالم الجميع، ولا تكفر طائفة منهم، وتقول أن الفرق الثلاث: الشيعة والخوارج، والأمويين مؤمنون، وبعضهم مخطىء وبعضهم مصيب، ولسنا نستطيع أن نعين المصيب منهم، فلنترك أمرهم إلى الله فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فليسوا إذاً كفاراً، ولا مشركين، بل مسلمين، ونرجىء أمرهم إلى الله تعالى الذى يعرف سرائر الناس، ويحاسبهم عليها وأهم ما بحثوا فيه تحديد الإيمان والكفر، والمؤمن والكافر.

الاختلاف فى المتشابه

نزل القرآن الكريم ومن آياته ما يتعلق بالصلاة والزكاة، والصوم والحج، وأحوال القيامة، والجنة والنار، ومنها ما يتعلق بصفات البارى سبحانه وتعالى من العلم والقدرة والإرادة وغير ذلك.

وقد ذكر أرباب السير والحديث الأمور التى كانت الصحابة تسأل رسول الله ﷺ عنها، كالطهارة والعبادة والمعاملات .

ولم يكن من بين هذه الأمور التى سألوا عنها معنى صفة من صفات البارى كذلك لم ينقل أنها كانت موضع بحث لهم، كالأحكام الفرعية، ولا أنهم فرقوا بين كونها صفة ذات، وصفة فعل، وكل ما عرف عنهم فى هذا الباب مجاراتهم للقرآن الكريم، مع التنزيه وعدم التعطيل، فأثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة، والحياة، والإرادة والسمع والبصر، والجلال والإكرام، وأثبتوا ما أطلقه على نفسه من الوجه، واليد، والاستواء، ونحو ذلك مع نفى مماثلته للمخلوقين .

ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شىء من ذلك الوارد، وكانت كلمة الجميع واحدة، وهى إجراء الصفات كما وردت مع التنزيه وعدم التشبيه . ومضى عصر الصحابة والتابعين والشأن فى صفات البارى سبحانه وتعالى كما سمعت، إلى أن ظهرت بدعة (جهم بن صفوان) والمعتزلة فى نفى صفات البارى سبحانه وتعالى، ثم حدث بعد ذلك مذهب التجسيم والتشبيه، المضاد لمذهب الاعتزال، الذى تغالى فى عقيدته حتى شبه البارى سبحانه وتعالى بخلقه، إما فى الذات وإما فى الصفات، متمسكا بظواهر الآيات الدالة على التشبيه، غافلا عن قوله تعالى ﴿ليس كمثله شىء﴾ ، وكان ذلك بعد المائتين من سنى الهجرة على يد زعيم طائفة الكرامية محمد بن كرام .

عند ذلك قام السلف من أصحاب الحديث، وأخذوا يقررون مذهب أهل السنة والجماعة، فى متشابهات آيات الكتاب، وأخبار النبى ﷺ، فجرى الإمام أحمد بن حنبل، وداود بن على الأصفهانى، وجماعة من أئمة السلف على منهج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث، مثل مالك بن أنس، ومقاتل بن سليمان، وسلكوا الطريق الأسلم، فقالوا نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل، بعد أن نعلم قطعا أن الله عز وجل لا يشبه شيئا من المخلوقات وجرى غير الإمام أحمد ومن وافقه على منهج آخر، وهو تأويل تلك

الألفاظ المتشابهة، وحملها على معنى تحتمله، مع التنزيه عن مماثلة الخلق، وكل من الفريقين استند إلى ما يؤيد رأيه، وقد تقدم في مبحث صفات السلوب بيان أدلة كل فريق وبيان مذاهب المجسمة والمشبهة مع شبههم، والرد عليهم، فارجع إليه إن شئت .

بدء الكلام في التنزيه

وأصول العقائد مع ذكر أشهر المتصدين لذلك

جاء القرآن الكريم يخبرنا عن أمهات العقائد الدينية، التي يجب على كل مسلم أن يعتقدها، بحيث إذا جحدها لا يكون مسلما، فبين لنا أن الله سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة خلقه، وعن النقائص، وأنه قادر مريد، عالم حى، سميع بصير، واحد قديم، باق، وأنه بعث الرسل لمصالح الخلق وأرشدنا إلى ما يثبت ذلك من الأدلة الكونية، فى آيات كثيرة، وبلغ النبى ذلك إلى أمته وبين ما يحتاج إلى إيضاح .

فأخذ السلف عن الكتاب الكريم، وعن رسول الله ﷺ هذه العقائد، ولم تتشوق نفوسهم إلى التوسع فى البحث فيها، ولا إلى التفصيل .

ولكن عرض بعد ذلك خلاف فى تفاصيل هذه العقائد واختلفت مشارب الناظرين فى ذلك، فمنهم من سار وراء العقل، وأهمل النظر إلى المنقول، كمعبد الجهنى الذى قال إن الله لم يقدر على خلقه الشر وكان ذلك فى آخر زمان الصحابة .

مما هم عليه تنزيها له عن الظلم المستحيل عليه تعالى، وكجهم بن صفوان الذى ظهر أمره قبيل المائة من سنى الهجرة، فقد هداه تفكيره إلى

نفى[1] صفات لله زائدة على ذاته، لأن إثبات صفات زائدة، يؤدى إلى تعدد القدماء .

وأعتقد أن نفى الصفات هو غاية التنزيه، وكالمعتزلة فقد ساروا أيضا وراء العقل فقط، ووافقوا (جهم بن صفوان) فى قوله، وزادوا عليه قولهم إن فعل العبد حاصل بقدرته على الاستقلال، معتقدين أن هذا هو غاية التنزيه .

ومن الطوائف من قام يناضل هاتين الطائفتين، ويثبت صفات لله تعالى، زائدة على الذات، متمسكا بظواهر الآيات المتشابهة، مهملا عقله وتفكيره، فأداه ذلك إلى القول بالتجسيم والتشبيه، وظهر ذلك الرأى على يد زعيم هذه الطائفة (محمد بن كرام) بعد المائتين من سنى الهجرة .

ومن هذا يتبين لنا أن الطوائف التى تكلمت فى العقائد وتنزيه البارى سبحانه وتعالى لم تسلك طريق الجادة، فإن العقل وحده كثيرا ما يضل، والنقل وحده قد يحتمل .

عند ذلك شعر فريق من المتمسكين بطريقة السلف أن الخلاف بين طوائف الأمة قد اتسعت شقته، وأن الحق أصبح فى خفاء، وأن ترك هذه الطوائف وأقوالهم يؤدى إلى التلبيس على العامة وتفريق الكلمة .

والواجب على من يرى فى نفسه القدرة على رد هذه الشبهات وتمييز الصحيح من السقيم، أن يقوم بتفنيد الشبه التى استندت إليها الطوائف، وبيان العقيدة الصحيحة وكيف يستدل عليها فقاموا بتفنيد تلك الشبه، وسلكوا طريقا وسطا، فلم يكتفوا بقوة تفكيرهم ولم يقفوا أمام المنقول جامدين، مهملين عقولهم، بل حرضوا على المنقول ونظر فيه، وألموا بكل ما نقل، فوفقوا بين الآيات وبعضها، وكذلك الأحاديث، وأعملوا عقولهم فى دائرة محدودة، فكان

---

(١) هكذا وردت العبارة فى النسختين المطبوعتين، وأرى أن الأولى أن تكون العبارة نفذ حماه تفكيره إلى عدم زيادة صفات لله تعالى على ذاته خوفا من تعدد القديم .

ذلك موصلاً إلى عقيدة صحيحة موافقة لما كان عليه النبى وأصحابه، أرشدوا إليها العامة. ومن أشهر هذه الطائفة (الحسن البصرى) فقد كان له مجلس للتعليم والإفادة بالبصرة، يعلم الناس فيه العقائد الصحيحة ويحذرهم من الفتن والشبهات .

الإسرائليات والقصاصون والوضاعون

الإسـرائليات

هي العقائد غير الإسلامية ، والأساطير التي دسها اليهود ، ومن اعتنق دينهم من النصارى في الدين الإسلامي ، منذ القرن الأول الهجرى ، مثل ما نسب إلى يوسف عليه السـلام مع زليخا ، وما نسب إلى داود وسليمان عليهما السلام ، وما ذكروه في مدة الدنيا ، والأخبار والمغيبات ، اعتمادا على كتب أنبيائهم التي دخلها التغيير والتبديل ، والأحاديث التي نسبوها إلى النبي ﷺ كذبا .

هذه الإسرائيليات نقلها إلى المسلمين بعض اليهود الذين اعتنقوا الدين الإسلامي غير مخلصين ، أو كانوا مخلصين في إسلامهم ، ولكن علقت بأذهانهم هذه الأساطير ، وهم على دين اليهودية ، لأنهم كانوا أميين ، فنقلوها إلى المسلمين وتقبلها المسلمون على أنها صحيحة ، حتى وصل من أمور المسلمين أنهم اعتمدوا عليها في بيان معاني آيات القرآن ، وتفصيل المجمل منه ، فامتلأت كتب التفسير في القرن الأول بها .

وقد وفق الله تعالى من المسلمين من قام بتمييز الغث من السمين ، ونبه الأمة إلى مقدار ضرر الأخذ بهذه الإسرائليات ، والاعتماد عليها ، فالواجب على كل مسلم نبذها ، لأن منها ما يضر بالعقائد الدينية كنقلهم أن أيوب عليه السـلام مرض حتى ظهر الدود في كل جزء من أجزاء جسمه ، وكنسبتهم المعاصي إلى بعض الأنبياء ، فإن هذا يخالف ما يجب في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ومنها ما كان من قبيل الرجم بالغيب كالإخبار بمدة الدنيا ، واختراع الأحاديث لذلك .

القاص هو الذى يجلس فى المسجد وحوله الناس يذكرهم بالله، ويروى لهم حكايات وأحاديث، وقصصا عن الأمم الأخرى، وأساطير لا يعتمد فيها على الصدق قدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب.

وقد استحدث القصص فى صدر الإسلام فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه، فقد ورد أن تميما الدارى استأذن عمر أن يذكر الناس، فلم يأذن له، وفى آخر ولايته أذن له أن يذكر الناس يوم الجمعة، قبل أن يخرج عمر، خشية أن يدخل فى ذلك القصص أساطير، وبعد موت عمر أذن له عثمان أن يذكر الناس يومين فى الجمعة، وقد نما القصص واتسع أمره، لأنه يتفق وميول العامة، وأكثر القصص فى الكذب، حتى إن الإمام عليا كرم الله وجهه لما رأى ذلك طردهم من المساجد، واستثنى الحسن البصرى لتحريه الصدق.

وقد عرف من القصاصين: الحسن البصرى، وتميم الدارى، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه.

أما الحسن البصرى فكان شأنه فى القصص أن يذكر الناس بهول اليوم الآخر، ويخوفهم من العقاب، ويحذرهم من ارتكاب المنكرات، ويستخرج العظة من الحوادث، ولا يتعرض فى وعظه للأساطير.

وأما تميم الدارى فقد كان من نصارى اليمن، وأسلم سنة تسع من الهجرة وهو أول من قص فى مسجد رسول الله ﷺ، ويظهر أنه كان يدس على الناس ما ليس فى الدنيا، حتى اجترأ على الكذب على النبى ﷺ فقد روى أن روح بن زنباع زاره فوجده ينقى شعيرا لفرسه، وحوله أهله، فقال له أما كان فى هؤلاء من يكفيك، قال بلى، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من امرىء مسلم ينقى لفرسه شعيرا ثم يعلفه عليه إلا كتب الله له لكل حبة حسنة» وهذا الحديث ظاهر الوضع فإن الجزاء لا يتناسب والعمل.

أما كعب الأحبار فقد كان يهوديا من اليمن، وأسلم فى خلافة أبى بكر أو عمر على خلاف فى ذلك، وانتقل بعد إسلامه إلى المدينة، ثم إلى الشام، وكان يقص كثيرا وتوسع فى نقل الإسرائيليات المخالفة لعقائد المسلمين.

وأما وهب من منبه فقد كان من أهل الكتاب وأسلم، ورويت عنه أخبار كثيرة، وقصص تتعلق بأخبار الأول وقصص الأنبياء.

وهذا القصص الذى حصل من تميم الدارى، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه وكل أمثالهم أدخل على المسلمين كثيرا من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية، كما كان بابا دخل منه على الحديث كذب كثير، وأفسد التاريخ، وأضاع معالم الحق، وأدخل فى العقائد ما يقضى العقل باستحالته فكان له أثر غير صالح.

الوضاعون

الوضاعون فى اصطلاح المحدثين هم الذين يختلقون الأحاديث ويضيفونها إلى النبى ﷺ كذبا.

الأحاديث المروية عن النبى ﷺ لم تدون كما دُوّن القرآن، بل اعتمد أصحاب النبى فيها على الذاكرة، وقد نشأ من عدم تدوينها أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث، ونسبته كذبا إلى الرسول، وبخاصة بعد أن كثرت الفتوحات الإسلامية، ودخل فى الإسلام من لا يحصى من فارسى، ورومى، وبربرى، ومضرى، وكان من هؤلاء من لم يتجاوز إيمانهم حناجرهم فقد كان الوضع كثرة مزعجة.

والحامل على وضع الأحاديث أمور:

(١) الخصومة السياسية فالخصومة بين أبى بكر وعلى، ومعاوية، وبين

عبدالله بن الزبير وعبدالملك، ثم بين الأمويين والعباسيين، كانت سببا لوضع كثير من الأحاديث، فقد وضعت الشيعة أحاديث كثيرة فى مدح علىّ، وأحقيته بالخلافة، وفضله على سائر الصحابة .

كذلك وضع المتمون للأمويين أحاديث لتأييدهم، وكذلك المتمون للعباسيين، وقد قال ابن عرفة إن أكثر الأحاديث المذكورة فى فضائل الصحابة افتعلت فى أيامهم، تقربا إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بنى هاشم .

(٢) الخلافات الكلامية فقد كان بعض الفرق الخطابية والرافضة يضعون الأحاديث انتصارا لمذهبهم، روى ابن حيان بسنده إلى عبد الله بن يزيد المقرى أن رجلا من أهل البدع رجع عن بدعته، فجعل يقول : انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فإنا كنا إذا رأينا رأياً جعلنا له حديثا، وروى الخطيب بسنده عن حماد بن سلمة قال أخبرنى شيخ من الرافضة أنهم كانوا يجتمعون على وضع الأحاديث، وقال الحاكم كان محمد بن القاسم من رؤوس المرجئة وكان يضع الحديث على مذهبهم .

(٣) تقرب بعض الناس لبعض الخلفاء والأمراء فقد كان ذلك يحملهم على وضع أحاديث توافق أفعالهم، فقد ورد أن غياث بن إبراهيم دخل على المهدى ابن منصور وكان يعجبه اللهو بالحمام، فوضع له حديثا (لا سبق إلا فى خف أو حافر أو جناح) فأمر له بعشرة آلاف درهم، فما قام ليخرج قال المهدى : أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ما قال رسول الله ﷺ (جناح) ولكنه أراد ليتقرب إلينا .

(٤) تساهل بعضهم فى باب الفضائل والترغيب والترهيب، ونحو ذلك، مما لا يترتب عليه تحليل حرام أو تحريم حلال، وقد جوزت الكرامية الوضع فى هذا الباب، وقالوا إن قول النبى (من كذب علىّ متعمدا) معناه أن يقول إنه شاعر، أو مجنون، وهذا مخالف لإجماع المسلمين، وهذا التساهل أداهم إلى

وضع أحاديث كثيرة فى فضائل الأشخاص، حتى من لم يرهم النبى ﷺ، وفضائل آيات القرآن وسوره، كالذى روى عن أبى عصمة نوح بن أبى مريم أنه وضع أحاديث فى فضائل القرآن وسوره، بعنوان أن من قرأ سورة كذا فله كذا، وروى ذلك عن عكرمة عن ابن عباس، وتارة يروى عن أبى بن كعب، ولما سئل من أين هذه الأحاديث؟! قال رأيت اشتغال الناس بفقه أبى حنيفة، ومغازى ابن إسحاق، وأعرضوا عن حفظ القرآن فوضعت هذه الأحاديث حسبة لله تعالى.

وبالجملة فالوضع فى الأحاديث أدخل على المسلمين أمورا كثيرة ليست من دينهم، بعضها يرجع للعقائد، وبعضها يرجع لتحليل الحرام وتحريم الحلال، وبعضها يرجع لتفضيل الأشخاص، وغير ذلك، وجزى الله نقاد الأحاديث خيرا فقد اشتغلوا بالتنقيب عن هذه الأحاديث الموضوعة، وصنفوا فيها كتبا خاصة بها وذكروا أمورا تدل على الوضع، منها إقرار الراوى بوضع الحديث، الذى رواه ومنها الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير، أو الوعد العظيم على الفعل الحقير، ومنها كون الراوى رافضيا، والحديث فى فضائل أهل البيت، ومنها كون الحديث لدلالة[1] الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى، ومنها ركة المعنى.

---

(١) هكذا ورد التعبير فى النسختين المطبوعتين، ويبدو أن الكلام فيه تحريف والأولى أن يقال: ومنها كون الحديث يعارض دلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة... الخ.

الحملات الخفية على الدين الإسلامي
في الصدر الأول وعلاقته بالعقائد

ذكر محمد صديق حسن خان في كتابه (خبيئة الأكوان في افتراق الأمم على المذاهب والأديان) إن الفرس بلغت من سعة الملك، وعلو اليد، على جميع الأمم، ورفعة الشأن، أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم، فلما امتحنوا بزوال دولتهم على أيدى العرب.

وكانت العرب في نظر الفرس أقل الأمم خطرا عظم الأمر عليهم، وتضاعفت لديهم المصيبة، وأرادوا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يظهر الله تعالى الحق، وينصر المسلمين عليهم ويخذلهم، فلم يصلوا إلى غرضهم، فرأوا العدول عن الحرب إلى حيلة أخرى توصلهم إلى تفريق كلمة المسلمين، وإفساد عقائدهم وبذلك تضمحل دولتهم وتزول.

أظهر فريق منهم الإسلام واختلطوا بالمسلمين، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، واستبشاع ظلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى، حتى أخرجوهم عن طريق الهدى، فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر، يدعى المهدى، عنده حقيقة الدين، فهو الذى يأخذ[1] عنه الدين، أما الصحابة الذين ليسوا من آل البيت فهم كفار، لا يصح أن يأخذ عنهم الدين، وقوم خرجوا إلى القول بادعاء النبوة، وقوم سلكوا بهم إلى القول بالحلول وسقوط الشرائع، وآخرون تلاعبوا بهم فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وآخرون قالوا بل هي سبع عشرة صلاة في كل صلاة خمس عشرة ركعة.

---

(1) هكذا في النسختين المطبوعتين وأرى الصواب: يؤخذ عنه الدين ليستقيم التعبير.

وقد أظهر عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى الإسلام لكيد أهله، فكان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضى الله عنه، وقد أحرق علىّ كرم الله وجهه منهم طوائف قالوا بألوهيته، ومن هذه الأصول حدثت الإسماعيلية القائلين بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر، وحدثت أيضا القرامطة وهم الذين يؤولون شرائع الإسلام، ويصرفونها عن ظواهرها، إلى أمور زعموها من عند أنفسهم، ويؤولون آيات القرآن تأويلا بعيداً، انتحلوه من عند أنفسهم اهـ .

ومن ذلك يعلم أن الفتن التى انتشرت بين المسلمين من عهد عثمان رضى الله عنه وأوجبت ضعفهم وفرقت كلمتهم، حتى فى العقائد، إنما نشأت من عمل الذين تظاهروا بالإسلام من الفرس، واليهود، فقد دسوا على المسلمين شيئا كثيرا استحسنه قصار النظر، فاعتنقوه بينهم، حتى تكونت بذلك فرق شتى، كل فرقة تكذب الأخرى، أو تكفرها، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمع كلمة المسلمين على الحق .

ظهور المعتزلة وقيام أبو الحسن الأشعرى لمناهضتهم وشرح طريقته

المعتزلة فرقة من الفرق التى لها شأن فى علم الكلام، وآراء فى الإلهيات ومقدماتها، ومذاهب فى السمعيات، ولقبت هذه الفرقة بالجهمية والقدرية، كما لقبت بالمعتزلة، أما تلقيبهم بالجهمية فلأنهم وافقوهم فى نفى الصفات عن الله، وفى خلق القرآن، وقولهم إن الله لا يرى، وأما تلقيبهم بالقدرية فلأنهم وافقوهم فى قولهم إن للإنسان قدرة، توجد الفعل بانفرادها، واستقلالها، دون الله تعالى ونفوا أن تكون الأشياء بقضاء الله تعالى وقدره.

وأما تلقيبهم بالمعتزلة فذهب بعض الكاتبين إلى أنه أتى من أن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصرى، فدخل رجل وسأل الحسن فقال ياإمام الدين: ظهر فى زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة، يعنى وعيدية الخوارج، وجماعة أخرى يرجون صاحب الكبائر ويقولون لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف تحكم لنا أن نعتقد فى ذلك فتفكر الحسن، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، ثم قام إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد، وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن، أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن، ولا كافر، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين قائلا إن المؤمن اسم مدح، والفاسق لا يستحق المدح، فلا يكون مؤمنا، وليس بكافر أيضا لإقراره بالشهادتين، ولوجود سائر أعمال الخير فيه، فإذامات بلا توبة خلد فى النار، إذ ليس فى الآخرة إلا فريقان: فريق فى الجنة،وفريق فى السعير، لكن يخفف عليه. فقال الحسن قد اعتزل عنا واصل، فسمى هو وأصحابه معتزلة.

وذهب البعض إلى أنهم سموا معتزلة لأنهم اعتزلوا قول الأمة، وقيل سموا معتزلة لقولهم إن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين.

وهذه التسمية لم يرض عنها كثير منهم، وكانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، أما العدل فلأنهم نزهوا الله تعالى عما يقوله خصومهم، من أنه قدر على الناس المعاصي، ثم عذبهم عليها، وقالوا إن الإنسان حر فيما يفعل، ومن أجل هذا عذب على ما يفعل، وهذا عدل، وأما التوحيد فلأنهم نفوا صفات الله تعالى وعدوا القول بها تعديدا للإله، وقد اشتهر من أوائل الداعين إلى الاعتزال (واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد) فأما واصل فكان من الموالى ولد فى المدينة سنة ٨٠ هـ ثم انتقل إلى البصرة وسمع من الحسن البصرى وغيره وتوفى سنة ١٣١ هـ.

وأما عمرو بن عبيد فهو من الموالى أيضا، وتتلمذ للحسن البصرى واعتنق رأى واصل بن عطاء فى الاعتزال، وقد نشأ الاعتزال بالبصرة وانتشر فى العراق واعتنقه من خلفاء بنى أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد وفى العصر العباسى تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان: مدرسة البصرة ومدرسة بغداد.

وكان أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى قد أخذ عن أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى، ولازمه عدة أعوام، واعتنق مذهب الاعتزال عدة سنين، حتى صار من أئمة المعتزلة، ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة، وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا، ونادى بأعلى صوته من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى، أنا فلان ابن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد الرد على المعتزلة، مبين لفضائحهم ومعايبهم. وأخذ من حينئذ فى الرد عليهم وصنف كتبا كثيرة فى الرد عليهم وبيان عقيدته التى اعتنقها.

وجملة عقيدته حدوث العالم، ووجود البارى، وأنه لا خالق سواه، وأنه قديم متصف بالعلم والقدرة، وسائر صفات الجلال، لا شبيه له ولا ضد، ولا ند له ولا يحل فى شىء، ولا يقوم بذاته حادث، ليس فى حيز، ولا جهة، ولا يصح عليه الحركة والانتقال، ولا الجهل، ولا الكذب، ولا شىء من صفات النقص،

مرئي للمؤمنين في الآخرة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، غنى لا يحتاج إلى شيء ولا يجب عليه شيء، إن أثاب فبفضله، وإن عاقب فبعدله، لا غرض لفعله، ولا حاكم سواه. لا يوصف فيما يفعل أو يحكم بجور ولا ظلم، وهو غير متبعض، ولا له حد، ولا نهاية وله الزيادة والنقصان في مخلوقاته، والمعاد الجسماني حق، وكذا المجازاة، والمحاسبة والصراط، والميزان، وخلق الجنة والنار، وخلود أهل الجنة فيها، وخلود الكفار في النار، ويجوز العفو عن المذنبين، والشفاعة حق، وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم إلى محمد، والإمام يجب نصبه على المكلفين، والإمام الحق بعد رسول الله أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علىّ، والأفضلية بهذا الترتيب، ولا نكفر أحدا من أهل القبلة، إلا بما فيه نفى للصانع القادر العليم، أو شرك، أو إنكار للنبوة، أو إنكار ما علم مجىء النبى به ضرورة، أو إنكار لمجمع عليه قطعا، كاستحلال المحرمات المجمع على حرمتها، وكان الإجماع قطعيا.

هذا مجمل عقيدة الأشعرى، وهى عقيدة السلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة.

ترجمة الفلسفة اليونانية وظهور أثرها فى العقائد وامتزاج مسائلها وطريقة المتأخرين فى ذلك

ذكر علماء التاريخ أن المأمون أحد خلفاء بنى العباس عرف عنه سعة العلم وحرية الفكر، وميله إلى القياس العقلى، فلم ير بأسا من نقل علوم اليونان إلى اللغة العربية، فابتدأ بترجمة كتب الفلسفة، وكلف من يقوم بذلك. وعلوم الفلسفة كثيرة يهمنا منها فى بحثنا الآن: علم الطبيعيات وعلم الإلهيات.

أما علم الطبيعيات فهو الباحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر فى الأجسام السماوية، والعنصرية، وما يتولد منها، من حيوان وإنسان، ونبات، ومعدن، وما يتكون فى الأرض من العيون والزلازل، وفى الجو من السحاب، والبخار، والرعد، والبرق، والعواصف، وفى النفس الإنسانية والحيوانية والنباتية.

وأما علم الإلهيات فهو الباحث عن الوجود المطلق، فيبحث أولا فى الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات، من الماهية والوحدة والكثرة، والوجوب والإمكان وغير ذلك، ثم ينظر فى مبادىء الموجودات، وأنها روحانيات، ثم فى كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها، ثم فى أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدأ.

ولما نقلت كتب الفلسفة إلى اللغة العربية أعجب بها فلاسفة الإسلام وبخاصة ما نقل عن أفلاطون وأرسطو فأقبلوا عليها، واشتغلوا بها، واستحسنوا كثيرا من مبادئها المستمدة من العقل المحض، فدافعوا عنها، ولم يكتفوا بذلك، بل زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين، مؤيدين مزاعمهم بالأدلة العقلية، التى اشتملت عليها هذه الكتب المعربة.

ومن أشهر فلاسفة الإسلام الذين اشتغلوا بهذه الكتب وعكفوا عليها

أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ وأبو علي بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ .

هذا الطريق الذى سلكه فلاسفة الإسلام كان سببا فى تغير طريقة التدوين فى علم الكلام، والتوسع فى مباحثه، وخلط مسائله بمباحث الطبيعيات والإلهيات .

فقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته، والأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد ما يفيد أن السلف نظروا فى القرآن الكريم، فرأوا فيه آيات كثيرة تدل على تنزيه البارى سبحانه وتعالى، عن النقائص، وعن مشابهة خلقه، ورأوا آيات أخرى ظاهرها يوهم التشبيه، فى الذات، وأخرى ظاهرها يوهم التشبيه فى الصفات، فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها، ووضوح دلالتها، وجزموا باستحالة التشبيه وصرفوا آياته عن ظاهرها، وفوضوا علم المراد منها إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يتعرضوا لتأويلها .

وشذ عن رأى السلف مبتدعة، اتبعوا ما تشابه من الآيات، وتوغلوا فى التشبيه، وافترقوا فيه، فذهب بعضهم إلى التشبيه فى الذات، وذهب بعضهم إلى التشبيه فى الصفات .

ولما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث، وألف المتكلمون فى التنزيه، حدثت بدعة المعتزلة فى تعميم التنزيه، المستفاد من آياته، فقالوا بنفى صفات المعانى، حتى لا تتعدد القدماء، وقضوا بأن القرآن مخلوق .

فكان ذلك سببا لاهتمام أهل السنة بإقامة الأدلة العقلية على عقائدهم، وإبطال هذه البدع، وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وسلك مسلكا وسطا، فنفى التشبيه، وأثبت صفات المعانى بطريق النقل والعقل، ورد على المبتدعة فيما ابتدعوه، وفيما مهدوه لأقوالهم من القول بالصلاح والأصلح، والتحسين والتقبيح العقليين، وأكمل العقائد بالكلام فى البعث، وأحوال الجنة والنار، والثواب والعقاب، ثم ألحق بذلك الكلام فى الإمامة لأجل الرد على بدعة الإمامية، ورأيهم فى الإمامة، حيث اعتقدوا أنها من عقائد الإيمان .

وسموا مجموع هذه المباحث (علم الكلام) واقتفى طريقة الأشعرى تلاميذه كابن مجاهد وغيره .

ونصره جماعة من أكابر العلماء، كإمام الحرمين، والأسفرائينى، وأبى بكر الباقلانى، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة، غير أن هؤلاء الناصرين لمذهب الأشعرى بعد تقريرهم ما بنى عليه رأيه، من نواميس الكون، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها، كما يجب عليه اليقين بما تؤدى إليه من عقائد الإيمان، ذهابا منهم إلى أن عدم الدليل يؤدى إلى عدم المدلول، ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالى والإمام الرازى، ومن أخذ مأخذهم، فخالفوهم فى ذلك وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها، فلا وجه للحجر فى الاستدلال .

كما أنهم أخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات، وما يتصل بها من الأمور العامة، وأحكام الجواهر، والأعراض، ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بعلم الكلام، يمس شيئا من مبانى الدين، واشتدوا فى نقده، ثم توغل المتأخرون من بعدهم فى الجرى على طريقتهم، وخلطوا مباحث علم الكلام بمباحث العلم الطبيعى، والإلهيات، وجعلوا جميعها علما واحدا، حتى التبس الأمر على الناظر فى كتب التوحيد، التى وضعها المتأخرون، مثل كتب البيضاوى[1] والعضد، فظن أن جميع المباحث الموجودة فى هذه الكتب من مسائل علم الكلام، وليس كذلك عما علمت .

---

(١) يقصد بكتب البيضاوى كتابه المسمى طوالع الأنوار، ويقصد بكتب (العضد) كتابه المسمى المواقف فى علم الكلام، وكتابه المسمى (العقائد العضدية).

أشهر الفرق الإسلامية في المسائل الاعتقادية

رءوس الفرق الإسلامية خمس: أهل السنة، الخوارج، الشيعة، المرجئة، المعتزلة.

أما أهل السنة فهم أبو الحسن الأشعرى وأبو منصور الماتريدى ومن سلك طريقهما، وهؤلاء لم يفترقوا إلا فى أمور يسيرة مثل كون الإسم عين المسمى أو غيره، ومعنى القضاء والقدر، وكون وجوب الإيمان بالعقل أو بالشرع، ومفهوم الإيمان وغير ذلك من الأمور، التى تقع عادة بين أهل الطريقة الواحدة، ولا تقتضى تباينا فى المذهب. ولذلك لم يعرف أن أحدا من علماء الكلام أو من المؤرخين جعل أهل السنة فرقتين، بل كلمة الجميع على أن أهل السنة و الأشاعرة والماتريدية فرقة واحدة، وطريقتهم هى ما عليه النبى ﷺ وأصحابه، فقد سلكوا فى إثبات العقائد مسلكا وسطا، جمع بين العقل والنقل كما يعلم ذلك بالاطلاع على ما دون فى الكتب الموضوعة لنقل مذهبهم.

الخوارج

لما اختلف معاوية مع علىّ كرم الله وجهه ونشب القتال بينهما فى وقعة (صفين) وأحس معاوية وصحبه بالهزيمة، طلب من علىّ تحكيم كتاب الله تعالى بينهما، فاختلف أصحاب علىّ فى قبول طلب معاوية، وبعد تردد وجدال بينهم قبل علىّ التحكيم، فاختير أبو موسى الأشعرى ليكون ممثلا لعلىّ وقومه، واختير عمرو بن العاص ليكون ممثلا لمعاوية وصحبه، فى ذلك الوقت قام فريق من جند علىّ، وأظهروا عدم الرضا عما فعله علىّ، وقالوا إن التحكيم خطأ لأن حكم الله فى الأمر واضح، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيهما المحق، وهذا الشك لا يصح، لأنهم لم يحاربوا إلا وهم موقنون أن الحق فى

جانبهم، وقالوا لا حكم إلا لله، وطلبوا من عليّ أن يقر على نفسه بالخطأ، بل بالكفر لقوله التحكيم، كما طلبوا منه الرجوع عما أبرمه مع معاوية من الشروط، فإن أجابهم إلى ذلك عادوا إليه وقاتلوا معه، وإلا فلا، فلم يجبهم عليّ كرم الله وجهه إلى طلبهم لمصلحة ظهرت له.

ولما يئسوا من رجوع عليّ وصحبه إلى رأيهم أجمعوا أمرهم على الخروج إلى قرية قريبة من الكوفة، تسمى حروراء، وسموا حين داك بالحرورية نسبة إلى هذه القرية، وسموا أيضا بالمحكمة أي الذين يقولون لا حكم إلا لله، وسموا أيضا بالخوارج لأنهم خرجوا على عليّ كرم الله وجهه وصحبه، وسموا أيضا بالشراة أي الذين باعوا أنفسهم لله وأخذوا ينشرون تعاليمهم، فتكلموا أولا في الخلافة، وقالوا: بصحة خلافة أبي بكر وعمر، وبصحة خلافة عثمان سنيه الأولى، ولما غير وخالف طريقة أبي بكر وعمر، وأتى بما أتى من تقديم أقاربه، وغير ذلك وجب عزله، وأقروا بصحة خلافة عليّ، ولكنهم قالوا أخطأ في التحكيم، وحكموا بكفره لما حكم، وطعنوا في أصحاب الجمل، طلحة والزبير، وعائشة، كما حكموا بكفر أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص.

واتفق جمهورهم على نظريتين **الأولى: أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر** من المسلمين، وإذا اختير الإمام فليس له أن يتنازل أو يحكم، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشيا، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين، ويجب عليه أن يخضع خضوعا تاما لأوامر الله، وإلا وجب عزله. **النظرية الثانية أن العمل بأوامر** الدين من صلاة وصيام وغيرهما جزء من الإيمان وليس الإيمان الاعتقاد بالله وحده.

ثم تفرقوا بعد ذلك إلى فرق، كل فرقة تخالف الأخرى في بعض تعاليمها بلغت في العدد نحو العشرين ومن أشهرهم الأزارقة اتباع نافع بن الأزرق، وهؤلاء يقولون بتكفير كل من خالفهم من المسلمين، وبعدم جواز مناكحتهم، وأكل ذبائحهم، وبعدم التوارث بين الخارجي وغيره.

ومن أشهر فرقهم النجدات اتباع نجدة بن عامر، وأهم تعاليمه التي انفرد بها أن الدين أمران: معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله إلى أن تقوم عليهم الحجة، وإن من أداه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور، ومن أشهر فرقهم الإباضية نسبة إلى رئيسهم عبد الله بن أباض التميمي، وهؤلاء لم يتغالوا في الحكم على مخالفيهم، كالأزارقة، بل قالوا بحل مناكحة غيرهم من المسلمين وبتوارث الخارجي وغيره.

الشيعة

الشيعة هي طائفة تغالت في حب آل البيت، ووصل بهم التغالي إلى الخروج عن حد الاعتدال.

كانت البذرة الأولى لهذه الطائفة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة رسول الله ﷺ أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه، وأولى أهل البيت العباس عم النبي، وعليّ ابن عمه، وعليّ أولى من العباس، لأمرين:

الأول أنه من السابقين إلى الإسلام، وزوج فاطمة بنت رسول الله، والثاني أن كفايته الشخصية وفضله وعلمه، وجهاده، لا يمكن لأحد أن ينازع فيه، أو ينكره، ثم نمت هذه الفكرة بمرور الزمان، وبالمطاعن في عثمان، ولكنها لم تصل إلى حد تكفير أصحاب رسول الله أو رفع عليّ إلى مقام النبوة، أو الألوهية، ولا زالت على هذا الحال إلى أن كثرت الفتوحات الإسلامية، وبسط المسلمون سلطانهم على جهات كثيرة ورأت الأمم الأخرى مثل: الفرس واليهود والنصارى أن دولهم على شرف الضعف أو الزوال، وأن مجدهم سائر إلى الفناء، فشرعوا يكيدون للإسلام والمسلمين، فلم يروا أنجع في ذلك من التظاهر باعتناق الإسلام، واتخاذ حب آل البيت ستارا، يضعون وراءه كل ما شاءت له أهواؤهم، وسولته لهم نفوسهم، مما يؤدي إلى هدم دين الإسلام والتلبيس على

المسلمين فى عقائدهم، فاليهودية ظهرت فى التشيع بالقول برجعة علىّ إلى الدنيا، وقال الشيعة إن النار محرمة على الشيعى إلا قليلا، كما قال اليهود: لن تمسنا النار إلا أياما معدودات، والنصرانية ظهرت فى قول بعضهم أن نسبة الإمام علىّ إلى الله كنسبة المسيح إليه، وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت فى الإمام، وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبدا، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبى، وتحت التشيع لآل البيت ظهر القول بتناسخ الأرواح، وتجسيم الإله والحلول، وتستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية، ولم يكن لهم حامل على ذلك إلا كراهيتهم للعرب ودولتهم.

كذلك تحت ستار التشيع وضعت أحاديث كثيرة، بخصوص التنويه بشأن آل البيت، لا يعرفها رجال الحديث، ولا يقولون بها، كما حصل تأويل لبعض الآيات، والأحاديث تنبو عنه الألفاظ والتراكيب.

وأساس نظرية الشيعة محصورة عندهم فى آل البيت، والإمام عندهم بعد النبى ﷺ الإمام علىّ، ثم تتسلسل بعده الإمامة فى آل البيت على خلاف بينهم فى الترتيب، والاعتراف بالإمام، وأن الطاعة له جزء من الإيمان والإمام فى نظرهم ليس كما ينظر إليه أهل السنة فعند أهل السنة الإمام نائب عن صاحب الشريعة فى المحافظة على أركان الدين، وإقامة حدوده، وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء، ليس له سلطة تشريعية.

أما عندهم فالإمام أكبر معلم، فالإمام الأول وهو علىّ كرم الله وجهه قد ورث علوم النبى ﷺ، وهو معصوم من الخطأ، ويزعمون أن العلم نوعان: علم الظاهر، وعلم الباطن، وأن النبى علم هذين النوعين لعلىّ وأطلعه على أسرار الكون، وخفايا المغيبات، فهو يعلم باطن القرآن وظاهره، وكل إمام يعلم من يأتى بعده هذه العلوم، وقد اختلفت هذه الطائفة فى شأن الأئمة وتسلسلهم اختلافا كثيرا، حتى وصل عدد فرقها إلى عشرين كما ذكر البغدادى فى كتاب الفرق بين الفرق.

ورؤوس هـذه الفرق أربع الزيدية والإمامية والكيسـانية والغلاة .

أما الزيدية فهم أتباع زيد بن على بن الحسـين بن علىّ كرم الله وجهه ، وهؤلاء تفرقوا إلى ثلاث فرق أشهرها الجارودية ، والسـليمانية . أما الجارودية أصحاب أبى الجارود فيعتقدون أن النبى نص على إمامة علىّ وصفاً لا تسـمية ، ويقولون إن الصحابة كفروا بمخالفته ، والإمامة بعد الحسن والحسين شورى فى أولادهما .

وأما السـليمانية أصحاب سليمان بن جريرة فقالوا الإمامة شورى فيما بين الخلق وتنعقد برجلين من خيار المسلمين ، وتصح إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، ولذلك صحت إمامة أبى بكر وعمر ، مع كون علىٌ أفضل منهما ، وكفروا عثمـان وطلحة والزبير وعائشة .

وأما الإمامية فقالوا إن محمداً ﷺ نص على خلافة علىّ ، وقد اغتصبها أبو بكر وعمر ، وتبرؤا منهما ، وقدحوا فى إمامتهما ، وجعلوا الاعتراف بالإمامة جزءاً من الإيمان ، وقد تفرقت هذه الطائفة إلى خمس عشرة فرقة منها الأثنى عشرية والإسماعيلية أما الأثنى عشرية ، فهم الذين يسلسلون الأئمة إلى اثنى عشر إماما وأن الإمام المنتظر هو الثانى عشر من نسبه إلى علىّ كرم الله وجهه .

وأما الإسماعيلية ويعرفون بالقرامطة فأصل دعوتهم قائمة على إبطال الشرائع وتأويل النصوص الواردة فى العبادات ، كقولهم : الوضوء عبارة عن موالاة الإمام ، والصلاة عبارة عن الناطق الذى هو الرسول ، بدليل قوله تعالى ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ .

وأما الكيسانية فهم أتباع المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى أخذ بثأر الحسين رضى الله عنه ، ويقال له كيسـان ، وقد افترقت هذه الطائفة إلى فرق يجمعها شيئان أحدهما قولهم بإمامة محمد بن الحنفية ثانيهما قولهم بجواز البداء على الله عز وجل وأما الغلاة فقد تفرقوا إلى فرق كثيرة أشهرها السـبائية وهم

• المرجئة

المرجئة هى الطائفة التى أرجأت أمر المختلفين من الصحابة الذين تقاتلوا إلى يوم القيامه، فلم تحكم بخطأ فريق، وإصابة آخر، نشأت هذه الطائفة لما رأت الخوارج يكفرون عليا وعثمان والقائلين بالتحكيم، ورأت من الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان، ومن ناصروهم، وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم، والأمويون يقاتلونهم ويرون أنهم مبطلون .

وكل طائفة تدعى أنها على الحق، وأن من عداها كافر، فظهرت هذه الفرقة تسالم الجميع، ولا تكفر طائفة منهم، وتقول إن الفرق الثلاثة الخوارج، والشيعة والأمويين، مؤمنون، وبعضهم مخطىء وبعضهم مصيب، ولا نستطيع تعيين المصيب فلنترك أمرهم جميعا إلى الله، ثم بحثوا فى الإيمان والكفر، والمؤمن والكافر، فأوصلهم بحثهم إلى معان تتناسب وطريقتهم، فرأى كثير منهم أن الإيمان هو المعرفة بالله، وبرسوله، فمن عرف أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن وفى هذا رد على الخوارج فى قولهم، إن الإتيان بالفرائض وترك الكبائر من أركان الإيمان، ورد على الشيعة القائلين إن الإيمان بالإمام، والطاعة له جزء من الإيمان، وغلا بعضهم فقال إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب فقط، وإن حصل فى المعتقد ما ينافى الاعتقاد من قول أو فعل .

المعتزلة

تقدم فى مبحث (ظهور المعتزلة وقيام أبى الحسن الأشعرى لمناهضتهم) بيان تاريخ نشأتهم وظهورهم، والآن نذكر تعاليمهم، وبعض فرقهم .

أما تعاليمهم فهى القول بأن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويسمى فاسقا ويخلد فى النار .

والقول بأن العبد يخلق أفعال نفسه خيرا كانت أو شرا، والقول بنفى صفات زائدة على الذات، والقول بوجوب الصلاح والأصلح، والقول بالتحسين والتقبيح العقليين، والقول بأن الله لا يرى فى الآخرة، والقول بأن كلام الله مخلوق، وبعد اتفاقهم على هذه الأمور افترقوا عشرين فرقة، كل فرقة تخطىء الأخرى فيما ذهبت إليه، فمن فرقهم الواصلية أصحاب واصل بن عطاء، قالوا بنفى الصفات، وقال الشهرستانى فى الملل والنحل شرعت أصحاب واصل فى هذه المسألة بعد ما طالعوا كتب الفلاسفة، وانتهى نظرهم إلى أن ردوا جميع الصفات إلى كونه عالما قادرا، ثم حكموا بأنهما صفتان ذاتيتان، اعتباريتان، للذات القديمة. وقالوا بإسناد أفعال العباد إلى قدرهم، وبالمنزلة بين المنزلتين، وذهبوا إلى الحكم بتخطئة أحد الفريقين، من عثمان وقاتليه، وجواز أن يكون عثمان لا مؤمنا ولا كافرا، وأن يخلد فى النار، وكذا علىّ ومقاتلوه، وحكموا بأنه بعد وقعة الجمل لا تقبل لعلىّ وطلحة والزبير شهادة، ومن فرق المعتزلة الهذيلية أصحاب أبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة ومقرر طريقتهم، وهؤلاء قالوا إن حركات أهل الجنة والنار ضرورية مخلوقة لله، إذ لو كانت مخلوقة لهم لكانوا مكلفين، ولا تكليف فى الآخرة، وقالوا إن أهل الجنة والنار تنقطع حركاتهم، ويصيرون إلى خمود دائم. وقالوا إن الله عالم بعلم هو ذاته، قادر بقدرة هى ذاته، حى بحياة ذاته، وأخذوا هذا القول من الفلاسفة الذين يعتقدون أنه تعالى واحد من جميع جهاته، لا تعدد فيه أصلا، وقالوا مريد بإرادة حادثة لا فى محل .

ومن فرقهم النظامية أصحاب إبراهيم بن سيار النظام الذى طالع كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، وهذه الفرقة تقول إن الله تعالى لا يقدر أن يفعل بعباده فى الدنيا، ما لا صلاح لهم فيه ولا يقدر أن يزيد فى الآخرة أو ينقص من ثواب وعقاب لأهل الجنة والنار، وتقول إن إرادته تعالى لفعله، هى خلقه على وفق علمه، وإرادته لفعل العبد أمره به، وتقول إن الإنسان هو الروح، والبدن آلتها، وتقول الأعراض أجسام والجوهر مؤلف من الأعراض، وتقول إن حقيقة العلم والجهل المركب واحدة، والاختلاف بينهما بأمر خارجى، وكذلك الإيمان والكفر حقيقتهما واحدة، والامتياز بينهما بأمر خارجى، هو مطابقة تلك الصور لمتعلقها، وعدم مطابقتها له .

وإلى هنا انتهى المنهاج المقرر فى التوحيد لطلاب كلية أصول الدين والحمد لله أولا وآخرا



فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تابع فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

...

رقم الإيداع ٩٨١٨ /٩٥